

المكتبة
التاريخية

الإمبراطورية الرومانية

بين الدين والبربرية
مع دراسة في «مدينة الله»

تأليف

الدكتور إسحق عبيد

مدرس العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

تقديم

الأب الدكتور جورج سحائير فنواي

الطبعة الأولى

١٩٧٢



دار المعارف بمصر

الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في «مدينة الله»

الدكتور إسحق عبيد

مدرس المصنوع الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

تقديم

الأب الدكتور جورج سحابة قنواى



دار المعارف بمصر

الناشر دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تقديم

للأب الدكتور جورج شحاتة قنواى

إنّ الذى يلتقى نظرة فاحصة على تاريخ الدول متتبعاً نشأتها وتطورها واطمئناناً لها لا يسعه إلا أن يقف مذهولاً إزاء عظمة الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum الواسعة الأرجاء الممتدة من جزيرة العرب إلى المحيط الأطلسى . هذه الإمبراطورية التى استطاعت أن تحقق فى العالم المتحضّر بأجمعه « السلام الرومانى » Pax Romana .

لقد فقدنا حقاً فى عصورنا الحديثة معنى السلام الدائم الذى يسود منطقة بأكملها لمدة ثلاثة أو أربعة أجيال . ففى القرون الوسطى لا تزال الدول تتطاحن وتشتبك بحروب ضاربة تتخللها فترات قصيرة من السلام . أما « السلام الرومانى » فقد شمل جميع البلاد المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط Mare nostrum وأتاح للعالم المتحضّر أن يعيش لمدة قرن أو قرنين حياة هادئة لا يزعجها صليل السلاح أو تهديدات الحروب . وهذا بفضل رجل عبقرى هو الإمبراطور أوكتافىوس . فقد أدرك منذ صغره أن الأزمة العنيفة التى كانت تعانىها روما منذ قرن لم تكن أزمة حكم فحسب بل كانت أوسع من هذا وأعمق . وكان يتحتم على حكّام روما أن يتجاوزوا حدود مدينتهم الضيقة وأن ينظروا إلى الإمبراطورية كمجموعة واسعة من الدول تتمتع كل منها بنوع من الاستقلال الذاتى تحت رياسة روما وقانونها . فأصبحت حينئذ الإمبراطورية نظاماً عالمياً يضم كل شعوب العالم المفتوحة إلى المدنية والتقى تريد أن تعيش فى كنف القانون الرومانى المبني أساسياً على احترام الشخص بوضمان حقوقه وصيانة العائلة والعدالة الاجتماعية .

ومن وفاته فى أغسطس سنة ١٤ بعد المسيح لغاية سنة ١٩٢ وهى سنة اغتيال كومود Commodus ، ظلّ الحكم الرومانى محتفظاً بقوة وبسيطته وتوازنه وثبوته فأخذ الناس يرونه طبيعياً بل أبدياً ويعتقدون أن العالم سيبقى دائماً على هذا المنوال .

ولكن الدوام لله وحده ... فقد انهار هذا الصرح الشامخ وتفككت هذا النظام المحكم مما جعل المؤرخين يتساءلون بدهشة واستغراب عن أسباب هذا الحادث الهائل غير المنتظر . ومن الطبيعي أن يذهبوا في تفسيره لمذاهب شتى . غير أن هناك بعض العوامل العامة التي يكاد يتفق الجميع على أنها أثرت تأثيراً فعلياً في سقوط الإمبراطورية الرومانية . ويمكننا أن نلخصها على الوجه الآتي :

أولاً : إن اتساع الإمبراطورية وبعد أطرافها جعل من العسير للقوة المركزية أن تراقب عن كثب أحوال أقسامها وأن تطبق في كل مكان النظام الروماني .

ثانياً : إن تعدد السلطات وقضاءها بخاصة في عهد دقلديانوس Diocletien أضعفا سيطرة الدولة .

ثالثاً : إن ازدياد عدد الموظفين الإداريين المكلفين بمراقبة المرافق العامة وتحصيل الضرائب التي كانت في ازدياد مستمر أحدث أزمة اقتصادية شديدة الوطأة .

رابعاً : وهذا لم يمنع طبقة من القادة والأغنياء الأرستقراطيين أن ينقادوا إلى الملذات والترف بل أن ينغمسوا في شتى مظاهر الفساد والرذيلة فانهارت القيم الروحية وتفككت روابط الأسرة وابتعدت روما عن المثل الأعلى القديم الذي كان قوامه التقشف العسكري والقناعة والحياة البسيطة والإخلاص للخير العام .

خامساً : لقد كان للأوبئة وللإحجام عن الزواج أو عن الإنجاب تهرباً من الصعوبات المالية تأثير في انخفاض عدد السكان .

سادساً : لقد تدفق في داخل الإمبراطورية بل في روما بالذات عدد كان يزداد على مر السنين من المرتزقة الأجانب الذين احتلوا مناصب في الجيش وفي المرافق العامة فجعلوا الروح الرومانية غريبة في مقر نشأتها .

سابعاً : لم تكتف البربر بتهديد الحدود والسعي المستمر لاقتحامها بل تمكن البعض منهم من التسلل إلى صميم الإمبراطورية والوصول إلى مناصب هامة فأصبحوا كطابور خامس على أهبة الانضمام إلى الغزاة البربر عند ما يتسنى لهؤلاء الإطاحة بالحكم الروماني .

لقد قيل إن المسيحية هي التي هدمت العالم الروماني . وأبرز من ذهب هذا

المذهب هو ادورد جيبون Gibbon في كتابه « اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ولكن هذا مجرد افتراء لأنه ليس هناك أى دليل على صحة هذا القول . لقد أبدى المسيحيون منذ البدء ولاءهم للحكم الشرعى امثالاً لأمر المسيح : « أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله » . والذي حصل هو أن الإمبراطورية قد اعترتها الشيخوخة وأصبحت منظماتها خالية مما كانت تحمل من معان سامية . فقدت روما حيويتها وقوتها الخلاقة التي كانت ميزتها الكبرى في أول نشأتها وفي إبان أوجها . فلأسباب التي ذكرناها دبّت في صميم كيائها قوى الانفكاك والاضمحلال . فكانت في أشد الحاجة إلى هيئة فتية تنبض بالإيمان والحماس والحكمة لكي تتسلم منها مشعل الحضارة ومجموعة هذه القيم العالية التي كانت فخر روما وسر نجاحها . وقصارى القول لم تهدم المسيحية العالم القديم بل أخذت محله : أخذت على عاتقها مسئولية حمل المثل العليا وتوجيه العقول وتشجيع الهمم وشحن القلوب بالمحبة وحثهم على العمل الصالح .

وإزاء حضارة كان ينخر في عظامها سوس الفساد والانحراف ، ظهرت المسيحية كمصدر للفضائل والعزائم الصالحة ؛ وإزاء عالم فقد ثقته بنفسه فلم يعرف إلى أى قصد يسير وأى وسائل يستعمل ، تقدمت المسيحية بإيمان راسخ ، متجهة بقوة بدون تردد نحو الطريق والحقيقة والإيمان . اسمع برودانسيوس Prudentius — وهو كاتب مسيحي من القرن الرابع يصبح : « أيها المسيح . . . إنك نورى ورجائى ، إنك قوتى وملاذئى . . . » .

ومهمة الكنيسة إزاء اضمحلال الإمبراطورية الرومانية كانت تتركز في ثلاث اتجاهات :

أولاً : ألحت في التمييز بين ما تمثل هي من قوة روحية ونظام روحى وبين السلطات المدنية التي أخذت تتشبث فيها بغية الخلاص . فلم تتأخر الكنيسة عن مساعدتها والحلول دون تفتتها ولكنها في نفس الوقت حرصت تماماً على ألا تسمح لأحد أن يوحد بينها وبين السلطة المدنية : « ليس ملكى في هذا العالم » : « وهى في الدنيا ولكن ليس من الدنيا » . ولذا كثيراً ما نرى نوعاً من التوتر بين سلطة الكنيسة والسلطات المدنية التي كانت تحاول أن تستخدم الكنيسة كوسيلة للوصول إلى مقاصدها .

ثانياً : راقبت الكنيسة الوثنية المحتضرة إذ كانت تخشى منها انتعاشاً متجدداً

ومحاربة للدين الجديد واللجوء إلى وسائل السحر وصنوف من تافيق العقائد (Syncretism) الأمر الذى كان يهدّد المسيحية بذوبانها فى عقائد مائعة لا تستند إلى أساس .

ثالثاً : عنيت الكنيسة بتهيئة أناس أكفاء يستطيعون القيام بالمهام الجديدة التى تتوافق والقيم الجديدة التى جاء بها السيد المسيح ، « فالإنسان الجديد » الذى يرسمه الإنجيل هو محور مجتمع جديد يتسم بقيم روحية حقيقية ويساعد الإنسان أن يحيا حياة القداسة المطلوبة منه .

ولتحقيق هذا التجديد الإنسانى لجأت الكنيسة إلى وسائل مختلفة . ففما يتصل بنظامها الخاص مثلاً سنت القوانين لتوطيد النزعة المتجهة نحو خدمة المجتمع بواسطة مؤسسات خيرية لإعانة الفقراء ومساعدة المعوزين وإيواء المتشردين ومعالجة المرضى كما أنها حاولت ، بجدارة ونجاح ، أن ترفع مستوى المرأة فى المجتمع بتقديس الرباط الزوجى وتحقيق المثل الأعلى للأسرة وهى نواة المجتمع السليم المحترم . كما أنها حاولت تدريجياً تخفيف وطأة نظام الرق ، مذكرة لأعلى السلطات أن جميع أفراد البشر متساوون أساسياً إذ هم أبناء رب واحد يريد للجميع الحرية والسعادة . كما أنها حاولت أن تحدّ من قسوة الألعاب الجماهيرية التى كثيراً ما كانت تنتهى بإراقة الدماء وقتك المصارعين .

ومحور هذا العمل الأخلاقى الثورى لإيجاد نوع جديد من الإنسانية كان يستند إلى همة البابوات القعساء وتوجيهاتهم الثاقبة ، والسلسلة من الأساقفة حازمى الرأى ، غزيرى الثقافة ، متخمين من صميم الشعب ومتجاوبين معه كل التجاوب . فاستطاعوا أن يرجّئوه إلى العمل المُجندى فى حقل الأمور الدنيوية بروح مستمدة من أعماق إيمانه الحى . كما وأنهم عرفوا كيف يدافعون عن الوطن خير دفاع عندما حاول الغزاة أن يستولوا عليه .

وأخيراً كان للأديرة أثر فعّال فى المحافظة على التراث العلمى والثقافى القديم ، وفى الإضافة إليه ما أنجزته دراساتهم المتواصلة .

هذه النبذة عن الإمبراطورية الرومانية بين المسيحية والبربريّة تدلنا على أهمية الموضوع الذى عرض له الدكتور إسحاق عبيد فى الكتاب الذى تقدمه إلى القراء . وهو بلا شك خير من يستطيع أن يتناوله بخبرة وجدارة إذ تخصص تخصصاً دقيقاً

فى هذا الميدان منذ دراساته الطويلة فى إنجلترا بجامعة نوتينجهام (Nottingham) فأجاد هناك اللاتينية مما جعله يستقى تاريخ القرون الوسطى من وثائقه الأصلية وحصل على درجة الدكتوراه فى هذه المادة . وقد نشر السنة الماضية كتاباً قيماً عنوانه « روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ - ١٢٠٤ » وهو يعالج صلات روما القديمة بروما الجديدة من زوايا مختلفة اتسمت بروح الفهم والموضوعية .

وفى البحث الذى تقدمه اليوم وجه الدكتور إسحاق عنايته نحو صلات الإمبراطورية الرومانية بالبربر وبالكنيـسة . فعالج أحوال الإمبراطورية الرومانية قبيل سقوط روما فى أيدي المتبربرين وأوضح ما كان يفت فى عضدها من عوامل التدهور الاقتصادى والاجتماعى والروحى ، ثم انتقل للحديث عن ظهور المسيحية والصراع المرير بين الوثنية المحتضرة والكنيسة الفتية التى كانت بحق الوريث الشرعى للمجد الرومانى الذى قدر له أن يداس تحت أقدام القوط .

ولعل الفصل الخاص بالهراطقة والأرثوذكس ، فى نظرى ، قد أتى بوثائق مصدرية تلقى الضوء على تاريخ الكنيسة الأول ومجامعها المسكونية السبعة وما تخلل ذلك من تيارات فكرية ولاهوتية وسياسية أيضاً .

أما الفصل الخاص بروما البابوية ففيه سيرة موضوعية لأعظم ثلاثة من آباء الكنيسة الذين أرسوا النظرية البطرسيّة على المدار الوسيط . ألا هم : ليوالعظيم ، وجيلاسـيوس وغرغوريوس العظيم . ويجب أيضاً أن أشير بصفة خاصة إلى البحث الشيق فى دراسة « مدينة الله » للقديس أغسطين . وأنهى المؤلف بحثه بالحديث عن المروفتنجيين والنهضة الكارولنجية . فاعتبر ما فعله كل من شارلمان والبابا ليوالثالث مجرد حلقة أخرى من حلقات التطاول المتبربر على الحقوق الشرعية للجالس على عرش البوسفور .

وجدير بالذكر أن أنوّه هنا أن الدكتور إسحاق قد لجأ فى بحثه إلى مخطوطتين عربيتين : الأولى عن قوانين المجمع المسكونى الأول والثانية عن يوليـانوس العاصى ، وقد حققهما فى ملاحق هذا الكتاب .

وما يَسْرَتْنِي أن ألفت النظر إليه هنا هو أن الدكتور إسحاق بالإضافة إلى علمه
الغزير الراسخ وروحه العلمية الموضوعية الحقيقية يتميز بهذا « التدقيق بموضوع البحث »
الذى يجعله يعالج هذه المواضيع بروح شغوفة بها تمكنه من معايشة أبطال هذا العصر
فيحسّ بأحاسيسهم ويشعر بخطورة المواقف الشائكة فيستطيع أن يحكم برزانة ولكن
بحق عن تسلسل الوقائع وتدخل الإرادات .

ولأنه لمن دواعى السرور والاعتباط أن نرى أستاذاً شاباً مثل الدكتور إسحاق عبيد
يعرض لمواضيع شائكة معقدة قد تنزلق أحياناً في تحليلها قدم مؤرخين قديمى العهد
بمادتهم فيوفق كل الترفيق في بحثه الموضوعى العلمى والإنسانى فى نفس الوقت .
ورجاؤنا أن يواصل الدكتور إسحاق هذه الأبحاث القيمة الممتعة التى تزود مكتبتنا
العربية بصفحات هى بحاجة إليها . والله الموفق .

الأب قنوائى

القاهرة فى أغسطس ١٩٧١

I've now alas ! Philosophy
Medicine and Jurisprudence too,
And to my cost Theology,
With ardent labour studied through.
And here I stand, with all my lore,
Poor Fool, no wiser than before.
Master, ay doctor styl'd indeed,
Already there ten years I lead,
Up, down, across, and to and Fro,
My pupils by the nose, and learn,
That we in truth can nothing know !

(Faust)

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول :

٢١

الإمبراطورية الرومانية في مهب الريح

كلوديان وستيليكو - أحوال الإمبراطورية الاقتصادية قبيل
الانهيار - الحالة الروحية للمجتمع الروماني - هزائم الفيالق
الرومانية المتتالية - الشعب الروماني - لماذا سقطت روما -
روما الربة - رومان وأغارقة - الرواقية - ديانة كرسطوس
- الكنيسة الأولى ودستور البيعة - الأسرار السبعة - القديس
بولس - اجناتايوس - جوستن - كبريان - ترتوليان -
أورجين - اريناوس - يوليكراب - الصدام الحتمي -
رعاع روما القديمة وغوغاء روما الجديدة - أبوللون يفلس -
وعيد من سفر الرؤيا - عبادة قستا - نظام الضرائب على
عهد دقلديانوس - نظام الباتروكينيوم .

الفصل الثاني :

٤٧ ما بين دقلديانوس وقسطنطين ، قسطنطين ونصرة المسيحية :

دقلديانوس إمبراطوراً - حكومة الأربعة - رجوع إلى سيرة
نيرون الطاغية - شهادة تاكيتوس عن حريق روما -
جالريوس وماكسيميان - الاتفاق على محاربة المسيحية -
مرسوم دقلديانوس ببدء الاضطهاد - اعتزال دقلديانوس
وماكسيميان الحكم - جالريوس إمبراطوراً - اشتداد

الاضطهاد — مرسوم جالير يوس التسامحي مع المسيحية (٣١١)
 قسطنطين وليسنيوس — واقعة قنطرة ملتي — قنسطنطين والمسيحية
 في رأى المعاصرين والمحدثين — مرسوم ميلان المزعوم (٣١٣)
 نص وتحليل — يوسبيوس — لاكتانتيوس زوزيموس —
 بركهارت .

الفصل الثالث :

بين ردة يوليانيوس العاصي وإعلان ثيوديسيوس المسيحية ديناً
 رسمياً للإمبراطورية — نهاية الوثنية :

٦١

شخصية جوليان (يوليانيوس) المرتد — شهادة اميانوس
 مارسلينيوس — عقيدة يولياني الوثنية وأصحياته — جوليان
 وهيكل سليمان — جوليان وأثاناسيوس — جورج الكبادوكي
 شهيداً — رواية « القياصرة » لجوليان — قصيدة « كاره
 اللحية » — جوليان وسابور الفارسي — مصرع جوليان —
 خطبته الأخيرة .

الإمبراطور جراتيان — بعثة سيمانخوس إلى بيزنطة — ثيوديسيوس
 العظيم : « جوبيتر أم المسيح » في السيناتو — رأى لإدوارد
 جيبون — الأسقف مارسيللوس — نهاية سيرابس السكندري .

الفصل الرابع :

٨١

هرطقة وأرثوذكس :

مجمع الرسل — رسالة الرسل — قانون الإيمان القبطي والحبشي —
 قانون ارينا يوس — القانون الأفريقي — قضايا اللاهوت الكبرى —
 المجمع المسكوني الأول في نيقيا (٣٢٥) والأريوسية —
 المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية (٣٨١) والروح القدس —
 قانون الإيمان النيقو — قنسطنطيني — مشكلة Filioque —

قانون منسوب إلى مار آثاناسيوس السكندري - صراع لا هوني
أم سياسي - يوحنا ذهبي الفم ضحية الصراع - المجمع المسكوني
الثالث في أفيسوس (٤٣١) والنسطورية - مجمع أفيسوس
الثاني (٤٤٩) البيوطاضي المعروف باسم « مجمع اللصوص » -
المونوفيزيتية والبيوطاخية .

المجمع المسكوني الرابع : في خلقيدونية (٤٥١) والمونوفيزية -
ليو الأول العظيم بابا روما وجهوده وقت مجمع خلقيدونية -
اليوليانيون (افتار تودوكيتاي ، فانتازياستيس) - انفصال
الكنيسة القبطية عن الأرثوذكس - خلقيدونية ولا خلقيدونية -
المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية والفصول الثلاثة
(٥٥٣) - جستينيان أم ثيودورة - الأكوميثوي - ساويروس
بطريرك أنطاكية المونوفيزي - البابا فيجيليوس (يوديكتوم) -
المونوثيليتية (مذهب الإرادة الواحدة) - اكثيسيز هرقل -
تيبوس قنسطانز - الإمبراطور والبابا - .

المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية والمونوليتية (٦٨١) .
الاباطرة السوريون محطمو الأيتونات - الأيقونية والأيقونية -
البابوان جريجوري الثاني وجريجوري الثالث - الإمبراطورة
إيريني وابنها القاصر قسطنطين السادس - عودة الأيقونية -
المجمع المسكوني السابع في نيفيا والأيقونية (٧٨٧) . الدوناتية -
البيلاجية - جهود القديس أغسطينوس ضد هاتين الفرقتين -
بين حرية الإرادة البيلاجية والقدرية الأغسطينية .

الفصل الخامس :

الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام المتبربرين :

تاكيتوس وجرمانيا - علاقة الإمبراطورية بالشعوب الجرمانية
منذ القدم .

صفحة

- (١) الهون يجتاحون الإمبراطورية - اتيللا - المؤرخ المعاصر ١١٠
جوردان - الهون في حقول قطالونيا (٤٥١) .
- (٢) القوط الغربيون : آلارك يغزو روما (٤١٠) - ١١٥
موت آلارك - اتولف - سجريك - الأميرة الرومانية
جاللا بلا سيدا بين البلاطين المتبربر والرومانى .
- (٣) أودواكر في إيطاليا - خلع روميلوس أغسطينولوس ١١٥
(٤٧٦) - موقف الإمبراطور زينون في القسطنطينية
من هذه الأحداث .
- (٤) البير جنديون : وصف جوردان لأخلاقهم - فويديراتى - ١١٥
الهون والبرجنديون - الأميرة كلوتالد الكاثوليكية تتزوج
كلوفش ملك الفرنجة .
- (٥) القوط الشرقيون : ثيودوريك ملكاً - المؤرخ كاسيودوروس - ١١٥
ثيودوريك والإمبراطور الشرقي - جستن الإمبراطور
والأريوسية . البابا على رأس سفارة إلى البلاط البيزنطى -
آثالارك - آمالا سونزا - جستينيان العظيم - القائد
بلزار يوس - فيتيجيز وتوتيللا ونهاية مملكة القوط
الشرقيين في إيطاليا .
- (٦) الفرنجة : الساليون - الربواريان - جريجورى أسقف ١٢٦
تور - كلوفس يعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكي -
واقعة كامبوس فولجادنسيس - علاقات كلوفس
بالإمبراطور أناستاسيوس .
- (٧) القندال : الأزديج والسيلنج - الملك جيزريك يغزو ١٢٩
ولاية شمال أفريقيا - قرصنة القندال - بروكوبيوس
وحرب القندال - الملك هونريك - ترازاموند - هلدريك
جلمير آخر ملوك القندال - جستينيان العظيم يحطم مملكة

الفنڊال - بلزارىوس فى شمال أفريقيا - نبوءة قرطاجة
تفك رموزها - مارتىانوس كابلا - « زواج الفيلولوجيا
من الإله مركورى » -

التديس أغسطينوس: اعترافاته عن شبابه الأول -
أغسطينوس والمناوية - أغسطينوس وأفلاطون وأفلوطين -
« قم واقرأ » - عماد أغسطينوس فى ميلان على يد
القديس امبروز - لماذا كتب أغسطينوس « مدينة الله » -
المجتمع البشرى وأشكاله الأربعة - الكلبيون - الرواقيون -
بوزيدونيوس ونظريته فى الكون - بولس الرسول
والرواقية وأثره على أغسطينوس - فكرة « الصلاح »
عند أغسطينوس - فكرة « الأوردو » فى مدينة الله -
مدينة الله ومدينة الأرض - أغسطينوس والنظم الاجتماعية
والسياسية الأرضية - أغسطينوس والكنيسة العالمية -
الصلاح المطلق والصلاح النسبى - أغسطينوس والنظرية
البابوية - فكرة السلام الأبدى عند أغسطينوس .

(٨) القوط الغربيون فى أسبانيا : الملك يوريك - آلارك ١٥٣

الثانى - الكونت ثيودس ملكاً - آجيلا ينقل العاصمة
إلى مريدا - آثانا جلد والبيزنطيون - ليوفا وليو فيجلد -
لياندر أسقف طليطلة - تمرد هرمينجلد ضد والده
الملك ريكارد واعتناق الأمة القوطية للمذهب الكاثوليكي -
مجمع طليطلة (٥٨٩) و « الفيليوكوى » Filioque -
ريكزفنت ومقنناته الرومانية - لزريق وآكيلا -
طارق بن زياد وأسبانيا - أزيدور الأشبيلي .

(٩) اللومبارد : أصل اللومبارد - بولس الشماس - ١٦٣

البوين يغزو شمال إيطاليا - قصة جمجمة الملك كونموند

وابنته روزامرند - بيزنطة واللومبارد « الصراع الدامي » -
 تحول اللومبارد من الأريوسية إلى الكاثوليكية - الصراع
 بين اللومبارد والبابوية - موقف شارل مارتل ملك الفرنجة
 من هذا الصراع - البابا ستيفن الثالث يزور الملك بين
 القصير ملك الفرنجة - بين يغزو لومبارديا - البابوية
 تضع المسمار الأخير في نعش المملكة اللومباردية .

الفصل السادس :

١٧١

روما البابوية :

رسالة القديس بولس إلى أهل رومية - بولس وبطرس
 في روما - النظرية البطرسية : من واقع الإصحاحات ، من
 خلال آراء الآباء اللاتين الباكرين (جيروم - كبريان -
 اجناطيوس - ترتوليان - ارينايدوس) - القانون السادس
 لمجمع نيقيا المسكوني (٣٢٥) ومغزاه - البابا ليبريوس والأريوسية -
 أسقفية ميلان تتحول عن الأريوسية إلى الكاثوليكية -
 القديس أمبروز - الدياكنة السبعة وكبيرهم - البابا ليو الأول
 العظيم مؤسس العصر الذهبي لبابوية العصور الوسطى .

ليو وكيرلس والنسطورية - التومس (Tomus) - ليو
 وآتيلا وجنزريلك. البابا جيلا زيوس الأول : نظريته في البابوية
 من خلال رسالته إلى الإمبراطور أناستاسيوس .

البابا جريجورى الأول العظيم المؤسس الحقيقى للعصور
 الوسطى - ثقافته - جريجورى يطلق متاع روما ويدخل
 الرهبانية - جريجورى « قاصداً رسولياً » في القسطنطينية -
 جريجورى البابا الزاهد - اللاتيران يتحول إلى هياكل انقطاع
 للصلاة - حركة تطهير في القصر البابوى - مؤلفات جريجورى

تحويل إنجلترا عن الوثنية إلى المسيحية — القديس أغسطينوس
(آخر) رئيساً لأساقفة كنتربري — لورنس خليفة أغسطينوس
بيده الوقور مؤرخ الأنجلو — سكسون .

الفصل السابع :

المير وفنجيون والكارولنجيون :

مملكة الفرنجة بعد وفاة كلوفس (٥١١) — ثيودريك ،
كلودمير ، شلدبرت وكلوتار — قصة كلوتار وابنه كرامنوس
(داود وأبشلوم) — الرجنوم فرانكورم — أرموريكان :
بريتاني — الصراع بين شلبريك ملك نوستريا وسيجبرت ملك
استرازا — شخصية الأميرة الأسبانية برونهilde ودورها
وشقيقتها جولسونزا في مأساة البيت المير وفنجي — نهاية برونهilde —
كلوتير الثاني ملكا على استرازا وبرجنديا ونوستريا — وزراء
البلاط الفرنجي : بين من هرزال وارنولف أسقف متر —
أصل البيت الكارولنجي — جرموالد وزير بلاط استرازا —
الملوك العاطلون بالوراثة « الدمى » — واقعة تسرى — شارل
مارتل وعرب إسبانيا — شارل مارتل والكنيسة الفرنجية :
القديس كولومبا الأيرلندي — القديس بونيفاس — الصراع بين
روما وإيرلندا على أرض الفرنجة — بين القصير والبابا زكريا —
بونيفاس يتوج بين ملكاً على الفرنجة — بين والبابوية واللومبارد —
البابا ستيفن الثالث في بلاط بين القصير — بين القصير
وحملاته اللومباردية — كرمان وكارل — دزيريوس ملك
اللومبارد ونهاية مملكته على يد شرلمان — كارل (شرلمان)
ملكاً على اللومبارد — ظهور وثيقة « هبة قنسطنطين » المزيفة — حروب
شرلمان : ضد السكسون ، عرب إسبانيا — قبائل الباسك ،
أنشودة رولان — نشر المسيحية الكاثوليكية بمجد السيف في

صفحة

سكسونيا - الحرب ضد بشاريا - ضد الآفار والسلاف .
 تضاؤل نفوذ إمبراطور بيزنطة في الغرب - البابا ليو الثالث
 وشرلمان - ليلة عيد ميلاد ٨٠٠ م - تتويج شرلمان إمبراطوراً
 رومانياً في كنيسة القديس بطرس - النظرية والواقع : زاوية
 اينهارد ، تبرير الكوين ، وجهة نظر البابوية ، الحزب
 الجمهوري في روما ، الحزب الشرلاني ورأيه في حادث التتويج .
 بلاط اكس لا شابل وبلاط بيزنطة - إيريني وشرلمان
 « مصاهرة أم مبارزة » - مفهوم شرلمان للإمبراطورية -
 قصر شرلمان وحكومته - النهضة الكارولنجية : الكوين ،
 ثيودولفوس ، بولس الشماس ، اينهارد . وفاة شرلمان .

الملاحق

- (١) قوانين المجمع المسكونى الأول (مخطوطة تحقيق المؤلف)
- (٢) يوليانوس العاصى (مخطوطة تحقيق المؤلف)
- Symbolum Nicaeno — Constantinopolitanum. (٣)
- Symbolum Quicumque quod vocatur Athanasianum. (٤)
- Edictum Constantini ad Silvestrum papam. (٥)
- Epistola B. Caroli Magni ad Michaellem Imperatorem. (٦)
- (De pace inter utrumquimperium firmanda. Ann. 811).
- Extract from Edward Gibbon "on Christianity". (٧)
- Extract from Arnold Toynbee "on Barbarism and Religion". (٨)
- Bibliography. (٩)
- (١٠) جدول زمنى : البابوات — الأباطرة — البيزنطيون — البيت الكارولنجى —
القوط الشرقيون — الفندال — القوط الغربيون — اللومبارد . .

الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية في مهبط الريح

Proxime Dis Consul, qui tantae prospicis Urbi,

Quod cuncti gens una sumus.

Nec terminus unquam.

Romanae ditionis erit.^(١)

(Claudian)

هذه الأبيات التي تنطق بالمديح في روما وتحدث عن اللسان اللاتيني الأوحده الواحد ، وساطان خير المدائن على وجه الأرض الذي يمتد حتى يوم الدينونة ، لم تكتب كما قد يتصور المرء على عهد أغسطس (٣٠ ق. م - ١٤ م) أو في حكم تراجان (٩٨ - ١١٧ م) اللذين بسطا « السلام الروماني » Pax Romana في العالم المتحضر آنذاك ويوم أن وصلت روما قمة مجدها وسعدها ؛ وإنما كتب الشاعر كلوديان هذه القصيدة بعد ذلك بثلاثة قرون عندما كانت الإمبراطورية الرومانية ترنح إعياء ووهنا ، حينما كان زعيم قوطي متبربر هو آلاريك Alaric يزحف بجمعه القوطية ليذك أبواب روما ويذل أهلها . أما البيت الأول في هذه القصيدة فهو موجه من « آخر شعراء العالم القديم » إلى زعيم متبربر من قبائل الفندال هو ستيليكو Stilico ، الذي استخدمته روما قائداً لجيوشها ، فكان أن غدر بروما والرومان وباعهم جميعاً لبني جلدته من البرابرة الجرمان !

وإن نحن ألقينا نظرة على هذه الإمبراطورية المتهالكة وجدنا أنها لم تكن تستند في اقتصادياتها إلى أسس سليمة ألينة : فالفتوحات التي أحرزتها روما وقت « الحكم الجمهوري » وإبان عصر « المواطن الأول » Princeps ، لم يكن يحركها هدف واضح المعالم : لكسب الأسواق الخارجية من أجل إنعاش التجارة مثلاً ،

Quoted from Fletcher, L., The making of Western Europe, Ch. I.

(١)

أو بقصد توطين غوغاء العاصمة ودهماء الريف الإيطالي على سبيل المثال ، وإنما كانت تقضى السياسة يومها بتسليم هذه الولايات المفتوحة لأصحاب النفوذ من الرومان ليبنى منها القناصل السابقون والجنرالات والفرسان الضالعون في أفانين الربا وفحشه ثروات طائلة تعود آخر الأمر إلى جيوب هذا النفر القلائل من طبقة السيناتورية والفرسان .

ومن الناحية النظرية كانت هذه الولايات ملكاً للدولة ، ولكن واقع الأمر يبين أن ما عاد من دخولها على الشعب الروماني كان تافهاً إن لم يكن معدوماً . كما وأن العاصمة الرومانية كانت منذ وقت مبكر تعتمد في الحصول على رغيف الخبز اليومي لا على الكمپانا Campagna ولا حتى على إيطاليا ، وإنما كان اعتمادها الأساسي لسد الأفواه بلقمة العيش على الولايات النائية في شمال أفريقيا ومصر .

وتزداد دهشتنا إن علمنا أن المعاملات بين الحكومة الرومانية ودافعي الضرائب وملاك الأرض ، في القرن الثالث ، كانت تتم بالنظام العيني لا النقدي ، فالعملة كانت قد اختفت من الأسواق وحل محلها النظام الجرمانى القائم على « المبادلة » أو المقايضة والمعروف باسم Naturwirtschaftapt . ولعل من العوامل التي أدت إلى هذه الحال من سوء الاقتصادى تلك الإجراءات التعسفية التي اتخذها دقلديانوس ومن بينها تخفيض سعر العملة ، الأمر الذي نقل المعاملات إلى النظام العيني ، فصار دافعو الضرائب يوفون ما عليهم للخزانة من محصول القمح والمعروف باسم Annona ، بل كان من النتائج أيضاً أن رواتب الجند باتت تصرف لهم قمحاً بدلاً من العملة . وإذا انتقلنا لنفحص الحالة الروحية للرومان لوجدنا حياتهم تكاد تكون باهتة كئيبة ، فأدابهم حكومية المظهر تخلو من الإلهام الروحي تدور كلها حول حفنة السلف الأماجد في الماضى السحيق وهي تعيد نفسها في أقاصيص فولكلورية مترددة . ولا ننكر - بطبيعة الحال - أن الرومان كانوا شعباً محبباً للتاريخ إلى حد العبادة ، فما إن ظهر واحد منا بينهم راح يروى ملحمة « روما الأولى » في عبقرية زائدة ، ألا وهو فرجيل Virgil ، حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة . ولكن فرجيل مذكرفع إلى فوق قد بقى هنالك في معية الآلهة منذ ذلك الحين . والرومان لا يملكون سوى فرجيل واحد ، ولكن المطلع على روائع الميثولوجيا الإغريقية أو النوردية قد يتضح له أن « إينياد »

Aeneid فرجيل لا تعدو أن تكون ملحمة عادية ، تملك بلدان مثل النرويج أو اليونان مئات من أمثالها .

ولئن كان الأدب الروماني قد شهد فترة انتعاش في أواخر العصر الجمهوري والسني الأولى من حكم « المواطن الأول » ، إلا أن هذا الوميض الفجائي كان قصيراً موقوتاً فسرعان ، ما خبا وتوارى . ولسان اللاتين أيضاً قد وجد في لوكريتيوس · Lucretius (٩٩ - ٥٥ ق.م) الشاعر المرموق شاكياً من الفقر والجذب (egestae) الذي باتت تعانيه لغة قومه .

ولقد ولت أيام التفاخر بالفيالق الرومانية والسلاح الذي لا يقهر ، وصدمت الفروسية الرومانية بنحيبات للآمال مريرة : ففي العام التاسع للميلاد انقضت قبائل الزعيم الجرمانى أرمينيوس Arminius على فيالق القائد الروماني فاروس Varus على مقربة من أعلى نهر لبي Lippe ، وقتل فاروس وأبيد رجاله في ساحة تيتوبرجر فالد Teutoburger wald ومهما كانت الحال فإنه مذ يوم كانى Cannae (٢١٦ ق.م) عند ما أباد هانيبال القرطاجي خمسين ألفاً من الجند الرومان إلى يوم كارهاى Carrhae (٣٥ ق.م) حين أهين شرف روما على رمال بارثيا بعد الهزيمة الشائنة التي لحقت بليكنيوس كراسوس ، ومن يوم كارهاى إلى فاجعة أدربانوبل Hadrianople (٣٧٨ م) حين هزم القوط الجيوش الرومانية وقتلوا الإمبراطور الروماني فالنس ذاته في أرض المعركة ، بات شبح أحد البرابرة الأجلاف من شمال أفريقيا Dirus Afer من شاكلة هانيبال ، أوطيف أحد البرابرة من الغال ، أو وحشية أحد شيوخ القوط الجرمان ، بات كل هؤلاء يقلقون مضاجع الرومان ويدقون بوابات « المدينة الخالدة » .

على أن أشد ما يؤخذ على روما بعد هذا كله إغفالها لقوتها البحرية : لقد كان في مقدورها أن تقتنى قوة بحرية أشد فعالية وأعظم عدداً ؛ فالبحر المتوسط قد دان لها قرنين كاملين من الزمان بعد أن طهره ضباطها من القراصنة الأغارقة ، ولكن السلطات الرومانية لم تؤمن مجالات نشاطها البحري الأخرى في البحر الأحمر والبحر الأسود وعلى سواحل بلاد الغال الشمالية ، وهذا - في رأى بعض الدارسين - أكبر إثم اقترفته روما في حق نفسها .

وإن نحن ألقينا نظرة على ذلك الشعب الذي كان يفاخر برومانيته لألفينا شعب

روما (Plebs) — منذ القرن الثاني قبل الميلاد — أشد ما يكون تقلباً في طبعه ، وعلى درجة مخيفة من الجبن والانحلال الخلقي . والحق أنهم قد ظلوا باقين على هذا الانحلال مذ ذلك الحين ردحا طويلا من الزمن على مدار العصور الوسطى ، ففي سيرة عائلات روما النبيلة والكثيرين من بابواتها أكثر من وصمة عار . حقيقة أن طبقة الأشراف كان لها من التقاليد العريقة ما يشرف سجلها ، ولكن الهزات التي تعرضت لها هذه الطبقة العريقة قبيل وبعد ميلاد المسيح بقليل من الزمن قد أنقصت عدد هذه الطبقة بشكل مخيف وأصبح في الإمكان حصر عدد الباقين منهم على أصابع اليد . وفي القرن الرابع للميلاد صار شرف السيناتورية هبة يمن بها الإمبراطور المهيب للمنافقين من خدمه وحشمه .

وبرغم كل هذه النقائص والعيوب فما من شك في أن سلطان روما وحضارتها يمثلان صفحة من أنصع صفحات التاريخ مجداً وفخاراً . وهنا تكمن الحيرة : إذ كيف لنا أن نفرس سقوط روما العظيمة على هذا المنوال ؟ هل نأخذ بقول مكياقللي بأن البشر إن هم إلا « جمع فاسد » (كلاب ضالة) وبأن الانتصار دوما يكون من نصيب « أشد الناس شراً » ، أم هل نجد الإجابة عن سؤالنا في « تعازي » الفلاسفة المسيحيين من رجال كنيسة العصور الوسطى الذين رأوا في سقوط روما إرادة ربانية شاء بها الله أن يظهر المدينة الخالدة من أدران الأوثان لتغدو المدينة بيضة الكنيسة العالمية ؟

ولقد يعثر الباحث في الأحداث التي تلت سقوط روما على ما يبرر هذا القول الأخير : فبعد أن نقل قسطنطين العظيم عاصمة الإمبراطورية إلى مدينة روما الجديدة على ضفاف البسفور (القسطنطينية) في ١١ مايو لعام ٣٣٠ ، وبعد أن سقطت روما القديمة في أيدي الزعيم القوطي آلاريك في عام ٤١٠ بدا للناس أن كل ما هو روماني ومتحضر قد وطأته الأقدام ، وتلفتوا من حولهم فلم يجدوا سوى كنيسة روما فأشاروا إليها على أنها « شبح الإمبراطورية الرومانية المتوفاة وقد تربع البابا متوجاً على قبر هذا المجد الضائع »^(٢) . ولا جدال في أن كنيسة روما قد أسهمت بجهد خارق في إعادة تنظيم الإمبراطورية الرومانية التي قد تمزقت أوصالها ، كما نجحت — وهنا يكمن الإعجاز —

“The ghost of the deceased Roman Empire sitting crowned upon the grave thereof.” (Hobbes).

فى أن تبقى على ظل الإمبراطورية الباهت حياً بدلاً من أن يطمس فى الأكفان (٣) .
ليست هنالك حضارة ظهرت على وجه البسيطة دون أن يكون لها الجانب المشرق
والجانب الآخر القبيح . وبرغم كل العيوب التى يأخذها المؤرخون المحدثون على الرومان ،
والتي اعتادت أقلامنا - نحن معشر المؤرخين - على كيلها لروما وشيوخها وغوغائها ،
إلا أنه - إنصافاً للحق - لا بد من الاعتراف بأن الصفات الطيبة فى الرومان وليست
تلك الرذائل القميئة فى طبائعهم هى التى قد تركت بصماتها على صفحات التاريخ .
ويأتى فى المقام الأول من بين فضائل الرومان ذاك الإحساس بقيمة الذات عن وعى
متأصل فيهم ، مشفوعاً بالتسامح الرائع قبالة نقائص شعوب أخرى عديدة . لقد كان
الرومان يؤمن بأن عليه رسالة فى حفظ السلام فى ربوع الإمبراطورية الشاسعة . ولا تستطيع
أوروبا أن تنكر أنها مدينة فى بقائها فى الدرجة الأولى إلى هذا المفهوم الرومانى : من
يدرى المصير الذى كان سيحل بأوروبا لو أن روما لم تقاتل حتى الموت عدوها العملاق
العنيد هانيبال القرطاجى ، وبرابرة الغال قريبها وبعيدها ، والفرس ثم الهون ؟ ومن
يمكنه أن ينبيء بما كان سيؤول إليه الحال لو أن روما لم تحتضن تحت جناحها ذاك الحطام
الذى استنقذته بالدم المهرق من مخالب المتبربرين ؟

كانت تلك المفاهيم وذاك الاعتزاز بما كانت تؤديه روما هى أمل الرومان جميعاً ،
وهى فى نفس الوقت دين صفوة السادة الرومانيين . ولعل هذا يتضح جلياً عندما
ندرك أنه لا الآلهة الأعزاء فى لاتينوم Latium ولا شىء فى السموات والأرض كان يساوى
شروى نقير إلى جانب روما الربة Roma Dea . ولم تكن عبادة البطل الرومانى الحى
فى ظل حكم « المواطن الأول » سوى تجسيد لفكرة « العبقرية » التى كانت ترقى
بصاحبها إلى مرتبة الربوبية والتأليه . ولم يكن القانون الرومانى إلا سنداً صلباً تقوم عليه
سائر النظم فى الإمبراطورية العظمى . ومهما قيل فى أحوال ولايات الإمبراطورية الخاضعة
لروما ، فلا شك فى أنها كانت أسعد حال من العاصمة ذاتها . حقيقة أن بعض الولايات
مثل غالة وإفريقية قد امتصت حتى عظامها من فرط جشع طبقة الفرسان والضيباط
المفلسين وعصابات المرابين ، ولكن ما إن أرسى الحكم الرومانى قواعده الإدارية حتى

ساد القانون واختفت مدعاة الشكاية والضجر . ولقد توصلت الإمبراطورية إلى حدودها الجغرافية الكبرى عشية ظهور المسيحية . ومنذ ذلك التاريخ بدت الأحوال في الولايات مدعاة للغبطة . أو ألم يكن حكم الرومان في الولايات الشرقية عدلاً إن نحن قارناه بكابوس الملوك الشرقيين : حيث كان الحاكم فرعوناً والرعية مجرد عبيد لهذا الإله . لقد سمحت روما لغالبية ولاياتها بقدر عادل من الاستقلال الذاتي ، وأعفى بعض هذه الولايات تماماً من الجزية والتجنيد ، وكان لكل ولاية مجلس تمثيلي Concilium شاركت فيه مدن الولاية ، واضطلع هذا المجلس بشئون الولاية وكان له حق معارضة السلطات الرومانية إن كان هنالك مبرر معقول . ولم يكن إمبراطور الرومان يقدم على إملاء قرارات على إحدى الولايات إلا بعد أن تكتشف الحكومة الرومانية أن السلطات المحلية قد أغرقت الولاية بالديون . ولقد ترك الرومان دويلات المدن الإغريقية والمتأغركة تدبر أمورها وفق الأسلوب الذي اعتادته منذ القدم ، في سلام لم تعرفه من قبل . والشرط الأوحيد الذي جاهد الرومان في الحفاظ عليه هو أن يكف هؤلاء « المشارقة » عن اغتيال الواحد منهم الآخر . أما في الغرب فلم تكن ثمة حضارات قديمة هناك اللهم إلا في تلك المستعمرات الإغريقية المبعثرة على كعب الحذاء الإيطالي . ولذا فقد أدخل الرومان في تلك الأدغال مبادئ الحياة المتقدمة ، وعلى التدريج نمت من قلب التحصينات العسكرية الرومانية التي كانت تغطي غرب أوربا النواة الأولى لأجمل المدائن في إيطاليا وإسبانيا وغالة وبريطانيا وجنوبي ألمانيا .

وإن كنا لا نملك أن ندعي بأن هذه الإمبراطورية قد قدمت فضلاً فكرياً فذاً . يتسم بالخلق ، إلا أنه من اليسير أن نؤكد أنها كانت تربة طيبة لأن تنمو عليها روائع الفكر المستورد . ولا بد أن نذكر أن أكثر من نصف الإمبراطورية الرومانية كان أرضاً إغريقية ورثها أبناء روما عن بني هلاس ، وأن النصف الإغريقي المتبقى كان مسرحاً لنشاط التجار الأغارقة أيضاً . بل وإن مدناً مثل مرسيليا كان لها أكروبول Acropolis ، وجزيرة صقلية كانت عامرة مزدحمة بالإغريق الذين صبغوها حضارياً بصبغة يونانية بحتة . كذلك كانت الحال في الجنوب الإيطالي ، فحتى مدينة نابلي ، وهي التي تحوى قبر فرجيل شاعر الرومان الخالد ، ظلت مدينة إغريقية الصبغة . وسرعان ما غزت

المدرسة الرواقية^(٤) الآتينية قلوب السادة الرومان من أمثال كلوديوس وهادريان وماركوس أوريليوس الذى كتب « تأملاته » المرموقة باليونانية . ولقد بالغ الرومان فى تدليل بيت الحضارة هيللاس ، ونجح الإغريقى « الحبث » فى سحر سيده الرومانى « ذاك الفاتح الغي » . على أن هذا الإغريقى « المدلل » لم يكن بحال لينتمى إلى يونان عصر بركليز Pericles (٥٠٠ - ٤٢٩ ق.م) ، وإنما صار « إغريقولياً » لا خلق له ولا مذهب ولذا فليس بمستغرب أن الرومان برغم إعجابهم الشديد بالحضارة الإغريقية باتوا فى نفس الوقت يستشعرون شيئاً من الازدراء للإغريقى « المحنث » ، ولم يكن فرجيل إلا مردداً لشعور عام لدى بنى جلدته عندما قال :

Timeo Danaos et dona ferentes

(٤) الرواقية : تأسست هذه المدرسة الفلسفية فى أثينا عام ٣١٥ ق.م على يد زينون من مواطنى كيتيوم فى قبرص . ولقد اتخذت اسمها من حقيقة أن مؤسسها كان يستخدم « الرواق » (Stoa ومن ثم Stoicism) مدرسة لتعليم مبادئ فلسفته . ولقد نظر زينون - فى مخالفة صارخة لمعاصره ابيكوريوس (مؤسس الأبيقورية) إلى العالم على أنه كل متحرك تدفعه ملكات العقل . ومقومات العالم مطلقان : المبدأ الإيجابى المتمثل فى الله ثم المادة التى يتناولها الله بالتشكيل ، وهذان الأساسان مظهران لا ينفصلان ويعبران عن الوجود . والكون عند الرواقية سرمدى ، دورات لا تنتهى ، وكل حلقة من هذه الدورات المتعاقبة تستوعب فى مداها بالضرورة فى عمق النار الإلهية . وبعدها تبدأ حلقة أخرى تماثل تلك التى قد سبقتها ، فهى بحث لها من جديد . وقد عبر عن هذا المفهوم الشاعر شيللى Shelley فى خاتمة مؤلفه بعنوان هيللاس حين قال :

Worlds on worlds are rolling ever

From creation to decay,

Like the bubbles on a river

Sparkling, bursting, borne away.

وفى الأخلاق بشر زينون بأن أفضل غايات الإنسان أن يحيا فى انسجام مع الطبيعة : أى يحيا حياة فاضلة ، لأن الفضيلة هى قانون الطبيعة . . . هى مشيئة الله ، كما وأن السلوك الفاضل يولد السعادة . ولعل أهم دعوة نادت بها الرواقية قولها بالأخوة بين البشر أجمعين ، دون تمايز بين إغريقى ومتبربر ، بين حر وعبد ، فهى بهذا تمهد للعدالة والمحبة المسكونية . ولقد صادفت الرواقية هوى فى أفئدة السادة الرومان ، وكانت لها أصداء على القانون الرومانى . وظهر أثرها فى كتابات الفيلسوف سنيكا Seneca وفى سخریات بيرسيوس Persius وكان من أخلص معتنقى الرواقية الإمبراطور ماركوس أوريليوس صاحب « التأملات » الدائعة الصيت .

ثم إن هؤلاء الأغارقة من آثينيين وبرغاميين ومقدونيين وسلوقيين وبطالمة قد أنهكوا حيوية روما وامتصوا دماء الرجولة اللاتينية . وفي مقابل هذا كله لم تقدم بلاد اليونان حتى مطلع المسيحية شيئاً يعوض الرومان بعضاً مما قد فقدوه ، اللهم إلا نفرّاً من الآلهة والإلهات باتوا يزاحمون العائلة المقدسة في الكابيتول . وهكذا عرف الرومان إيزيس المصرية الأصل والأم العظمى Magna Mater الفريجية ومثراس Mithras الفارسية .

ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من الآلهة « الوافدة » على روما تسلت خلصة عبادة جديدة عرفت وقتئذ باسم « ديانة كرسطوس »^(٥) ، أي المسيح . وكان أتباع المسيح في بداية الأمر قلة من بؤساء المجتمع ، من العبيد والنسوة والبسطاء الذين كانوا على شاكلة صيادى الجليل . والذي دفع هذه الفئات المضيفة إلى اعتناق هذه الرسالة الجديدة أن مبشرها كان محتضن في رحاب مذبحة الفقير قبل الغنى ، العبد بجوار الحر ، المرأة مثلما كان يستقبل الرجل . ولقد وجد العبيد — الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار في الإمبراطورية الرومانية — أن المسيحية لا تضع حساباً للرق في ملكوت السموات ، ولم تردد في إعلانها أن عبداً صالحاً يحق له الجلوس على عرش الأسقفية أباً روحياً للرعية جميعاً أميرها وفقيرها . والمعروف أن نظام الرق كان لا يرى في العبد آدمياً له أية حقوق ، وحتى أرسطو ذاته قد دافع عن هذا النظام الذي كان الدعامة الأساسية للاقتصاد في العالم القديم . ولهذا سارع العبيد في اعتناق ديانة المسيح التي بشرتهم بالخلاص من دولة الأغلال . كذلك فعلت النسوة ، لأنه حتى ظهور هذا الدين الجديد الذي كرمهن في سيرة مريم العذراء ، كن في المجتمع الروماني مجرد مخلوقات دونيات لسن من شاكلة الرجال ولاهن على فضائلهم .

كانت رسالة ابن الجليل خروجاً على التقاليد القديمة وتحدياً صارخاً للنظم الرومانية نفسها . وبعد ذلك فهي رسالة تأمر وتنهى وتجاهر قائلة : « لا تعبد غير الرب إلهك » . ألم يكن هذا يعنى تحريضاً على إسقاط الربة روما . ثم إن المسيحية لم تكتف بهذا بل استدارت على العائلة المقدسة في الكابيتول وتناولت على جوبيتر ومارس ويونو ومنيرفا ونعتهم بأنهم « مجرد شرذمة من الأبالسة ، وبدلاً من تقديم النذور والأضحيات لهم راحت تستمطرهم الأناثا بأن « عليكم اللعنة » Anathema estote .

(٥) كرسطوس في الأصل تعنى : الطيب ، الصالح ، سعيد الطالع .

امتعض الرومان من هذا الدين الجديد الذي لم يكن ليحترم روما الربة وابنها البار « المواطن الأول ». وطالبت السلطات من الرعايا أن يبرهنوا على ولائهم للإمبراطور بأن ينثروا حفنة من البخور على قاعدة تمثاله . ولكن المسيحيين رفضوا أداء مراسيم الولاء والطاعة . وجن جنون حكام الولايات الرومانية وحدثتهم أنفسهم بأن هذا المسيحي المتمرد لا بد وأنه يضمّر سوء لروما وسيدها . ولم يفهم الرومان في هذا الموقف إلا أنه نوع من العصيان والخيانة ، في حين أن هذا التمرد على التمثال ورفض أداء الطقوس لهذا الصنم إنما كان المحك الأوحى لقوامة إيمان هذا المسيحي أو ذاك . إن غث البخور على قدمي التمثال يعنى الاعتراف بإله آخر ، والوجه القبيح في الأمر أنه ليس بإله ، والأدهى من هذا أنه خلف فاسد لسلف كالح .

وأغلب الظن أن كثرة من المسيحيين - برغم هذا - عندما طلب إياها البرهنة حلى ولائها للتمثال قد استجابت بعد بعض تردد ، وألقت ببخورها حرصاً على أعناقها . ولكن رجال الدين (الإكليروس) لم يعرفوا في هذا الشأن حلاً وسطاً ، ورفضت الكنيسة قبول هؤلاء المرتدين من جديد إلى قطيع المعمودية . كان موقف الكنيسة العنيد من السلطات الرومانية مدعاة لغضب غوغاء المدن وعواصم الأقاليم . ومع أن الجماعة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية كانت في إخلاصها وولائها للدولة فوق الشبهات إلا أن التعاليم الأخروية في المسيحية في عصرها الأول جعلت المؤمنين يستخفون بهذا العالم ويرفون فيه مجرد « طيف يظهر ولن يلبث أن يضمحل » . وازدادت حدة الموقف وبدأت موجة الاضطهادات ضد المسيحيين .

ولقد وجد هذا الاضطهاد صدها العميق في الكتابات التي أنتجها المفكرون المسيحيون منذ القرن الثاني ، وراح الكثيرون يشيرون إلى روما على أنها « بابل » التي لعنتها الكتب المقدسة ، بل إن بعض ما ورد في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي يكاد يكون قد وجه إلى روما ، ففي السفر كلام كثير عن « كرسى الشيطان » والقوم الذين « يأكلون ما ذبح للأوثان » ، وفيه أيضاً تنديد بـ « إبليس الذي يزعم أن يلتقي بعضاً منكم في السجن لكي تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام . . . كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة » . ودعا توتولييان Tertullian (ولد حوالي ١٥٠م) إخوته المسيحيين إلى الإحجام عن مشاغل العالم والإضراب عن خدمة الدولة على

أساس أن الإمبراطورية الرومانية تقوم على الإثم . كذلك جهر البعض من المسيحيين من رجالات الجيش بالعصيان والامتناع عن الاستمرار في الخدمة العسكرية ^(٦) :

كل هذا أدى إلى تعميق شعور الريبة في قلوب الرومان ضد هذه الطائفة التي باتت أعضاؤها يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون طقوساً غريبة وينشدون أدعية غير مفهومة . وراحت غوغاء المدينة تروج روايات مختلفة عن تلك الطائفة السرية من أتباع المسيح المتزايدة العدد . واضطرت السلطات ، في سبيل تهدئة خواطر الدهماء ، إلى تقديم أعداد من المسيحيين غذاء للأسود المجوعة في الحلبة الرومانية . ولكن الجماعة المسيحية ازدادت صلابة وعناداً وراحت تفاخر « بأكليل الشهادة » الذي توج رؤوس من « رقدوا في الرب » . والذي زاد النار ضرماً أن القرن الثالث للميلاد شهد نماء فكرة جديدة عند الرومان مؤداها أن آلهة الكابيتول قد غدت عطشى ، ولا بد من ريبها وإطفاء ظمئها وغضبيتها بدماء الذين أنكروها وكانوا لها جاحدين .

ولقد حار الكتاب في تفسير تلك القسوة الرومانية وتلك الرياضة الوحشية التي لم تكن سوى مجازر مفرقة تقام في السيرك لتلهية العامة والسوقة — بين حيوان وآخر أو بين حيوان وآدمي ، وأخيراً بين آدمي وآدمي . وهناك سجلات صادقة عن الاضطهادات التي لقيتها الكنيسة الأولى ما بين عهد نيرون في القرن الأول وحكم دقلديانوس في بداية القرن الرابع . ولكن هنالك أيضاً مبالغات مهولة في أعداد الشهداء جاءت على لسان مؤرخي الكنيسة وبعض المؤرخين العوام . ولعله من سخريات التاريخ ، وتاريخ الكنيسة على وجه الخصوص ، أن مجموع الشهداء الذين سقطوا في القرون الثلاثة الأولى في عصر الاضطهاد لم يبلغ جزءاً على المائة ($\frac{1}{100}$) من عدد المسيحيين الذين أمرت الكنيسة الرومانية بقتلهم بحجة الهرطقة فيما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر ، من خلال محاكم التفتيش الإرهابية .

ومهما كان الأمر فقد امتدت موجة الاضطهاد فشملت معظم ولايات الإمبراطورية . على أن الكنيسة قامت من المحن المتتالية أشد ما تكون وزادت القسوة صلابة وإيماناً

بعد أن تطهرت في كل هزة تعرضت لها من العناصر الضعيفة الإيمان التي خالجهما الشك حيناً في معجزة الدين الجديد .

وتاريخ الكنيسة الأول محرط بالكثير من الغموض والظلام على عكس ما يظنه الكثيرون منا . ومهما قيل من كلام فلا مفر من تقرير الواقع وهو أن الكنيسة في أول عهدها كانت ولاية مجتمع يهودي : فالمسيح هو ابن داود النبي ، ومعلم المسيحية الأكبر بولس الرسول كان يهودياً ضالماً ، كما وأن التعاليم المسيحية الأولى كانت موجهة لإصلاح مفاسد المجتمع اليهودي ، وأول كنيسة قد أسست أول ما أسست في أورشليم . على أن القرون الأولى لظهور المسيحية قد شهدت ثورة خطيرة ألا وهي انقلاب التعاليم المسيحية صراحة ضد اليهود . وهذا الشعور ليس بالحديد ولا بالمستغرب ؛ فجماعة اليهود عندما طلبوا من الحاكم الروماني لولاية فلسطين وهو بيلاطس البونطى ، أن يقتل المسيح لم يكونوا في هذا يخططون للانتقام منه لأنه نادى بأنه ابن الله ، وإنما لأن بشارته كانت هدماً صريحاً للنظرية اليهودية القائلة بأنهم « شعب الله المختار » ، فهو قد أتى ليخلص الكافة لا الخاصة ، يهوداً كانوا أم أمميين . كذلك صرخ المسيح في وجه حاخاماتهم وفلاسفتهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرءون لأنكم تخلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخاؤون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرءون لأنكم تأكلون بيوت الأرمال ، ولعلة تطيلون صلواتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم » . وفي مناسبة أخرى قال المعلم : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك خراباً » . وهو أيضاً الذي قال لهم : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوف » .

والحق أن الفترة بين استشهاد القديس بولس وبين اعتناق الإمبراطور قنسطنطين العظيم المسيحية هي نفس الفترة التي كانت الكنيسة فيها تعمل على نفص كل أثر يهودي عن كاهلها ، فصارت بذلك إغريقية الصبغة : فلغة الكنيسة التي ذاعت بها التعاليم المسيحية هي اليونانية ، كما وأن كل سجلاتها الباكورة كانت باليونانية أيضاً :

وكان الإمبراطور تيتوس^(٧) ، قد هدم مدينة أورشليم في عام ٧٠ م وحولها إلى كومة من رماد ، ولما أعيد بناء هذه المدينة أعطيت اسماً لا تينياً .

في أثناء تلك الفترة المظلمة من تاريخ الكنيسة وضع الآباء الباكرون عدة نظم وقوانين يمكن أن نطلق عليها اسم « الدستور » الأول للبيعة المسيحية . كذلك راحت الكنيسة تتلمس لنفسها قانوناً للإيمان يتلوه كل من يقبل المعمودية . أما الكادر الخلقى الذى اتبعه المسيحيون فقد وجدوه فى أمثال وحكم المسيح ومواعظه على الجبل ، وفى سيرته أثناء ترحاله مع تلاميذه الاثنى عشر . ومن هذا قررت الكنيسة لنفسها الأسرار السبعة وهى : العماد ، الميرون ، التوبة ، التناول ، الزيجة ، مسحة المرضى ، ثم الكهنوت . وكانت الكنيسة الأولى مجمعة « للإخوة فى الرب » أو الرعية أو القطيع الصالح ، وهى مسميات استخدمها المسيح ذاته ، استقاها من المجتمع الرعوى الذى نشأ فيه . وكانت اجتماعات الكنيسة تتم أول الأمر فى سبرية ، أغلب الظن فى منزل واحد من الإخوة ، وفيما بعد كانوا يلتقون فى أحد المباني العادية الخالية من أية صورة أوزينة . وعندما تعقبتهم السلطات ، تحايلت هذه الجماعة للحصول على ترخيص من السلطات الحاكمة باعتبار مقر اجتماعاتهم (الكنيسة) مدفناً من المدافن . ومن حول هذا المدفن راحت الجماعة تتوسع فى الأرض الفضاء الملاصقة واستغلتها فى دفن أعضائها الراحلين . أما فى روما فكانت الكهوف الأرضية تنى بالغرضين الصلاة والدفن معاً .

والانضمام إلى هذه الجماعة لا يتم إلا بعد العماد ، وهو طقس ليس بالجديد لأنه كان قائماً قبل مولد المسيح ، الذى أقره سرّاً من أسرار الكنيسة بعد أن اعتمد على يد يوحنا المعمدان فى نهر الأردن . وطبيعى أن الكنيسة راحت تحيط طقس

(٧) تيتوس : هو تيتوس فلافيوس ساينوس فسباسيانوس الذى حكم إمبراطوراً لروما من ٧٩ - ٨١ م . وكان قبل توليه الحكم شريكاً لأبيه الإمبراطور فسباسيان فى العرش . وفى عام ٧٠ قام تيتوس بحصار مدينة أورشليم ، ثم استولى عليها ودمرها . ولقد وقع تيتوس أثناء حروبه فى مملكة يهوذا فى حب برينيكه ابنة الملك هيرود أجربا الأول ، وقد اصطحبها معه إلى روما . ولكن الرومان امتنعوا من أن يرتبط الإمبراطور بامرأة يهودية ، فاضطر تيتوس إلى طردها ، الأمر الذى عبر عنه سيوتونيوس بقوله : *invitus, invitam* . ولقد كانت قصة تيتوس مع برينيكه مصدر الإلهام للكاتب راسين فى مأساته بعنوان « برينيكه » .

العماد هذا بهالة من الرهبة والقدسية لتدخل الروح والشعور بالإجلال في قلوب الداخلين الجدد إلى حظيرة الإيمان المسيحي .

سر آخر اتبعته الكنيسة الأولى للجمع بين المؤمنين هو شركة تناول (اليونخارستيا) . والتناول هو مشاركة الأنقياء « المعترفين » من المؤمنين في تناول القربان والخم المقدس ، إعلاناً « للعهد الجديد » وإحياء لذكرى « العشاء الرباني الأخير » الذي أقامه المسيح لتلاميذه الاثني عشر عشية القبض عليه ومحاكمته . وهذا الطقس لصيق بالكنيسة منذ نشأتها الأولى ، ولا نكاد نعرف وقتاً أغفلت فيه الكنيسة هذا السر ؛ الذي يرمز إلى قصة الآلام والصلب والدفن ثم القيامة من القبر في اليوم الثالث ، وهو ترجمة لقول المسيح لتلاميذه أثناء « العشاء الأخير » : « خذوا كلوا . هذا هو جسدي . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم ؛ لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » . وبمرور الزمن أصبحت الكنيسة تؤمن بمبدأ « التحول » Consubstantiation ؛ أي أن هذا القربان وذلك الخمر « يتحولان » بالفعل إلى جسد ودم السيد المسيح .

كذلك عكفت الكنيسة الأولى على ترتيب سجلاتها وهي تتلمس طريقها نحو وضع قانون كنسي تسير على هديه . وقبل أن ينتهي القرن الثالث كانت الكنيسة قد أقنعت جماعة المؤمنين أن بعضاً وافرأ من سجلاتها لم يكن مجرد كتابات تاريخية وإنما هي إلهامات من الروح القدس الناطق بالحق . ولقد وجدت في « العهد القديم » سجلاً للتاريخ البشري منذ سحيق الأزمان فلم تتردد في إضافته إلى « العهد الجديد » ؛ ولكنها طلقت بعضاً من هذه السجلات دون أن تدّينها صراحة على زعم أنها زائفة أو مدسوسة (أبوكريفاسكربتا Apocrypha Scripta « والعهد الجديد » يشتمل على الأناجيل الأربعة لمرقس ومتى ولوقا ويوحنا ؛ إلى جانب أعمال الرسل ورسائل القديس بولس ثم سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي . وهناك قول بأن إنجيل مرقس هو من وضع القديس بطرس نفسه ، ومهما كان الأمر فهو يرجع إلى عام ٦٠ م . أما بقية أجزاء « العهد الجديد » فلم تكتمل حتى نهاية القرن الثاني . وأما القانون الكنسي فلم يتبلور تماماً حتى القرن الرابع .

سر آخر من أسرار الكنيسة الأولى هو الكهنوت . والكهانة ليست من ابتداء الامبراطورية الرومانية

المسيحية ، فبعض نبلاء الرومان كانوا كهنة Flamen لبعض الآلهة ، وكان « المواطن الأول » لروما يحمل من بين ألقابه الأخرى لقب « الكاهن الأعظم » Pontifex Maximus ولكن المسيحية قد اقتبست — على ما يبدو — بعض السمات من الكهانة المصرية القديمة ومن فارس أيضاً ، ويتضح ذلك في تلك الوساطة التي خلعتها الكنيسة على رجال الإكليروس في الطقوس التي تصل العباد بالخالق . وما إن حل القرن الثالث حتى صار أساقفة الكنيسة كهنة وحكاماً في آن واحد ، زاعمين في هذا أنهم ورثة الرسل تلاميذ المسيح :

« ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين أنه قد اقترب ملكوت السموات ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده . . . الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور . والذي تسمعون في الأذن نادوا به على السطوح . ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدر أن يقتلها . . . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة . فلا تخافوا . . . »

حتى عام ٣٠٠ لم يكن هناك خط واضح يفصل بين قوامة الإيمان « الأرثوذكسية » وبين الخروج على هذا الإيمان « الهرودوكسية » أو إن شئت قل الهرطقة . والهرطقة كلمة يونانية الأصل (Airesis) ومعناها الرأي الفردي الخاص الذي لا يتساق مع آراء آباء الكنيسة الذين توثقت إيمانهم « بفعل الروح القدس » . ولا كانت المسيحية قد غزت أقطاراً متباينة في تاريخها وحضارتها وسكانها ، كان ضرورياً أن تتباين أيضاً وجهات نظر كل قطر في بعض المسائل اللاهوتية الغامضة التي نادت بها الديانة الوافدة . ولكن الكنيسة سرعان ما بلورت لها قانوناً للإيمان ، صار الاعتراف به مقياساً للأرثوذكسية ، وأما من انحرف عن قواعد هذا القانون فهو مهرطق (Hairetikos) أو « أخ قد فسد » . ولعل أقدم هؤلاء « الإخوة الفاسدين » هم جماعة الغنوصيين Gnostics ، واسمهم مشتق من كلمة يونانية معناها « المعرفة » . ولقد اعترض الغنوصيون على « العهد القديم » ، وخلطوا العقيدة ببعض الديانات الشرقية القديمة وبمذاهب فلسفية إغريقية . وقد نادوا بمبدأ « الازدواج » في الكون : فهناك مصدر الخير المطلق ممثلاً في الله ، ثم هناك المادة الأزلية مصدر كل الشرور .

وبين هذين المطلقين للخير والشر توجد خلائق لا مادية (Eons) وهي أدوات الخلق في هذا العالم . والجسد عند الغنوصيين فاسد كلية ؛ وعلى هذا فإن المسيح لم يتخذ من هذا الجسد شيئاً سوى الصورة (Dokein) . وواجب المؤمن أن يهمل الجسد ويعلى عليه الروح عن طريق حياة الزهد والتقشف المتطرفة .

اتبع آباء الكنيسة سياسة اتسمت بالحذر والحسم في محاوله الحفاظ على وحدتها، واستماتت في سبيل تثبيت ركائز العقيدة السليمة . وكانت الكنيسة في واقع الأمر بين نارين : كيد الوثنيين من جانب ومكر الإخوة الذين زاغوا عن الإيمان من جانب آخر . ولقد رحب الكثيرون من هؤلاء الآباء الأولين بالموت في سبيل إيمانهم ، وكان منهم اجناتايوس^(٨) وجوستن^(٩) وكيريان^(١٠) ، ومن بين الآباء العمالقة أيضاً

(٨) اجناتايوس : هو من أوائل الشهداء ، ويعرف أيضاً باسم ثيوفوروس أى « حامل الله » . ويرجع أنه من أصل سوري ، وترى فيه الأسطورة نفس الطفل الذي « دعاه المسيح إليه وأقامه في وسط تلاميذه قائلاً لهم : إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » . وهو ثاني أو ثالث أساقفة أنطاكية . وعندما تقادم في العمر حكمت عليه السلطات الرومانية بالموت وأرسل إلى روما ليلقى للوحوش المفترسة في ألعاب السيرك وفي خلال رحلة الآلام هذه كتب رسائله الشهيرة السبع . وقد توقف الركب عند سميرنا حيث التقى اجناتايوس بالقدّيس بوليكارب - الذي كان وقتها شاباً صغيراً . وأهم ماجاء في رسائل اجناتايوس الموجهة إلى مسيحيي أفيسوس وما غنيزيا وترالس وروما وفيلادلفيا وسديرنا أن يحرصوا على وحدتهم الأخوية في شركة التناول تحت رئاسة أساقفتهم . وفي روما استشهد القدّيس بالطريقة البشعة التي أعدتها له السلطات الرومانية كما سبق القول ، وذلك في عام ١٠٧ م .

(٩) جوستن : ولد في نابلس في عام ١٠٠ م تقريباً لعائلة يونانية وثنية . ولقد درس الفلسفة ثم تعرف على المسيحية من خلال تعمقه في الأفلاطونية . وبعدها راح يبشر بكلمة الإنجيل من بلد لآخر . ولقد زار روما مرتين ، وفي الزيارة الثانية للعاصمة قبض عليه وقطعت رأسه بسبب تعاليمه المسيحية ، وذلك في عام ١٦٥ م . وقصة محاكمته على يد حاكم روما (رستيكوس) ثابتة تاريخياً ولا شك فيها . ولقد قال للحاكم : « إن من يملك عقلاً رشيداً لا يقبل أن يمتحن ذاته فيعبد الأوثان ؛ لأنه بهذا يجافي الحق وينحاز للضلال - أفعلا معنا ما تبغون ، فنحن مسيحيون وسنموت على مسيحيتنا » .

(١٠) كيريان كيريان : ولد في تونس في عام ٢٠٠ تقريباً . ولقد أمضى معظم حياته في المحاماة وتلقين الخطابة في قرطاجة ، واعتنق المسيحية وهو في السادسة والأربعين من العمر ، وبعد ذلك بعامين عين أسقفاً لقرطاجة . وعندما زحف الإمبراطور دكيوس في عام ٢٤٩ ليقتضى على المسيحيين اختبأ كيريان ، مما جر عليه الكثير من النقد والتجريح من جانب بعض المسيحيين الغلاة . وبعد وفاة دكيوس في عام ٢٥١ اشترك

ترتوليان ، هذا الإفريقي الثائر الذي ولد في قرطاجة عام ١٥٠ م . وكان ترتوليان ابناً لعائلة وثنية . ولا نعرف كيف اعتنق المسيحية ، ولكننا نعلم أنه أصبح من رجال الإكليروس . وكان ترتوليان ضالماً في الفلسفة والعلوم والقانون ؛ كما وأن شخصيته كانت ذات سحر أخاذ . وأهم إنتاج مبكر له كتاب بعنوان Apologeticus في عام ١٩٧م ؛ دافع فيه عن المسيحيين ضد ظلم واضطهاد الحكام الرومان ، وفي الكتاب أيضاً دفاع عن نفسه عندما قدم للمحاكمة . ومقولاته الأخرى التي كتبها ترسم المثل التي يجب أن يتحلى بها المسيحي في حياته وسط مجتمع وثني ؛ ومنها تتضح النزعة النسكية في حياة ترتوليان . ولقد كان ترتوليان قاسياً مع الساقطين والساقطات وأنكر عليهم نوال الغفران عن طريق التوبة . ويرجع موقفه المتشدد هذا إلى اتباعه تعاليم « المتطهرين » Puritans من جماعة مونتان الفريجي الذي نادى أتباعه بأنه « تجسيد للروح القدس » . وقد أفلت ترتوليان من أيدي الوثنيين بمعجزة .

أما أورجين السكندري (١٨٥ - ٢٥٤) فكان أعلم الآباء الباكرين وأعمقهم فكراً . وقد اضطر إلى قضاء معظم سني حياته مختبئاً ، وهو في نهاية الأمر يموت في السجن . وأورجين هذا رائد اللاهوتيات النسكية ، التي تنبئ على أساسين : « طريق النفي » ، ثم مبدأ « التماس » أو « الاتحاد » . والركن الأول في فلسفة أورجين يرى أن الله أعلى من أن يدركه العقل البشري ، وأعظم من أن تعبر عنه لغة الأرض ؛ ولهذا يجب استخدام أسلوب النفي لا الإثبات في الحديث عن الله فلا نقول - مثلاً « الله المرئي » بل نقول « الله الذي لا يرى » . والأساس الثاني

كبريان مع البابا كورنيليوس في معارضة المذهب المتشدد الذي نادى به نوفاتيان . على أن القديس وقع في خلاف شديد مع البابا ستيفن الأول لأن البابوية كانت لا توافق كبريان في إصراره على إعادة عماد الهراطقة الذين يتوبون ويعودون إلى حظيرة الأرثوذكسية . وكان كبريان عطوفاً على شعبه خاصة وقت الوباء الأسود الذي حل بقرطاجة في عام ٢٥٢ ، والذي عزاه الوثنيون إلى غضب الآلهة من أفعال الجماعة المسيحية . وكان كبريان متواضعاً ، ولم يقدم على اتخاذ قرار هام دون مشورة من رعيته وقسيسيه . وعندما اشتدت موجة الاضطهاد ضد المسيحيين من جديد على يد الإمبراطور فاليريان في عام ٢٥٨ ، قبض على كبريان وحكم عليه بالنفي إلى كوروبس . ثم أعيدت محاكمته في قرطاجة وحكم عليه واقتيد القديس وسط جموع غفيرة إلى ساحة سكستوس : وهناك خلع ملابسه وركع يصلي ، ثم تبرع بمبلغ من العطاء كريم للجلاد الذي كلف بقطع عنقه ، وعصب القديس عينيه بنفسه وقدم رأسه للجلاد في ثبات أذهل الجميع من حوله .

يدعو المؤمن إلى الخلود إلى التأمل والصلاة الهادئة التي ترفع روح المؤمن إلى مرحلة من الدوبان في الله . وهذه نزعة صوفية بحتة أثرت كثيراً على الكنيسة المصرية فيما تلا من تاريخ . هذه الآراء قد أثارت حول أورجين شبهات كثيرة وأشارت إليه بعض الأصابع لتدمغه بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إدانته .

ومن خلال المجادلات العنيفة التي قامت بين الآباء وعلى ضوء القرارات التي اتخذوها في مجالسهم ومجامعهم بدأت تتبلور مفاهيم الكاثوليكية ، وهي كلمة مرادفة للأرثوذكسية . ومعنى الكلمة الأصلي — كما استخدمت لأول مرة في القرن الثاني — هو الشمول والعالمية . ولقد زعم الآباء الكاثوليك (الأرثوذكس) أن هنالك خطأ يصلهم بالرسول أنفسهم : فقد كان أرينايوس^(١١) تلميذاً من تلامذة بوليكارب^(١٢) . الذي كانت له نعمة الحديث مع تلميذ المسيح وحبيبه القديس يوحنا اللاهوتي ذاته . كما وأن كلمنس الأول أسقف روما (٩٠-٩٩) كان — أغلب الظن — قد تعرف على القديس بولس ، وربما أيضاً على القديس بطرس . إنه خيط رفيع للغاية يمكن للبعض أن يطعن في صلابته ، ولكن الكنيسة تمسكت به في إيمان واستماتة راسخين .

(١١) أرينايوس : ولد ببلدة سميرنا في عام ١٣٠ تقريباً وتوفي في ليون في عام ٢٠٢ . ولقد تأثر أرينايوس في صدر شبابه بتعاليم بوليكارب ووعى كلماته « لا على الورق وإنما داخل القلب » . ثم ترك آسيا الصغرى ورسم قسيساً في مدينة ليون على عهد ماركوس أوريليوس . وبعد استشهاد القديس بوثنوس خلفه أرينايوس أسقفاً لأبروشيته ليون . وأهم كتابات أرينايوس مقولته التي هاجم فيها الغنوصيين بعنوان *Adversus Haereses* .

(١٢) بوليكارب : توفي هذا القديس شهيداً في مدينة سميرنا في عام ١٥٥ . ولقد عاش بوليكارب عمراً طويلاً ، ويحدثنا تلميذه أرينايوس أنه « حصل على نعمة معرفة يوحنا اللاهوتي حبيب المسيح » . كذلك كان القديس أجاتيوس الإنطاكي قد أرسل إليه برسالة — وهو بعد في سن الشباب — ليقويه في الإيمان . ولقد وقع القديس في أيدي السلطات الرومانية بفعل خيانة أحد خدمه . واقتاده البروقنصل إلى أحد النوادي وسط جمهور من غوغاء سميرنا . وهناك طلب منه هذا الحاكم أن ينكر مسيحيته وأن « يلعن مسيحه » ، ولكن الرجل رد عليه بقوله : « لقد كنت خادماً للمسيح قرابة تسعين عاماً ، وهو يرعاني ، فكيف لي أن أجدف بمليكي ومخلصي يسوع ؟ » وهنا هتفت الغوغاء تطالب بدماء هذا المسيحي المتعجرف « الذي يحطم آلهتنا » . وعليه فقد حكم عليه البروقنصل بأن يحرق حياً . وقبل أن ينخضع القديس للاستشهاد بالنار ركع وصلى شاكراً الله « ولكنه ما أن اختتم صلاته « آمين » حتى اتخذت اللمبة شكل أحد البواكي وأحاطت بجسد القديس من بعيد دون أن تمسه ، وبدأ الناظرين لا كالمحترق وإنما كالخبز في داخل الفرن ، أو كالذهب عندما تصقله النار » . ولقد أمر البروقنصل الجلاد أن يجهز على القديس بطعنة خنجره ، ليطمس في غيلة الغوغاء المعجزة التي كانت تتم أمام عيونهم .

ولقد شهدت القرون الثلاثة الأولى للمسيحية تغيرات وتطورات ومجادلات عنيفة ، مما يدعو المرء أحياناً إلى الظن بأن رسل المسيح — هؤلاء الرجال البسطاء من صيادى الجليل — لو كانوا قد عاشوا ليروا ما صارت عليه تعاليمهم التى بشروا بها لفغرت أفواههم من الدهشة البالغة ، إن لم يكن من شدة الحيرة . ومضت الكنيسة فى طريقها وهى تعتقد اعتقاداً راسخاً أنها مسيرة بإلهام الروح القدس ، ولم يتزعزع إيمانها هذا لحظة واحدة ولا طرفة عين .

إن مجتمعاً كنسياً بهذه الطاقة الروحية الهائلة وبهذه الروح الملهبة حباً فى الاستشهاد لم يكن خصماً هيناً للقيصرة وربتهم روما ، خاصة وأن المجتمع الرومانى كان قد جف فى الفكر واعتل خلقاً وروحاً . وكان نظام التعليم فى شتى أرجاء الإمبراطورية عقيماً يهتم فى الدرجة الأولى بالبيان والخطابة . واضطلع بهذه المهمة الأساتذة الأغارقة الذين كان لديهم من القدرة أن يجادلوا ويجادلوا فى لاشيء فهم يلوكون العبارات ساعات طوالاً فى ألفاظ منمقة ولكنها خاوية لا مادة فيها ولا دسم . ولئن أخذتهم جادة العلم فإنهم يقلبون فى أفكار العصر الذهبى (القرنين الخامس والرابع ق.م .) ثم يتقيأونها من جديد ، ممسوخة فى أغلب الأحيان ، دون إضافة فكرية أصيلة واحدة تستحق التسجيل .

لم تقدم الكنيسة دفعة واحدة على إدانة الفكر الوثنى برمته ، خاصة وأنه لم يكن هنالك بعد تراث مسيحى خاص يطالعه الشباب المسيحيون . ومنذ تأسيس القسطنطينية فى عام ٣٣٠ بدأ أثر الثقافة اليونانية يقل فى النصف الغربى للإمبراطورية ، وعلى التدريج نسي الناس اللغة اليونانية : فالقديس أغسطينوس نفسه يعترف أنه برغم قراءته أفلاطون إلا أن معرفته باليونانية ظلت هزيلة . أما فى النصف الشرقى للإمبراطورية فقد ظل اللسان اليونانى حياً ، ولكن مما يلفت النظر حقاً أن لفظة « هلىنى » فى القرن الخامس صارت مرادفة لكلمة « وثنى » .

أما أخلاقيات المجتمع الرومانى الوثنى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد فقد كانت على درجة بالغة من السوء ، وبخاصة فى العاصمة فنذ القرن الثانى قبل الميلاد كان الساسة الديماجوجيون قد أدخلوا نظاماً يقضى بتزويد رعاى العاصمة والعاطلين بالقمح الرخيص . ثم تطورت الأمور فصار القمح يصرف للغواص دقيماً ، وتحت إلحاحهم

حصلوا عليه مصنعاً أخبازاً مجانية . وبالتدريج حصلت هذه الفئات على لحم الخنزير والأنبذة مع هذا الخبز . وازداد هؤلاء طمعاً ، فألحوا على دخول السيرك للاستمتاع بالمشاهدة دون أن يدفعوا مقابلاً . ولقد كانت الغوغاء هي المحرك الأول للشغب والعنف داخل السيرك (الهيدروم) وفي الساحات العامة أيام الأعياد والاحتفالات . ونحن نعلم أن عدد المناسبات التي كانت تقام فيها احتفالات الصخب والمجون على مدار العام في القرن الثالث قد بلغت مائة وخمسة وسبعين يوماً . وفي كل مناسبة من هذه المناسبات الصاخبة كانت تراق دماء البعض من الأبرياء من الجماعة المسيحية لإدخال المتعة على قلوب الدهماء ولإرضاء شهوة جوبيتر وآل بيته في الكابيتول . وعندما نقل قنسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطيوم على ضفاف البسفور ، كان عليه أن ينعم على غوغاء العاصمة الجديدة بما اعتادت عليه غوغاء العاصمة القديمة من نعم . واستمرت العامة على الكسل وتلذذت بالبطالة وشغب الهيدروم ، كل هذا على حساب عرق ودماء الفلاحين ودافعي الضرائب في الولايات الإمبراطورية ، الذين فقدوا كل أمل في العدالة بعد أن رأوا ثمار سواعدهم تبثر على هذه الشاكلة القميئة .

وإذا انتقلنا إلى العراء الروحي الذي أصاب المجتمع الروماني نجد أن الآلهة القدامى قد أفلسوا :

أبوللون ، أين أنت يا سيد المحراب
لقد صم الإله وفي الوحي قد خاب
دلى باتت خراباً، وربها في عويل بلامآب^(١٣)

والحق أن مثراس والربة إيزيس وأزوريس كانوا منبعاً للشعوذة التي تفشت في حياة الناس ، فكانوا يعيشون على السحر أبيضه وأسوده وعلى الوحي الكاذب . ولما جاءت المسيحية أعلنت حرباً شعواء على هذه الخرافات وجاءت أجزاء من الكتاب

Apollo from his Shrine,

Can no more divine,

With hollow shriek the step of Delphos leaving.

المقدس لتبث الرعب في القلوب فتوعدتهم بأنون النار السرمدي إن هم أصرروا على هذه الشعوذات :

« هذا يقوله ابن الله الذي له عينان كلهيب نار ورجلاه مثل النحاس النقي ... لكن عندي عليك قليل إنك تسب المرأة إيزابل التي تقول إنها نبية حتى تعلم وتخون عبيدي أن يزنا ويأكلوا ما ذبح للأوثان . وأعطيها زماناً لكي تتوب عن زناها ولم تتب . ها أنا ألقها في فراش والذين يزنون معها في ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم . وأولادها أقتلهم بالموت . . . »

أما الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فقد كانت ديانة قستا Vesta ربة النار ، التي كان يقوم على خدمتها وضمان اشتعال النار المقدسة في معبدها ست من العذارى . وكان من واجبات هؤلاء العذارى أيضاً إعداد الفطائر المالحة mola Salsa في الأعياد . وهؤلاء العذارى Vestals كن يختزن من بيوت النبالة ، وكن يقمن في دار بجوار الفورم Forum (السوق) عرف باسم Atrium Vestae ، وكن يتلقين أخبارهن من الدولة . ولئن ثبت على إحداهن الخروج على قواعد العفة والطهر دفنت حية في بطن الأرض تحت المعبد في حجرة عرفت باسم Campus Sceleratus . وإلى جانب جماعة العذارى هذه كانت هنالك كلية « الاستخارة » ، التي كان كهنتها يستطلعون رأى الآلهة في المشروعات الخطيرة التي تقدم عليها الدولة . كذلك كانت توجد جماعة الكهنة ورؤيسهم الكاهن الأعظم ، الذين كانت مهمتهم دراسة التقاويم وتحديد تواريخ الاحتفالات والأعياد وربط الأيام بأبرز الأساطير القديمة والأحداث الهامة ، وتحديد سعيدها fasti من تعيسها nefasti ، وعلى هذا كانوا يقررون الأيام التي بها نذير شر والأخرى التي تبشر بالخير .

حافظ الروماني على هذه العقائد لا لأن كل روماني كان يؤمن بها إيماناً قاطعاً ، وإنما يرجع هذا إلى حقيقة أن مزاج الشعب الروماني كان محافظاً بطبعه . بقي أن نلقى نظرة على أحوال الإمبراطورية الاقتصادية والإدارية قبيل انهيارها . امتدت الإمبراطورية الرومانية من نهر تاین Tyne جنوب أسكتلندة إلى نهر الدجلة ، ومن الصحراء الكبرى إلى جبال الكربات . وكانت شبكة من الطرق

الممهدة تغطي هذا الاتساع. ولقد زودت هذه الطرق بمحطات كانت مهمتها تأجير الخيول للمسافرين والتجار بأسعار معقولة. وكان الإغريق والرومان أهل مدن، وكانت هذه المدن علامة التحضر والفخار في الإمبراطورية الرومانية. وكانت المدينة (Polis, Civitas) تحوى بيت العدل أو البازيليقا (Basilica) والمعابد والمسارح والسوق والحمامات العامة. وكان «السلام الروماني» Pax Romana يسود أرجاء الإمبراطورية مما هيا ظروفاً ملائمة لانتعاش الأحوال التجارية قبل أن تهدد الإمبراطورية نذر المتبربرين.

أما في الريف حيث كانت تقوم الزراعة وتربية الماشية والتعدين، فكان عبء العمل يقع كله العبيد. وكان أقل صغار الملاك يملكون عبداً أو عبيدين، في حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافاً من العبيد. وكانت الثروة المادية التي نعرفها اليوم برأس المال تقوم أساساً على الملكية الزراعية. على أن إنتاج المواد الضرورية للمجتمع الروماني كان أقل بكثير من إنتاج سلع الرفاهية. وكانت إذا حلت ضائقة بأحد الملاك لجأ إلى الاستدانة من الملاك الموسرين أو من جماعة المرابين الذين كانوا يتقاضون أرباحاً بلغت قيمتها ١٢٪ ويزيد. وإذا فشل المدين في دفع ما عليه من مال وفوائد ضاعت عليه أرضه. وكانت الإمبراطورية الرومانية تعاني من تناقص واضح في السكان، ونحن نعلم أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) قد استقدم جماعات من البرابرة ليستوطنوا ويعمروا الولايات الشمالية الشرقية للإمبراطورية وبعد ذلك بمائة عام اضطر الإمبراطور أوريليان إلى أن يتخلى عن ولاية داكيا Dacia للمتبربرين وأن يتراجع بمحدود الإمبراطورية إلى نهر الدانوب.

وفي القرن الثالث كان سكان الإمبراطورية يضجون من نظام الضرائب التي ازدادت وطأتها على كواهلهم: فقبل عهد دقلديانوس كان هناك بلاط إمبراطوري واحد، وجيش روماني واحد، وإدارة حكومية واحدة؛ ولكن منذ عهد دقلديانوس وتقسيمااته الجديدة للإمبراطورية إلى اثنتي عشرة ولاية لكل منها حاكمها وحكومتها وجيشها وقعت أعباء تمويل هذه الحكومات والجيش والأجهزة البيروقراطية المتعددة جميعاً على كاهل دافع الضرائب التعس. ثم إن هذه الجيوش المتعددة سرعان ما وقعت في حروب طاحنة ضد بعضها الآخر بسبب طمع قادتها في الحكم. واستتبع

هذا الموقف زيادة في عدد السياسيين المتعطلين من تجار السياسة الذين كانوا يلقون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخرى مع تلك الفرقة ، في مقابل رشوة مالية دسمة . وكل هذه الأعباء كانت في حقيقة الأمر تقع على دافعي الضرائب . هذا إلى جانب ما كان موظفو الإدارة الرومانية في الولايات الإمبراطورية قد فرضوه من « هدايا » على الموسرين وغير الموسرين من سكان هذه الولايات .

وكانت العائلات السيناتوروية معفاة من الضرائب لا عن ضياعها الإيطالية فحسب وإنما أيضاً عن الضياع التي تملكها خارج حدود إيطاليا . وفي القرن الرابع غدت رتبة السيناتوروية مجرد لقب شرفي يمين به « المواطن الأول » على من يشاء من أتباعه وخلصائه ، وقد كان سخياً في هذا . وكان ذلك يعنى - اقتصادياً - أن العديد من الضياع التي كانت تدفع عنها الضرائب صارت معفاة من الضريبة . وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الإمبراطورية على الطبقة الوسطى فيما عرف باسم ضريبة *Annona* التي كانت تدفع عينية من القمح . كذلك فرضت الحكومة الرومانية على صغار الملاك ضريبة أخرى وألزمت كل مدينة بالتضامن في دفع حاصل هذه الضريبة المقررة عليها كاملة ، وألقت بمسئولية توفية دفعها على هيئة مواطني المدينة المنتخبين (*Curiales*) . وكان معنى هذا أن أفراد الطبقة الوسطى من ملاك الأراضي - وهم العمود الفقري للإمبراطورية - قد قصمت ظهورهم بما لا يطيقون من ثقل ضريبي منعسف .

وقد أفاد التيناتوريون من الحراب الذي حل بالطبقة الوسطى فابتلعوا الملكيات الصغرى في القرنين الرابع والخامس . والأدهى من هذا بالنسبة لخزانة الدولة أن تحاييل الكثيرون على جامعي الضرائب بالتنازل عن أراضيهم للأقوياء من أعضاء السيناتو فلا تجبي عليها ضرائب ، وفي مقابل ذلك كان عضو السيناتو يحصل مبلغاً من المال من صاحب الأرض ليسمح له بالاستمرار في زراعتها . حقيقة أن الدولة كانت تكافح تفشى هذا النظام الذي عرف باسم *Patrocinium* ، ولكن الطبقة الاستقرائية كانت تعرف كيف تحشو جيوب القضاة وجامعي الضرائب برشوة دسمة . لقد استشرى الفساد بين رجال العدالة ، حتى إن أحد الفكهاء في القرن الرابع قد نادى بضرورة إصدار قانون يجرم على القضاة قبول دعوات حفلات العشاء على مآدب السيناتوريين .

وعلى هذا المنوال خضعت قرى بكاملها تحت سطوة الاستقرائية الرومانية الجشعة ، وضاعَت على الخزانة كل الضرائب التي كانت تجبي سابقاً عليها . ولقد ألغت الحكومة ظهور من تبقوا من صغار الملاك الأحرار بـضرائب جديدة لتعوض ما التهمته بطون الشيوخ .

ولما انتصرت المسيحية على عهد قنسطنطين العظيم وأعفيت أراضيها وأوقافها من الضرائب ، راحت هي الأخرى تبسط جناحيها على أراض لا تحصى ولا تعد لتعفيها من الضرائب . ولم يتعفف التاج ذاته عن هذا الإثم ، إذ كان الإمبراطور — وهو لا يدفع ضرائب عن وسايه — كثيراً ما يضع مثل هذه الأراضي تحت لوائه لتعني من دفع الضريبة لخزانة الحكومة .

وعندما قل دخل الخزانة أثقلت الحكومة على البقية الباقية من دافعي الضرائب ، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية فلم يتورعوا عن أن يمحطوا بجامعي الضرائب — إذا ما حلوا بقراهم — بوابل من السباب والحجارة . ولكن الحكومة أزهتهم بالقوانين المجحفة لتبقيهم حيث هم « البقرة الحلوب » ولم تدر السلطات أن اللبن قد جف من ضرعها . ومضت الحكومة في سياستها الظالمة فحرمت عليهم بيع الأرض أو التنازل عنها ، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الزراعة ، ثم أغلقت في وجوههم باب الدخول إلى الجندية . ولا ندهش إن علمنا أن الكثيرين قد هربوا سرّاً من بيوتهم وذويهم وعملوا غيبداً عند النبلاء . والأدهى من هذا أن الحكومة أصدرت قانوناً يجعل هذه الطبقة (Decurio) وراثية ؛ وكان هذا يعني أن الأبناء يرثون تعاسة الآباء ، مما خلق عزوفاً في قلوب هذه الطبقة عن الرغبة في الإنجاب كلية .

هذه المأساة التي حولت خير طبقة في العالم الروماني — الطبقة الوسطى التي هي عماد الدولة — إلى عبودية ممقوتة كانت واحدة من العوامل الكبرى في هدم كيان الإمبراطورية الرومانية .

ولم تكن الحال بأحسن حالاً منع التجار وأرباب الحرف : ففي نهاية القرن الثالث صير قانون يقضي بمبدأ الوراثة بين أرباب الحرف فصارت الحرفة بذلك إلزاماً وكادوا

طبقياً (Status) . وكان ذلك يعنى أن أبناء الحياز مثلاً لابد وأن يستمروا خبازين إلى الأبد ، وأن أبناء بائعى اللحوم لابد وأن يصبحوا قصايين هم أيضاً ، رغبوا فى ذلك أم كرهوا .

وكنا قد قلنا فى مكان سابق أن ظاهرة وفرة العبيد كانت دليلاً على الرخاء ووفرة مجالات العمل فى الإمبراطورية ، ولكن الظاهرة الجديدة هي أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملحوظ، مما يدل على أن عدد الموسرين قد تناقص تبعاً . لم يكن ملاك الأرض بعد بقادرين على شراء العبيد ولا حتى على إطعام أفواه القلة من الذين بقوا فى حوزتهم . واختفت جماعات العبيد التى كانت تعمل فى الضياع السيناتورى فى كل من إيطاليا وغالة وإسبانيا . ولقد نتج عن هذا تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية فى أوروبا على مدار العصور الوسطى : فلقد اضطر أصحاب الأرض إلى إبرام عقود مع الفقراء من جيرانهم بل ومع عبيدهم المعتقين على أن يقوم هؤلاء بحراث الأرض وزراعتها مقابل نسبة معينة من المحصول ، وسمح لهم بجزء صغير من الأرض يزرعونه لحسابهم مقابل العمل على أرض هذا السيد أو ذاك . وعرف هؤلاء الأجراء باسم Coloni وهم البذرة الأولى للقنية أو جماعة الأقتنان Serfdom من زراع الأرض المرتبطين بها فى مجتمع غرب أوروبا الإقطاعى . وقد استقدم أصحاب الأرض فى القرن الخامس بعض المتبربرين لزراعة أراضيهم بنفس الشروط السابقة ، وعرف هؤلاء باسم Inquilini .

والواقع أنه لولا هذا النظام لا ختفت الزراعة كلية من غرب أوروبا فى القرن الخامس . وقد شجعت الدولة هذا الاتجاه فوزعت الأراضي البور والمهجورة المجاورة للأراضي المترعة على الملاك ليقوموا باستصلاحها ودفع ضريبة مخففة عنها :

وأما عن الجالس على عرش الإمبراطورية الرومانية — القيصر المؤله Divus Caesar — فقد حدثت فى وضعه هو أيضاً تغيرات خطيرة ابتداء من عصر أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) . لقد كان « المواطن الأول » — منذ عهد أوكتافيانوس أغسطس — يجمع فى يديه كل سلطات الجمهورية ، ولكن القضاء على بيت يوليوس — كلوديوس وآل فلاقيوس فى القرن الأول قد حال دون قيام ملكية وراثية فى روما . وفى

القرن الثاني كان التقليد أن يتبنى الأباطرة من يخلفهم على العرش . أما في القرن الثالث فقد أصبح « المواطن الأول » هو ذاك المرشح الذي تنادى به الفصائل الرومانية ودهماء العاصمة ، وكثيراً ما كان مرشح الأمس أضحية اليوم . ولقد نجح بعض الضباط المبرزين وأيضاً بعض الأوغاد الماكرين في شراء منصب « المواطن الأول » برشوة أفراد الحرس البرايتورى .

وفي سنة ٢٨٤ رفع الجند فلاحاً من دلاشيا هو دقلديانوس ليجلس على عرش الإمبراطورية . وحكم عشرين عاماً أدخل خلالها إصلاحات هائلة في جهاز الدولة المتهالك . وجاء من بعده قنسطنطين فحكم ثلاثين عاماً . وعلى عهده هذين الامبراطورين نجد أن « المواطن الأول » قد تحول علانية إلى حاكم أبدي ، إلى سلطان على المنوال الفرعوني أو الفارسي أو البطلمي .

والعلامة الأخرى التي ميزت هذه الفترة الدقلديانو — قنسطنطينية هي حقيقة أن الإمبراطورية قد انقسمت بالفعل إلى نصفين واحد شرقي وآخر غربي ، وأن الجيش والجيش وحده هو الذي صار يحكم الإمبراطورية سواء في الوظائف الإدارية الكبرى أو في بلاط الإمبراطور . وأن الضرائب كلها كانت تسخر لإرضاء الجيش ورجالاته فحسب .

والحقيقة الأخرى هي أن العاصمة الإمبراطورية قد نقلت بالفعل من روما إلى القسطنطينية (في ١١ مايو ٣٣٠) . وأهم من كل هذا وذاك أن المسيحية ، التي اكتوت بمس من الجحيم في موجات الاضطهاد المتتالية — قد اقتربت من لحظة الانتصار على خصومها .

الفصل الثانى

ما بين دقلديانوس وقنسطنطين

قنسطنطين ونصرة المسيحية

« إنه الحوارى الثالث عشر »

(يوسبيوس)

كان والدا دقلديانوس من العبيد فى بيت السيناتور الرومانى أنولينوس . وكانت أمه أصلاً من دماشيا ، أما والده فقد أعتق وحصل على وظيفة كتابية صغيرة . دخل دقلديانوس الجيش بجنأ عن حظ أفضل ، وقد واثاه الحظ فترقى فى المناصب المختلفة فى الجيش حتى ولى الحكم على ولاية مائيزيا Macsia ، ثم حصل على القنصلية ، وفى آخر الأمر اختير قائداً للحرس الإمبراطورى . وقد أظهر دقلديانوس مقدرة فائقة فى الحرب ضد فارس ؛ أكسبته قلوب الجند ومهدت له الطريق إلى شرف حكم الإمبراطورية (٢٨٤ - ٣٠٥) .

اختار دقلديانوس شريكاً له فى الحكم هو ماكسيميان (٢٨٦ - ٣٠٥) وأنعم عليه بترتقى قيصر وأغسطس تبعاً . وكان ماكسيميان جندياً ممتازاً ، وهو أيضاً من أصل رينى من ولاية سريميوم Sirmium ، ولكنه كان رجلاً عنيفاً وقاسياً ، ولقد اتفق الأغسطسان على أن يحمل دقلديانوس لقب جوفوريوس وأن يتخذ ماكسيميان لقب هرقلوريوس ، الأول يدبر أمور الإمبراطورية بحكمته ، والثانى يحميها بذراعه الذى لا يقهر . ثم أدخل دقلديانوس تعديلاً آخر فى حكم الإمبراطورية فعين قيصرين ليساعده وزميله فى إدارة شئون الإمبراطورية وحكمها . ولقد وقع اختياره على كل من جاليريوس وقنسطانطيوس لهذا الغرض ، وتبنى دقلديانوس الأول بينما تبنى ماكسيميان الثانى . وبعد أن أجبر الأغسطسان هذين القيصرين على تطلق زوجتهما زوجاهما من ابنتين لهما^(١)

(١) See Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, "Reign of Diocletian".

اقتسم هؤلاء الأربعة حكم الإمبراطورية : فعهد إلى قنسطانطيوس بغالة وإسبانيا وبريطانيا ، أما جاليريوس فكانت عليه حراسة الدانوب وإليريا ، في حين أن ماكسيديان قد احتفظ بإيطاليا وإفريقيا ، وانفرد دقلديانوس — وهو سيد الثلاثة — بتراقيا ومصر والولايات الآسيوية ، وكان كل من الأربعة مستقلاً في شئون ولايته ، وله تشريعاته الخاصة ، ولكنهم تعهدوا بتقديم العون واحدكم للآخر حفاظاً على مصالح الإمبراطورية . ولقد نجح ماكسيديان في إخضاع ثورة قام بها الفلاحون في غالة ، في حين وفق قنسطانطيوس في التخلص من كاراوازيوس والمتمردين في بريطانيا ، وأدى جاليريوس مهمته في الدانوب على خير وجه . أما دقلديانوس فقد قمع الثورة التي اندلعت في مصر ، وساعد صديقاً له هو تريداتيس في الحصول على عرش أرمينيا ثم عقد صلحاً مع فارس لمدة أربعين عاماً .

لقد أثار موقف دقلديانوس من المسيحية جدلاً كبيراً ، ولهذا يحسن بنا أن نستعرض موقف الإمبراطورية الرومانية من هذا الدين الجديد حتى قدر له الانتصار على الوثنية .

كانت بساطة الجداعة المسيحية الأولى — كما سبق أن ذكرنا — مدعاة لأن تنظر إليهم السلطات الرومانية بعين الاحتقار . وفي السنة العاشرة من حكم الإمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) حل بروما حريق مدمر أتى على خير ما فيها من قصور ومعابد وتماثيل ، ولم يسلم من ألسنة النار سوى أربعة من أحياء العاصمة الأربعة عشر . وأشارت أصابع الاتهام إلى الإمبراطور نفسه : فهو كان بالأمس قد ذبح زوجه وأمه واليوم يحرق روما لتلهمه شياطين الشر فيغني ملحمة خراب طروادة . ولكي يبرئ نيرون نفسه اتهم المسيحيين بتدبير هذا الحريق .

ويقول المؤرخ المعاصر تاكيتوس Tacitus أن نيرون بعد أن تدبر الأمر أشاع بأن « الجماعة المعروفة باسمها السوقى » المسيحيين « السيئة السيرة هم الذين دبروا هذا الحريق . وهؤلاء يحملون اسمهم نسبة إلى المسيح الذي حكم عليه بنطس بيلاط بالموت على عهد طيبريوس (١٤ — ٣٧) . وهذه الشعوذة (العقيدة) التي قمعت ما لبثت أن ظهرت من جديد ، ولم يقتصر أمرها على مملكة يهوذا فحسب وإنما وصلت إلى روما ، الملجأ الكبير لكل خبث متطاير . وقد تم

القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين وعند استجوابهم اكتشف أن لهم شركاء كثيرين في جريمتهم وفي عقيدتهم . وحكم عليهم جميعاً بالإعدام لا لأنهم أشعلوا النيران في العاصمة فحسب وإنما بسبب كراهيتهم للجنس البشرى ، ولقد قتلوا بطرق مختلفة : فبعضهم سمر على صليبان خشبية ، وآخرون ثبتوا (بالحياكة) على ظهور حيوانات مفترسة وتركوا نهياً للكلاب المسعورة ، وجماعة ثالثة منهم طليت أجسادهم بمواد ملتهبة وأشعلت فيهم النار ليكونوا شعلات تضيء في ظلام الليل . وقد أقيم هذا المهرجان في حدائق القصر ، وسط مباريات لسباق الخيل وقد شارك الإمبراطور في الألعاب وارتدى لباس سائقي عجلات السباق . إن جرم المسيحيين كان حقيقة بأن يقابل بعقاب صارم ، ولكن الناس كانوا في ضجر شديد لأن العقاب الذي أنزل بهؤلاء التعساء لم يكن جزاء لهم على جرمهم ضد الشعب الروماني وإنما حل بهم ما حل إرضاء لشهوة الدم عند هذا الحاكم المستبد (٢) .

وإذا وصلنا إلى عهد دقلديانوس نجد أنه هو ذاتياً لم يكن ليروقه كلام الفلاسفة ولا الفكر اللاهوتي الذي راحت الكنيسة تفرق نفسها فيه ، ولكنه كان يبجل الآلهة الرومانية القديمة ، وعلى النقيض من هذا الموقف كانت زوجه بريسكا

(٢) Tacitus, Annales, XLIV : "Ergo, abolendo rumori, Nero subdidit reos et quaesitissimis poenis affecit, quos, per flagitia invisos, Vulgus Christianos appellabat. Auctor nominis ejus Christus, Tiberio imperitante, per procuratorem Pontium Pilatum supplicio affectus erat; repressaque in praesens exitiabilis superstitio rursum erumpebat, non modo per Judaeam, originem ejus mali, sed per Urbem etiam, quo cuncta undique atrocitas aut pudenda confluunt celebranturque. Igitur primum correpti qui fatebantur, deinde indicio eorum multitudo ingens haud perinde in crimine incendii quam odio humani generis convicti sunt. Et pereuntibus addita ludibria, ut ferarum tergis contecti, laniatu canum interirent, aut crucibus affixi, aut flammandi, atque ubi defecisset dies, in usum nocturni luminis urerentur. Hortos suos ei spectaculo Nero obtulerat, et circense ludicrum cedeat, habitu aurigae permixtus plebi vel curriculo insistens. Unde, quanquam adversus fontes et novissima exempla meritos, misratio oriebatur, tanquam non utilitate publica, sed in saevitiam unius absumerentur".

وابنته فاليريا قد أبديتا إعجاباً بالديانة المسيحية . ويرى إدوارد جيبون^(٣) في هذا الاهتمام بالمسيحية من جانب الإمبراطورة والأميرة مجرد تعبير عن الغريزة الدفينة عند المرأة في حب الاستطلاع والاهتمام بكل ما هو جديد ، كما يعزوه أيضاً إلى الفراغ الذي كانتا تعيشان فيه ، كذلك اعتنق المسيحية عدد من نخصيان القصر من بينهم أوسيان ودوروثيوس وجورجونيووس وأندروس ، وقد حذا حذوهم بعض موظفي القصر .

كان هذا التقدم الذي أحرزته المسيحية سبباً في إثارة حقد الوثنيين عليها ، وقد رأى جاليريوس وماكسيميان - وهما لا يعترفان إلا بقوة السيف التي دفعت كليهما إلى المجد - أن مسلك المسيحيين يستوجب القصاص : فهناك قصة الشاب الأفريقي ماكسميليانوس الذي رفض في عناد زائد دخول الجيش لتأدية الخدمة الإجبارية . وأعلن أمام قضاة المحكمة أن إيمانه بالمسيح لا يسمح له بحمل السلاح . وأمام هذا الموقف نفذ فيه حكم الإعدام على الفور . وسرت هذه الروح في صفوف الجيش الروماني ، فهاهوذا ضابط مرموق اسمه مارسيللوس يصبح أمام جنده أنه لن يطيع بعد اليوم أمراً إلا ليسوع المسيح ، ولذا راح يلقي بسلاحه ومنطقته على الأرض وهو يتناول الإمبراطور بالسباب على أنه سيد على أوذان ، وعلى الفور حوكم مارسيللوس وقطعت رأسه .

بعد النصر الكبير الذي حققه جاليريوس في الحرب مع فارس ، أمضى فصل الشتاء مع دقلديانوس في قصره الذي أقامه في نيقوميديا ، وتدارس الاثنان المسألة المسيحية في سرية تامة . ولقد كان من رأى دقلديانوس عدم اللجوء إلى العنف مع المسيحيين ، ولكن جاليريوس استسمحه في عقد مجلس يضم كبار رجالات الدولة العسكريين والمدنيين لمناقشة الأمر بالتفصيل . وخرج المؤتمرون متفقين على أن المسيحية باتت تهدد أمن وسلام الإمبراطورية وقيصرها الأكبر . وأعلن الأباطرة الأربعة قرارهم بأنهم سيتخذون من الخطوات ما يكفل لهم القضاء على الكنيسة لأنها باتت تمثل الخطر الأكبر على الإمبراطورية . وفي فجر اليوم التالي زحف

الحاكم البراثوري لنيقوميديا هو وترابنته وضباطه قبالة كنيسة نيقوميديا : ثم حطموا أبوابها وأضرموا النار في كتبها المقدسة . وفي نفس الوقت تسليح رجال دقلديانوس بكامل سلاحهم ثم انقضوا على كنيسة كانت قد بنيت في القصر الإمبراطوري ودمروها تماماً . بعد هذا أذيع ونشر القرار الرسمى بالاضطهاد : إن كل من برفض تقديم الأضحيات للآلهة الوثنية سيحرق حيًّا ، وأن كل الكنائس في مختلف الولايات سوف تسوى بالأرض . وأن من يشارك في اجتماعات سرية بغرض العبادة ينفذ فيه حكم الموت . وقد تضمن هذا المرسوم أيضاً قراراً بإحراق جميع الكتب المسيحية المقدسة ومصادرة أملاك الكنائس . وما إن رفع أحد هذه القرارات على الجدران في مدينة نيقوميديا حتى تناولته يد واحد من المسيحيين . وقام بتمزيقه . قبض على هذا المسيحي ، وتمنن الجلادون في وسيلة لتعذيبه فقاموا بإحراق جسده عضواً عضواً حتى الموت .

وقد حدث أن اشتعلت النيران مرتين في داخل القصر الإمبراطوري في نيقوميديا في مدة لم تتجاوز الأسبوعين . وقد فزع دقلديانوس لأن واحدة من هذه الحرائق ألهمت حجرة نومه ، وكان من الطبيعي أن يرتاب الإمبراطور في المسيحيين ، وقيل وقتها أنهم كانوا يدبرون لحرقه هو وجاليريوس في ليلة واحدة . ولقد ألقت السلطات القبض على كثيرين ممن دارت حولهم الشبهات وسلموا للجلادين لإعدامهم . على أن الذي حير دقلديانوس تلك الشجاعة التي قابل بها « الشهداء » مصيرهم : فقد قيل إن الضحايا كانوا يبتسمون والنار تشتعل في أجسادهم ، والحق أن جاليريوس ، وهو المحرك الأول للاضطهاد ، قد خشي على حياته واضطر إلى مغادرة نيقوميديا . ويبالغ كتاب الكنيسة المعاصرون في الأمر فيزعم بعضهم بأن جاليريوس هو الذي دبر حرائق القصر ليثير كراهية دقلديانوس ضد المسيحيين ، ومن قائل آخر بأن هذه الحرائق كانت نارا إلهية انقضت من السماء على القصر لثرب عدو الله . على أنه يجب أن نضع في اعتبارنا أن عدداً وافراً من عبيد القصر وخصيانه كانوا على المسيحية ، وأغلب الظن أن هؤلاء قد ساهموا في إضرام الحريق .

ولقد اتبع دقلديانوس مرسومه هذا بقرارات أخرى تحدد عقوبات صارمة على

من يتستر على المسيحيين ويخفيهم من غضب الآلهة والقيصر ، وهلاك الكثيرون من المسيحيين : ولا شك في أن موجة الاضطهاد كانت قاسية ، ولكن الأرقام التي وردت في حوليات كتاب الكنيسة مبالغ فيها ويجب أن نتناولها بالحذر .
هذا ولقد اعتبر العام الذي جلس فيه دقلديانوس على العرش وهو عام ٢٨٤ عام الشهداء .

وفي سنة ٣٠٠ اعتزل كل من دقلديانوس وماكسيميان الحكم بمحض إرادتهما ، وبقي في السلطة كل من جاليريوس وقنسطانطيوس .

كان قنسطانطيوس لا يقر سياسة العنف مع رعاياه ، والمعروف أن غالبية رجال قصره كانوا من المسيحيين . وكان يحبهم ويقدر فيهم وفاءهم ، وبرغم أنه قد اضطر إلى تنفيذ أوامر دقلديانوس بهدم الكنائس ، إلا أنه قام بحماية المسيحيين من إيذاء غوغاء المدن ، ولما أن رقي قنسطانطيوس إلى شرف الأغسطسية في سنة ٣٠٥ بالاشتراك مع جاليريوس ، تمكن من التحرك من مركز القوة لتخفيف وطأة الآلام عن الرعايا المسيحيين داخل ولاياته ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، وقد ترك لابنه قنسطنتين من بعده لينفذ سياسة التسامح مع الرعايا المسيحيين لافي الولايات الغربية فقط وإنما في الإمبراطورية جميعاً .

أما جاليريوس فتمد صار أقوى الأباطرة بعد اعتزال دقلديانوس وماكسيميان الحكم . وقد امتد حكم جاليريوس من ٣٠٥ إلى ٣١١ ، وأشرك معه في الحكم كلا من قنسطانطيوس كلوروس ، ثم سيفيروس الثاني ، ثم ليسينيوس ، ثم قنسطنتين الأول ، ثم ماكسيمين دازا على التوالي . وعلى هذا ففي عام ٣٠٩ كان هناك ستة أباطرة يحكمون الإمبراطورية الرومانية معاً .

ولقد استبد جاليريوس برعاياه المسيحيين في النصف الشرقي من الإمبراطورية في تراقيا وآسيا وسوريا ومصر . واستمرت موجة الاضطهاد في قسوة بالغة حتى عام ٣١١ ، ولم تفلح القسوة الزائدة في القضاء على المسيحية ، واكتشف جاليريوس أن سياسته قد أتت بعكس ما كان يرجوه منها : لقد ازدادت الجماعة المسيحية صلابة وإيماناً ، ولم تعد النار تخيفهم . وفي عام ٣١١ ، وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت ، تراجع جاليريوس في موقفه فأصدر مرسومه الشهير يعلن

فيه تسامحه مع الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية . على الوجه الآتي :

« إن من بين المهام التي تشغل بالنا ونحن نعمل للحفاظ على سلام وقوة الإمبراطورية اهتمامنا بتقويم سائر الأمور وإعادة بنائها وفقاً للقوانين القديمة والنظم الرومانية المتعارف عليها . لقد كنا على وجه الخصوص شديدي الرغبة في إرجاع المسيحيين إلى مناحي العقل والصواب بعد أن أنكروا دين الآباء وأعيادهم ، وراحوا يحتقرون التقاليد بعد أن اخترعوا لأنفسهم قوانين متطرفة ومعتقدات وهمية وكونوا لهم رابطة في مختلف ولايات الإمبراطورية . ولما كانت تلك المراسيم التي كنا قد أصدرناها سلفاً من أجل مراعاة عبادة الآلهة قد تسببت في تعريض الكثيرين من المسيحيين إلى الخطر والمعاناة . ولما كانت أعداد وفيرة منهم ما زالت تمضي في طريقها ، فإننا نرغب في أن نمد لهُؤلاء التعساء رحمة من لدينا : فنحن نأذن لهم بالمجاهرة بمعتقداتهم الخاصة وبأن يمارسوا طقوسهم الدينية في جمعياتهم دون خوف من أن يتعرضوا للأذى . طالما أنهم يظهرون الاهتمام الواجب للقانون والحكومة . وإنا سنتبع هذا بقرار آخر يوضح سياستنا هذه للقضاة ورجال العدالة وإنا لنأمل أن قرارنا هذا بالعفو والتسامح للمسيحيين سوف يدعوهم إلى الابتهاال للمعبود الذي يقدسوته لكي يمن على شخصنا بالسلامة وعليهم وعلى الجمهورية جميعاً بالرخاء والسعادة^(٤) .

وكان جاليريوس قد حاول عزل الشاب قنسطنطين عن والده ولكنه لم يفلح في هذا ، ولحق الابن بأبيه في بريطانيا . وعند وفاة قنسطانطيوس في عام ٣٠٦ في مدينة يورك هتف الجنود بابنه قنسطنطين أغسطساً خلفاً لأبيه . وفي نفس الوقت نجح ماكسنتيوس وهو ابن الإمبراطور المعتزل ماكسيميان في إشعال ثورة في روما ، ثم سيطر على كل من إيطاليا وأفريقيا . وقد ظهر على مسرح السياسة من جديد العجوز ماكسيميان ليؤيد ثورة ابنه ماكسنتيوس ، بل واتخذ الآن لقب إمبراطور من جديد .

ثم قامت الحرب الأهلية التي هلك فيها ماكسيميان . وبعد ذلك عقد

قنسطنطين تحالفا مع الأغسطس الجديد ليسينيوس ، وأوقع الحليفان هزيمة نكراء
بخصمهما ماكسنتيوس عند قنطرة ملقى Milvian Bridge قرب مدينة روما ،
ومات ماكسنتيوس غرقاً في نهر التيبر وذلك في عام ٣١٢ .

تقابل الحليفان المنتصران بعد ذلك في مدينة ميلان حيث أصدرتا تلك الرسالة
الشهيرة إلى حاكم آسيا الصغرى والتي عرفت خطأ باسم « مرسوم ميلان » (في عام ٣١٣) .
على أن التفاهم بين الحليفين لم يدم طويلاً ، فقد قامت الحرب بينهما ولم ينته
الصراع إلا في عام ٣٢٤ عندما مات ليسينيوس وصار قنسطنطين السيد الأوحده
للإمبراطورية الرومانية .

وعلاقة قنسطنطين العظيم مع المسيحية مسألة معقدة ، لم يتفق في تفسيرها
اثنان من المؤرخين برغم الأبحاث الكثيرة التي قام بها الدارسون^(٥) .

والسؤال المحير هو : لماذا وقف قنسطنطين وهو القائد الأول الذي انتصر على
كل أعدائه إلى جانب المسيحية ؟ هل كان هذا حلاً سياسياً يحقق به الإمبراطور
وحدة إمبراطوريته بعد القلاقل التي مزقتها على عصر الاضطهاد ؟ أم هل كان
قنسطنطين يؤمن حقيقة بالدين الجديد ؟ والصعوبة التي أمامنا هي ذلك التضارب
والتناقض في النصوص التاريخية المعاصرة : فعندما نقرأ كتابات يوسبيوس أسقف
قيسارية نجد صورة لقنسطنطين تختلف تماماً عن الصورة التي رسمها له الكاتب
الوثني زوزيموس .

أما عن المؤرخين المحدثين فقد تأثروا مدة طويلة بالنظرية التي قدمها المؤرخ
Jacob Burckhardt ، والتي أوضح فيها أن قنسطنطين كان رجل غايات لا مبادئ :
فهو يضحي بكل شيء في سبيل تحقيق الهدف الذي يصبو إليه ، فإن هذا
السياسي القذ كان متعطشاً للسلطان فحسب ، ورجل من هذا الطراز لا يجب علينا
عند دراسة شخصيته أن نتساءل عن مسيحيته أو وثنيته ، وإنما ينبغي أن نبحث
عن الهدف الذي من أجله ارتأى مصالحته المسيحية وكسب عطف أتباعها .
ولما كان هدف قنسطنطين الأسمى هو السلطة المطلقة على دولة متوحدة يعمها

« السلام » فيمكن القول بأن هذا الهدف كان كل شيء بالنسبة لقنسطنطين .
والرجل الذي يكون على هذه الشاكلة هو بالضرورة رجل « لا ديني » Unreligios
ومن آراء هذا المؤرخ أيضاً أن قنسطنطين قد تعاطف مع المسيحية لأنه رأى بنفاذ
بصيرته أنها ستتغلب في نهاية الأمر على الوثنية فسارع يكسب تأييد الكنيسة وبركاتهما
بدلاً من لعناتها .

ولعل أكبر نقد وجه إلى نظرية ياكوب هذه تلك الإحصاءات العلمية التي
قام بها الأستاذ V. Bolotov والتي أثبت بها أن عدد المسيحيين في الإمبراطورية
الرومانية على عهد قنسطنطين كان ضئيلاً جداً إذ أنه لم يتعد عشر تعداد السكان
وأن معتنقي هذه الديانة لم يكونوا يملكون من النفوذ ما حاول فريق المؤرخين الذين
راحوا يشككون في إيمان قنسطنطين ينسبونه إليهم . ولهذا الرأي وجهته وهو يقلل
من شأن « النظرية السياسية » التي أتى بها ياكوب ؛ إذ أنه ليس من المعقول
أن يلتقي سياسي ماهر مثل قنسطنطين بكل ثقله وآماله على أقلية لم يكن تعدادها
يربو على عشر سكان الإمبراطورية ، كانوا من فقراء القوم ولم يكن لهم نشاط
سياسي مرموق .

ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أنه إن كان قنسطنطين قد اعتنق المسيحية
بالفعل فهو إنما قد تقبل المعمودية في نفس العام الذي توفي فيه (٣٣٧) .
كذلك ظل قنسطنطين طوال حياته محتفظاً بلقبه الوثني فهو الكاهن الأعظم
Pontifex Maximus ، ولم يكن ليشير إلى يوم الأحد - وهو يوم الرب عند
المسيحيين - إلا على أنه يوم إله الشمس الذي لا يقهر Sol invictus الذي لم
يكن في الواقع سوى الإله ميثرا Mithras الفارسي وهو أبوللو في ثوبه الروماني .

كان طبيعياً أن يربط كتاب الكنيسة حياة قنسطنطين بالمسيحية ، وهنا اختلطت ،
الوقائع التاريخية بالروايات الأسطورية الطابع : فيوسبيوس أسقف قيسارية اعتبر
قنسطنطين الحواري الثالث عشر للمسيح . ولعل أشهر الروايات عن قنسطنطين
والمسيحية تلك التي تقول إن الإمبراطور قد شاهد علامة الصليب تظهر في أفق
السماء أثناء حربه ضد عدوه ماكسنتيوس ، وأنه بهذه العلامة التي آمن بها
قد انتصر .

وأقدم نص لهذه الرواية هو ما جاء في كتاب لاكتانتيوس المعنون *De mortibus persecutorum* ، ولكن هذا الكاتب لم يذكر شيئاً عن هذه الرؤيا وإنما أوضح أن الإمبراطور كان قد تلقى نصيحاً - في منامه - بأن يرسم علامة الصليب على دروع الحرب التي كان رجاله سيقاتلون بها العدو^(٦) . أما قصة الرؤيا السماوية فقد وردت في كتاب بعنوان « حياة قنسطنطين » ينسب عادة إلى يوسبيوس أسقف قيسارية^(٧) . ومؤدى الرواية أن الإمبراطور قد أقسم لصاحبه بأنه قد شاهد بعينه صليباً مضيئاً فوق قرص الشمس وقد كتب من حوله هذه العبارة « بهذا ستنتصر » *(In hoc signo vinces)* Touto nika . وفي الليلة التالية - حسب الرواية ظهر المسيح لقنسطنطين في المنام يحمل نفس العلامة ويأمره بأن يصورها علماً له ويسير بها ضد عدوه فيسحقه . وفي صبيحة اليوم التالي قص الإمبراطور هذا الحلم على أتباعه ، ثم طاب من ضباطه أن تصنع حربة طويلة على هيئة الصليب تتدلى من قممها قطعة من الحرير مزينة بالذهب والأحجار الكريمة وتحمل صور قنسطنطين وولديه ، وفي قمة الصليب إكليل يحيط بصورة المسيح وقد عرف هذا العلم القنسطنطيني باسم « لابروم » *Labarum* ومن وقتها أصبح العلم الرسمي للإمبراطورية البيزنطية .

أما عما يسمى « مرسوم ميلان » الذي صدر سنة ٣١٣ عن كل من قنسطنطين وحليفه ليسينوس ، فهو في الحقيقة ليس مرسوماً بالمعنى السليم ، وإنما هو مجرد رسالة موجهة إلى حاكم نوقيميديا في آسيا الصغرى لإبلاغه بقرار الإمبراطورين في الاعتراف بالحكمى بالديانة المسيحية جنباً إلى جنب مع الديانة الوثنية . وقد أفاض المؤرخون كثيراً في القول بأن هذا لم يكن شيئاً جديداً ، وإنما هو تجديد لمرسوم التسامح الذي كان جاليريوس قد أصدره سنة ٣١١ - الذي سبق وأن أوردناه .

ولكن من الإنصاف في القول أن تؤكد أنه بينما كان جاليريوس مذ . البداية من أشد المضطهدين للمسيحية كان قنسطنطين قد أظهر تعاطفاً معهم مذ نشأته

Lactantius, *De mortibus persecutorum*, in P.L., Vol. VII.

(٦)

Eusebius, *Vita Constantini* (Schaff's ed).

(٧)

الأولى ، ولعاه قد ورث هذا الاتجاه عن والده : كما وأن مرسوم جاليريوس لم يخل من تجريح للمسيحية واتهام صريح لأتباعها بالعناد . في حين أن مرسوم قنستنتين يفيض عاطفاً على المسيحية . ولهذا فإننا نميل إلى اعتبار مرسوم جاليريوس قراراً إمبراطورياً برفع الاضطهاد وتقرير سياسة التسامح ، في حين أن مرسوم قنستنتين يحوى أكثر من ذلك . ففيه تأكيد حكومي بالانتصار للمسيحية . على خصوصيتها . ولعل إيراد النص الكامل لمرسوم ميلان « المزعوم » يؤكد وجهة نظرنا :
 « لقد كان رأينا منذ وقت بعيد ألا تنكر الحرية الدينية على أحد ، بل كنا نهدف إلى أن نضمن لكل فرد الحق في ممارسة عقيدته التي يختارها . ولقد سبق وأصدرنا أوامراً على نحو يكفل للمسيحيين وغير المسيحيين التمتع بمعتقداتهم الدينية وعباداتهم . على أن الشروط الكثيرة التي رهنّت بها الحرية الدينية عند إصدار هذا القرار لم تمكن البعض من التمتع بالحرية الدينية كما ينبغي .

وعليه فإنه من حسن الطالع عندما وصلنا نحن قنستنتين أغسطس ونحن ليسينيوس أغسطس إلى مدينة ميلان ، ورحنا نتدارس سائر الأمور المتصلة بالصالح الرعية ونفعها ، فإنه من بين الإجراءات الأخرى التي قصد بها الصالح العام ، أو بالأحرى من المسائل الحيوية التي استوجبت الأولوية في العناية قرارنا بإرساء قواعد تؤكد وتضمن الاحترام والتبجيل للرب : بمعنى أن يعطى المسيحيون وغيرهم الحرية في العبادة التي تروقهم ، لعلنا بهذا والرعية التي نحكم عليها نحظى بفضل ومحبة القوى الربانية والسلطات السماوية الأخرى . وهذا هو القرار الذي توصلنا إليه بعد تمحيص ودراسة ، وغايتنا أن يهبنا الرب عنايته وعطفه الشاملين مثلما أعطانا من قبل .

لقد وجدنا من الضروري أن نرسل مرسوماً يوضح هذا القرار إليكم^(٨) حتى نؤكد لكم فيه أمرنا بإلغاء ما ورد من شروط في المرسوم السابق^(٩) بخصوص المسيحيين . هذا وعليكم مراعاة إلغاء كل التحفظات السابقة التي لم يكن لها من مبرر والتي لا تتفق وروحنا الممتئة بالرحمة . والآن فإنه يتحتم أن يتمكن كل واحد

(٨) الكلام موجه إلى حاكم نيقوميديا .

(٩) مرسوم جاليريوس .

فرد له الرغبة في اتباع تعاليم المسيحية وطقوسها من ممارسة هذا الحق كاملاً ، دون تدخل يعوقه من تحقيق مراده هذا . كل هذه الأمور نحن نبسطها أمامكم لتتصروا تماماً ، ولكي يتأكد لكم بصفة حاسمة أننا قد منحنا المسيحيين سابقى الذكر ترخيصاً مطلقاً في أن يمارسوا عاداتهم في حرية تامة . ولا ينجني على فخامتكم أننا بمنحنا هذا الحق على إطلاقه فإننا نسمح لمن يشاء من الرعية أن يمارس نوع العبادة التي يرتضيها لنفسه ، وهذا حق خلاق بسمات عهدنا الميمون الذي يسود فيه الاطمئنان . ولا يعنى هذا أننا نقلل من شأن أية طقوس أخرى وعبادات أخرى . وبالنسبة للمسيحيين فإننا نضيف القرار الآتى :

كنا قد حددنا في الرسالة السابقة^(١٠) إليكم تعليمات خاصة فيما يتصل بأماكن العبادة المسيحية والتي اعتادوا على الاجتماع فيها ، والآن فإننا نقرر أنه إذا اتضح أن أحداً ما قد اشترى أماكن العبادة^(١١) هذه في شكل أو آخر بمال دفع من خزائنها أو من مصدر آخر ، فإن عليه المبادرة بإرجاع هذه الكنائس إلى المسيحيين دون أن يتقاضى مالا عنها ودون أن يطالب بأية تعويضات . وهذا أمر لا نريد فيه إهمالاً ولا إهمالاً . وإن كان أحد ما قد حصل على كنيسة من هذه الكنائس بصفة الهدية أو الهبة فعليه إرجاعها إلى المسيحيين دون تباطؤ . وإن رغب هؤلاء النفر من الناس المطالبة بتعويض فعليهم أن يلتبسوا هذا من أبواب بكرمنا الإمبراطورى : بأن يتقدموا بطلباتهم إلى قضاة وحكام مناطقهم ، وسرف نجزيهم بكرمنا خيراً .

وعلى فخامتكم أن تتصرفوا في همة زائدة وفورية لكي تسلم هذه الممتلكات جميعاً إلى المسيحيين دون إبطاء . ولما كانت للمسيحيين إلى جانب كنائسهم أماكن أخرى موقوفة على الجماعة المسيحية كجمعية هنا وهناك ، فإن هذه الممتلكات أيضاً يجب أن تعاد إليهم ويطبق في صددتها نفس القانون السابق ذكره ، وهذا أمر لا يحتاج إلى محاطلة أو مجادلة ، وتنسحب مسألة التعويض سالفة الذكر على هذا البند أيضاً .

(١٠) مرسوم جاليريوس .

(١١) الكنائس .

ونحن نحشكم على أن تبدلوا كل ما في وسعكم من طاقة وهمة لتنفيذ كل هذه الأوامر في أسرع وقت ممكن . حتى يتعرف الناس على كرم قراراتنا . فتتولد دعائم السلام والأمن للرعية جميعاً . ذلك لأنه على ثقل هذا القرار وبحسن نوايانا^(١٢) كانت العناية الربانية معنا دوماً ، ونأمل في أنها ستظل علينا كما كانت من قبل إلى الأبد . ولكي يصل هذا القرار إلى آذان الكل فإنه يحسن بفخامتكم نشر ما جاء فيه لينداع على الرعية ويصل إلى كل المواطنين »^(١٣) .

بمقارنة نص جاليريوس الذي صدر في سنة ٣١١ بهذا النص الذي أصدره قنسطنطين من ميلان في عام ٣١٣ يتضح لنا الفارق الكبير بين المرسومين . ولا يخفى أن قنسطنطين يهاجم جاليريوس - في مرسوم ميلان - هجوماً عنيفاً ويتنقده في مرارة بالغة بسبب الشروط القاسية التي وضعها جاليريوس عند سماحه للمسيحيين بممارسة شعائرهم ، ولهذا كان إصرار قنسطنطين في رسالته إلى حكم نيقوميديا على إلغاء كل ما ورد في مرسوم جاليريوس من شروط مجحفة .

وخلاصة القول أن قنسطنطين حتى لو كان قد ظل وثيقاً إلى آخر سني حياته ، إلا أنه قد تبني قضية المسيحية ، فكان موقفه بهذا « انتصاراً » للمسيحية لا مجرد تسامح معها ، ومن هنا فإن موقفه يختلف تماماً عما كان قد سبقه من مواقف تجاه الكنيسة : ففي هذا المرسوم علامات أكيدة تشير إلى أكثر من التعاطف مع المسيحية ، هنالك خيط دقيق يمكن أن يلتقطه آباء الكنيسة ويدخلوا به قنسطنطينهم في دائرة الإيمان الحق ، بل يجعلوا منه - مثلما فعل يوسبيوس - الرفيق الثالث عشر لصيادي السمك من جماعة الجليليين .

(١٢) تجاه المسيحيين .

Eusebius, Op. cit., X, 5, 3.

(١٣)

الفصل الثالث

بين ردة يولييانوس (٣٦١-٣٦٣)

وإعلان ثيودوسيوس المسيحية

دينًا رسميًا للإمبراطورية (٣٧٨-٣٩٥)

نهاية الوثنية

« لقد حطموا سيرايمس »

يمثل عهد يولييانوس العاصي أو جوليان المرتد آخر محاولة للوثنية في صراع الحياة أو الموت ضد المسيحية . وجوليان هو فلاثيوس كلوديرس يولييانوس ، ابن أخ غير شقيق لقسطنطين العظيم^(١) .

في عام ٣٣٧ خلف قسطنطينوس أباه قسطنطين على العرش ، وكان أريوسيًا متعصبًا كما كان كل همه . انصرفًا إلى التخلص من بقية أفراد الأسرة القسطنطينية لينفرد وحده بالحكم . وقد تم له ما أراد : إذ قتل شقيقه قسطنطين الأصغر في عام ٣٤٠ ثم شقيقه الآخر قسطنطاز في عام ٣٥٠ . ثم انقلب على بقية أفراد الأسرة فتخلص منهم جميعاً عدا جالوس ويوليان ، اللذين أبعدا عن العاصمة . ولما لم يكن لقسطنطينوس ابن يخلفه على العرش فقد خلع لقب قيصر على جالوس ولكنه سرعان ما انقلب عليه وقتله في عام ٣٥٤ . وفي سنة ٣٥٥ استدعى يوليان إلى القصر الإمبراطوري وأنعم عليه بلقب قيصر^(٢) . وزوجه من هيلينا أخته .

وقد كانت السنة خصيبان القصر والمنافقين تحاول الانتقام من قيمة يوليان ، فسخرُوا من بساطته وزيفوها إلى « خنثة » ، أما شعره الغزير فقد رأوا فيه ضرباً

(١) راجع المخطوطة بعنوان « يولييانوس العاصي » في حاشية الكتاب .

Gibbon, op. cit., "The Pagan Counter-Reformation".

(٢)

من الرحشية فشهوه « بقرد في حلة أرجوانية » ؛ وأما تضلعه في آداب اليونانية وفلسفتها الكلاسيكية فقد رأوا فيه ضرباً من الغرور وضياح الوقت ؛ مما لا يليق بقائد الفيالق الرومانية (٣) .

ولكن يولييان كان قائداً مبرزاً في ميدان الحرب ، تخشى اسمه القبائل الجرمانية : فكانت انتصاراته المتتالية على ضفتي الدانوب مدعاة لحقد الإمبراطور قنسطانطيوس عليه حقداً شديداً ؛ ذلك لأن الشعب راح يقرن اسم يولييان ببشائر النصر على البرابرة . ولما أرسل قنسطانطيوس أمراً إلى يولييان في غالة يطلب منه التحرك بجيشه إلى الجهة الفارسية ، أدرك يولييان أن الإمبراطور مقدم على التخلص منه بدافع الغيرة فحسب . وفي غالة ثار الجند ضد الجالس على عرش البسفور الأبد وأعلنوا قائدهم المظفر يولييان إمبراطوراً بدلاً منه . واستبعد الطرفان للقتال ، ولكن قنسطانطيوس توفي فجأة في عام ٣٦١ . وبذلك خضع الجيش كله ليولييان الذي اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية وهو في الثانية والثلاثين من عمره .

كان يولييان فيلسوفاً يحب البساطة ويمقت أبهة القصور وعجرفة أصحاب الصولجان . ولذا فقد عاش صوفياً : فهو بعد وجبته النباتية الخفيفة يعتزل إلى مكتبته ليتزود بحكمة اليونانية . وكان نقيماً طاهراً ؛ لم يعرف امرأة قبل زواجه ؛ وبعد أن توفيت زوجته ظل على طهره ونقاؤه . ولقد عاف يولييان حياة البدخ في القصر ، ولذا فإن هذا الرجل الذي كان يفترش الأرض طرد العاطلين من الحصيان والخدم ، واكتفى بعدد قليل جداً لقضاء ضروريات القصر . وهناك خادنة تبتين لنا سمة التقشف التي تفرد بها هذا الإمبراطور الفيلسوف : فلما أن طلب « الحلاق »

(٣) "Omnes qui plus poterant in palatio, adulandi professores jam docti, recte consulta, prospereque completa vertebant in deridiculum; talia sine modo strepentes insulae; in odium venit cum victoriis suis; capella, non homo; ut hirsutum Julianum carpentes, appellantesque loquacem talpam, et purpuratam simiam, et litterionem Graccum : et his congruentia plurima atque vernacula principi resonantes, audire haec taliaque gestienti, virtutes ejus obrucere verbis impudentibus conabantur, ut segnem incessantes et timidum et umbratilem, gestaue secus verbis comptioribus exortantem". (Ammianus Marcellinus, Res Gestae, 17, 11).

ليقص له شعره ، أتوا له بحلاق القصر ، فوجده الإمبراطور مرتدياً فاخر الثياب وكأنه أحد نبلاء السنااتو ، فدهش لهذا وصاح في وجهه ووجههم :

“Ego non rationalem jussi sed tonsorem acciri”.

وقد راح يوليان يصرح لرعيته في إحدى مؤلفاته الساخرة بأنه يفخر بطول أظافره وبخشونة يديه وبشعره الغزير الذى يغطى جسده جميعاً وكذا بلحيته الطويلة .

كان يوليان يكره المسيحية ، ولقد رأى في الجدل الذى أثاره المسيحيون وفي تكالب الأساقفة على المناصب الكنسية الرفيعة وفي مؤامرات طوائفهم الواحدة ضد الأخرى وفي صراعهم البشع حول الثالوث وطبيعة المسيح — رأى في كل هذا دليلاً على عقم المسيحية . وشجعه هذا على الارتداد عن المسيحية إلى الوثنية الآثينية التى كان يكن لها كل تبجيل منذ الثانية عشرة من عمره ، كما يعترف هو ذاته . ويصرح يوليان في هذا الصدد أنه يتذكر لحظة عماده ولكأنها « لحظة كابوس جثم على أنفاسه » .

وتتلخص عقيدة يوليان الوثنية ، التى عبر عنها في أسلوب أفلاطونى ، في أن الكائن الأعظم قد جبل في تتابع حيث آلهة وأرواحاً وأبطالاً وأبالسة ثم رجالاً ، اشتقوا جميعاً وجودهم من العلة الأولى مباشرة ، فنالوا منها ضمان الخلود . ولقد وكل الخالق إلى آلهة دونه مقاماً مهمة تشكيل أبدان الخلائق وإرساء قواعد التناغم بين ممالك الحيوان والنبات والمعادن — وكان على هؤلاء النواب الإلهيين أيضاً تدبير أحوال العالم السفلى . ومن ثم فإن حكمهم بات عرضة للتردى في الخطأ حيناً . وقد قسمت الأرض وأهلها بين هذه الآلهة الصغيرة ، كل يحكم نطاقه وفق سماته التى اختص بها . ولما كانت أرواحنا الخالدة حبيسة داخل أجساد قانية — أشبه ما تكون بالسجون — فإنه من واجبنا إن لم يكن من صالحنا ، نحن معشر البشر ، أن نستعطف الآلهة ونطلب ودها ورضاءها ، وأن نحول دون حلول غضبها علينا . وهذا لا يتأتى إلا بتقديم الأضحيات لها في معابدها . هذا ، كما وأن الآلهة كثيراً ما يطيب لها أن تحل على الأرض بأرواحها النورانية في عمق التماثيل والمعابد التى تشيد خصيصاً لها .

ولقد رأى يولييان في النظام الدقيق المتكامل للشمس والقمر والنجوم دليلاً على السرمودية وبرهاناً على يد قوة خارقة السلطان هي « الملك الأعلى القادر على كل شيء » . والشمس هي الكوكب السماوي الجدير حقاً بالعبادة ، فهو البرهان الساطع للكلمة (Logos) ، والصورة المشرقة الخيرة لرب النعم ، ومورد العقل . . . الله الآب . ولقد تلقى يولييان فلسفته هذه من منهل المعلم أيديزيوس صاحب المدرسة الأفلاطونية في برغامة . كذلك تأثر يولييان بتعاليم الفلاسفة المعاصرين كريزانشيوس ويوسبيوس وماكسيموس . وقد عمده الأخير عضواً في الديانة الوثنية وهو بعد في العشرين من عمره في مدينة أفيسوس . وفي آثينا احتضنته جماعة اليوزيس ابنائها ؛ وهناك وجه يولييان الدعة إلى كاهن تلك الجماعة الأكبر لزيارته في بلاطه في غالة .

وطبقاً لرواية صديقه المقرب ليبيانيوس الفيلسوف الأنطاكي ، تعلم أن الآلهة قد فرحت بيولييان عظيم الإيمان ، وأنه كثيراً ما كانت الآلهة تنزل من عليائها للحديث والتسامر معه ومداعبته بأيديهم ، ولتبصيره بالغيب . وقد أصبحت هذه « التجليات » أمراً مألوفاً لدى يولييان حتى صار بمقدوره أن يميز صوت جوبيتر من صوت منرفا ، وهيئة أبولو من هيئة هركيوليز .

على أن يولييان سرعان ما أدرك أن هذى الرؤى وذاك التجلى من جانب الآلهة ، إلى جانب حياة التقشف التي راح يحياها ، قد تهبط به إلى درك الزهد المسيحي الذي اعتاده أنطونيوس وباخوميوس في صحراء مصر . ولذا فإنه كان يهب من معبده ليسلح نفسه بدرع القتال لأداء واجبات الحكم ولدحر أعداء روما .

كان طبيعياً أن هلك الوثنيون فرحاً لردة يولييان إلى الوثنية ، وكان طبيعياً أيضاً أن أصيب المسيحيون بهلع شديد . وسرعان ما أصدر الإمبراطور مرسوماً بفتح المطابد الوثنية ليرتادها أصحابها . ولكنه في نفس الوقت سمح للأساقفة المسيحيين الذين كان سلفه قنسطانطيوس قد أرسل بهم إلى المنفى بالعودة إلى أوطانهم . ولم ينظر يولييان في قراره هذا إلى اختلافات هؤلاء الأساقفة الطائفية ، سواء أكانوا من الدوناتيين أو النوفاتيين أو الأريوسيين أو الماسيدونيين ، أو من أتباع مجمع نيقيا . ولقد دعا يولييان زعماء هذه الفرق المتصارعة إلى قصره ليناقشهم ، فوجدهم على صخب

وشغب كبيرين فصاح فيهم : « أليست لكم آذان تسمع ؟ أصغوا إلى قليلا . إن برابرة الفرنجة والألماني كانوا يجيدون أدب الاستماع لى » . ثم طردهم جميعاً من مجلسه . كان يوليان يجد لذة كبيرة فى مشاركة الشعب فى طقوسه الوثنية وتقديم الأضحيات للآلهة : فكان يحمل الخطب إلى داخل المعبد ويشعل النار ويمسك بالسكين ثم ينحر الأضحية ، ويغمس يديه المخضبتين بدم الأضحية فى أحشائها لينزع قلبها أو كبدها ثم يقرأ فيهما طالع الغيب على جمهور المصلين . ويقال إن عدد الأضحيات التى كان ينحرها يوليان فى اليوم الواحد بلغ مائة من الثيران ، حتى إن الفكاهة القديمة وجدت من يرددها من جديد ، وكان لسان الحال « لئن سار الحال على هذا المنوال فعلينا - معشر الثيران - وعلى مملكة البهائم السلام » .

كان يوليان بحسد المسيحية على روعة كنائسها التى شيدت فى أورشليم على عهد قنسطنطين العظيم . ولذا فقد قرر مساعدة اليهود فى إعادة بناء هيكل سليمان الذى كان الإمبراطور تيطس قد محاه من الوجود سنة ٧٠ م . وكان هذا بطبيعة الحال نكاية فى الأبهة التى تفردت بها كنيسة القيامة فى القدس . ووكّل الإمبراطور بهذه المهمة إلى وزيره البيوسى . وتبرعت اليهود بأموال طائلة لإقامة الهيكل . وفيما كان العمل يسير على قدم وساق إذ بزلزال عنيف يعصف بالعمال وجماعة اليهود المتجمعين حول الحجارة المعدة للبناء فىأتى عليهم جميعاً - وهذه الحادثة تاريخية تماماً ، اعترف بها الثقة المعاصرون من أمثال جريجورى النازيانزى ، ويوحنا خرايزوستوم (ذهبى الفم) ، والقديس أمبروز أسقف ميلان (فى رسالته إلى الإمبراطور ثيودوسيوس) ، وأهم من هؤلاء جميعاً شهادة أميانوس مارسيلينوس^(٤) .

ومنذ هذا اليوم لم يكن يوليان ليطلق سماع اسم « المسيح » وزاح يشير إلى المسيحيين بلفظة « الجليليين » ؛ إصراراً منه على عدم استخدام لفظة المسيح . وعليه فقد حرم رجال الإكليروس من الحقوق والهبات التى كان قنسطنطين وأبناؤه قد منحوها

(٤) "Cum itaque rei fortiter instaret Alypius, juvaretque provinciae rector, metuendi globi flammaram prope fundamenta crebris assaultibus erumpentes fecere locum exustis aliquetibus operantibus inaccessum; hocque modo elemento destinatus repellente, cessavit inceptum". (Ammianus, 23, 1).

للكنيسة . ثم وهب الملك المرتد كل تلك الامتيازات لكهنة معابدة الوثنية .

غير أن الضربة القاصمة التي سددتها يولييان للمسيحية كانت في ذاك المرسوم الإمبراطوري الذي حرم به على المعلمين المسيحيين تعليم العلوم اليونانية وكان هذا يتضمن بالطبع حرمان أبناء المسيحيين من التعليم لأنهم عزفوا عن دخول المدارس الوثنية . وكانت حجة يولييان في قراره هذا أنه « لا يصح للذين يعتقدون الإيمان المسيحي الساذج أن يتمتعوا بمزايا العلوم الحقة (آداب وفلسفة اليونانية الوثنية) . » ثم راح يقول بأنه « على هؤلاء الذين يرفضون عبادة آلهة هومر وديموستينيز أن يحجموا عن التكسب من تدريس روائعهما ، وأن يقنعوا بإصحاحات متى ولوقا » . وكان « المرتد » يأمل بقراره هذا حرمان المسيحية وكنيستها ورجالها من الفلسفة والفكر فيحل العقم بها ويزداد عدد الجاهل بين معلميها ، ومن ثم تندثر كلية من الوجود . وقد أتبع يولييان قراره هذا بفصل المسيحيين من المناصب العليا في الحكومة والجيش . وكانت حجته في ذلك أنه وفقاً لتعاليم الأناجيل لا يحسن لمسيحي أن يحمل سيفاً .

وقد اغتتم الوثنيون الفرصة التي أتاحها لهم سيدهم ، فراحوا ينتقمون من المسيحيين الذين كانوا في عهود سابقة قد حطموا المعابد الوثنية . فتعرض مرقص أسقف أريثوزا لعذاب شديد : إذ جلدوه بالسياط ونزعوا شعر لحيته ثم خلعوا عنه ثيابه وطلوه عسلاً ثم علقوه في شبكة بين السماء والأرض ؛ نهياً للدغات الذباب والحشرات ، في صيف الشام القاطظ .

كذلك شهدت أنطاكية صداماً خطيراً بين يولييان والمسيحية . فعلى بعد من المدينة بخمسة أميال كان السلوقيون قد شيدوا معبداً لأبوللو في قرية دافني ، وأقاموا تمثالا ضخماً لإله الضوء ازدان بالآلى والذهب . وكان الإله أبوللو يمثل منحنيًا بعض الشيء ، وفي يده كأس تنساب إلى الأرض ، ولكأنه يتوسل إلى الأرض الأم أن تضم إلى صدره دافني الحلوة الرطبة لتخفف عنه حدة اللهب المنبثق من عمقه . وقد صار لدافني وحي معبدها شهرة ذائعة حاكت تلك الشهرة التي اقترنت بوحي دلفي : كذلك ألحق بالمعبد أستاذ شاسع لممارسة الألعاب الأولمبية : وأمست دافني بمروجها الخضر وجدائها الرقراقة المنسابة من قمم التلال المجاورة نزهة المشتاق ومقصد الآلاف من الحجاج كل عام . وعرفت دافني صنوفاً من الحب واللوانا

من الغرام حتى صارت تعرف بجنة العشق والمجون ، حتى إن أحد الأباطرة الرومان اضطر إلى أن يطرد من الجيش كل جندي زار دافني هذه .

ولما آل العرش إلى يوليان قام بزيارة لمعبد دافني ليقدم الأضحيات لأبوللو . وهاله أن يجد الحال وقد تبدلت : فلم يلق داخل المعبد سوى كاهنه ، ولم يجد من الأضحيات غير أوزة واحدة اشتراها الكاهن ببيع دراهم من جيبه . أما المذبح فقد بات مهجوراً ، وقد صم الوصى ، كما أن « الجليليين » قد دنسوا فناء المعبد برفات بابيلاس أسقف أنطاكية وبإقامة كنيسة فوق هذه الرفات . وفي الحال أمر يوليان بتطهير دافني من « رجس النصارى » بنقل جثمان بابيلاس إلى ما وراء أسوار أنطاكية . ولكن المسيحيين هبوا جميعاً يعانقون رفات القديس في أكفانها ودوت الحناجر ملء الفضاء بالألحان الكنسية والمزامير ، في تحد صارخ لمملكة الأوثان وسيدها يوليان . وعندما حل المساء إذ بنار ضارية تلتهم دافني ومعبدتها . وغلف الدخان إله الشمس فأنت السنة النار عليه . وغدا المسيحيون يذيعون أن لعنة القديس بابيلاس قد انصبت حمماً على بيت الكفر في دافني . ولكن يوليان أيقن أن النصارى قد أحرقوا المعبد بفعل مكرهم ، فجن جنونه واضطهد أهل أنطاكية في قسوة بالغة فقطعت رأس القس ثيودوريت ، وأغلقت أبواب كاتدرائية أنطاكية ، كما صودرت أملاكها جميعاً^(٥) .

هذا وقد قاسى مسيحيو غزة وعسقلان وقيسارية اضطهاداً شديداً على يد رجال يوليان : فقد أقدم هؤلاء على سحل الأساقفة ، وبقر بطون العذارى ، وحشو أمعاء الضحايا العديدين بالشعير ليقدم وجبة دنسة لخنازير المدينة . بل بلغ الحد أحياناً إلى أن شرب جنود الوثنية دم أكباد الشهداء وقلوبهم ، كما يتحدثنا عن ذلك تفصيلاً - وفي صدق - جريجورى النازيانزى وفيلوستورجىوس وسوزومين .

كذلك كانت مصر مسرحاً لهذا الاضطهاد الدموى الذى ألقت به السلطات الوثنية في ثقل على النصارى . ذلك أن جورج الكبادوكى الآريوسى المذهب كان قد تمكن

(٥) "Quo tam atroci casu repente consumpto, ad id usque imperatoris ira provexit; ut quaestiones agitare juberet solito acriorcs, et majorem ecclesiam Antiochiae claudi."

في عهد الإمبراطور قنسطانطيوس من أن يجلس على كرسي الإسكندرية بدلا من مار أثناسيوس المصري بطل الأرثوذكسية . وكان جورج إلى جانب تعصبه الشديد لتعاليم آريوس يضممر عداوة بالغة للوثنية وجماعات التجار الأثرياء الوثنيين في الإسكندرية . ولقد أعلن غداة تربيعة على عرش البطركية الإسكندرية : « حتى متى نسمح لبيوت الأصنام أن تقف بين ظهرانيا ؟ » ولذا فقد اضطهد وثني الإسكندرية اضطهاداً مريعاً . على أنه بمجيء يوليان إلى العرش انتهى عهد جورج الكبادوكي . فقد ألقت السلطات الإمبراطورية القبض عليه وعلى اثنين من مساعديه هما ديودوروس ودراكونتيوس . ثم كبلهم الجند بالأغلال وزجوا بهم إلى السجن . وسرعان ما هجم غوغاء المدينة من الوثنيين على السجن واقتحموه وقتلوا جورج وصاحبيه . ثم جروا أجسادهم وعرضوها في شوارع المدينة محمولة في مهانة بالغة على ظهر جمل . وبعدها ألقوا بتلك الجثث إلى قاع اليم .

ومع أن جورج كان أريوسياً ، وبرغم أن حزب مار أثناسيوس كان كارهاً له تماماً إلا أن المسيحية جمعاء ، أريوسية وأثناسيوسية ، راحت تهلك لجورج الكبادوكي وقدمت له إكليل الشهداء . وفي سيرة جورج هذه وجد البعض نبأ استقوا منه إحدى الأساطير لشخص مار جرجس أو سان جورج الدائع الصيت .

وفي الوقت نفسه الذي كانت الإسكندرية تشهد إبانة هذا الاضطهاد اليولياني ، أصدر المرتد أوامره بضرب الأريوسية في الرها : فصودرت أملاك كنائسها ووزعت أموالها وكنوزها على الجند . وعندها أعلن الإمبراطور في سخرية لاذعة : « إني بهذا أبرهن للجليليين على إخلاصى لهم ! أو ألم توص أناجيلهم بترك مال العالم وبالتطلع إلى ملكوت السموات . إني بتجريدى لهم من أملاككم أخفف عنهم أحمالهم الدنيوية وأزودهم بسلاح الفقراء والمحتاجين . احترسوا - أيها الجليليون - فإني لضارب بيد من النار والحديد على كل شغب تنسجونيه » .

وبعد انتهاء الثورة في الإسكندرية صار عرش بطركية الإسكندرية خالياً بسبب مقتل جورج الكبادوكي . فالتف الشعب حول مار أثناسيوس وأجلسوه على كرسي القديس مرقس الرسول . ولكن يوليان كان شديد الكراهية والحقد لأثناسيوس . فراح يقول بأنه قد دهش للغاية لأن مجرمًا أثيمًا - هو أثناسيوس - قد تجرأ برغم

إدائته السابقة عدة مرات على أن يجلس نفسه على كرسى الإسكندرية في تحد صارخ لقوانيننا الإمبراطورية وإرادتنا السنية . ولذا أرسل إلى أكديوس حاكم الإسكندرية أمراً بنفى أثاناسيوس . ولكن أكديوس كان يعلم أنه ليس بوسعه تنفيذ أمر يوليان هذا ؛ لأن شعب مصر عن بكرة أبيه قد التفوا حول أثاناسيوس لا كزعيم روجي فحسب وإنما باعتباره رمزاً حياً بطولياً للتحديات المصرية ضد حكومة بيزنطة المستبدة ومليكيها العاصي . وكان تراخي أكديوس هذا مدعاة لغضب الإمبراطور ، فكتب له يقول : « نحن وإن كنا قد نغفر لك إهمالك في الكتابة إلينا عن بعض الأمور في الاسكندرية ، فإننا لن نغفر لك صمتك وتكاسلك في أمر أثاناسيوس عدو الآلهة الألد . وإني ، قسماً بالإله سيرابس المعظم ، أعلمك بأنه ما لم يتم نفي أثاناسيوس عن الاسكندرية في غضون شهر ديسمبر ، فإننا لفارضون غرامة مائة جنيده من الذهب على كل مسئول في حكم ولاية الإسكندرية ... وأنتم على علم بالمدي الذي يدفعني إليه الغضب : فلئن كنت ممهلاً في الدينونة فإني لن أتهاون في العقاب » . ثم أتبع الإمبراطور رسالته هذه بخطاب مكتوب بخط يده ، قال فيه لإكديوس : « إن الإزدراء الذي تلقاه الآلهة في الإسكندرية من جانب أثاناسيوس ليملائي غيظاً وحزناً . إن قلبي لن يقر له قرار حتى أعلم بطرد أثاناسيوس من الإسكندرية — هذا الوغد اللعين . لكم يحز في نفسنا أن نعلم أنه في عهد حكومتنا يقوم أثاناسيوس هذا بعماد فضليات السيدات اليونانيات »^(٦) .

أمام هذا اضطر أثاناسيوس إلى الهروب إلى صحراء مصر حيث ظلله آباء الصحراء بالحماية من « فمخاخ الشيطان » ومكر يوليان ، الذي كان يعلن مهدداً بأن « سم المدرسة الجليلية قد تنخر في شخص أثاناسيوس » .

غير أن مسيحي الولايات الشرقية فابلوا اضطهادات يوليان بعناد وتحد شديدتين : ففي بسينوس قام الأهلون من النصارى بهدم مذبح الإله سيبيل على مرأى من يوليان ذاته . وفي قيصرية دمر معبد فورتينا حتى لم يبق فيه حجر على حجر . وقامت المظاهرات الصاخبة في أغلب الولايات ضد سياسة يوليان التعسفية الوثنية ، وواح

“Ton miaron, os etolmesen Hellenidas, ep emou, nunaikas ton episemon

(٦)

baptisai diokesthai.”

الأهلون يكيلون له الاتهامات على أساس وعلى غير أساس ، فزعموا أنه بعد أن ينتهى من حملته الحربية ضد فارس سوف يغرق الإمبراطورية بدم المسيحيين . ولذا فإن صلواتهم باتت تدوى فى قباب الكاتدرائيات والكنائس ، تنذر عتق يوليان العاصى أضحية للرب فى الأعلى .

فى تلك المرحلة كتب يوليان رواية بعنوان « القياصرة » فى أسلوب يفيض روعة وسخرية . فى هذه الرواية نجد أن روميلوس قد أقام وليمة لأحبائه من آلهة الأولب ، ودعى إليها أيضاً حكام روما الذين خافوه تبعاً . وجلس الخالدون فى نظام على عروشهم السمائية ، فى حين أن مائدة القياصرة قد بسطت تحت القمر . أما الطغاة ، الذين كانت زميرتهم تثير اشمئزاز الآلهة والبشر ، فقد ألقى بهم إلى نيميسيز ليقبعوا فى الهاوية . بعد هذا تقدم القياصرة كل إلى مقعده المعد له . وفيما هم يتقدمون إلى أماكنهم كان سيلينيوس العجوز — ذاك الأخلاقى الضاحك الشبل — يرصد على كل سوءاته وذنائبه . وبعد انتهاء الوليمة انطلق صوت ميركورى ليعلن إرادة جوبيتر فى عقد تحكيم بين القياصرة لاختيار سيد المكرمات من بينهم ليمنح من الآلهة تاجاً سماوياً . ونوديت أسماء يوليوس قيصر وأغسطس وتراجان وماركوس أنطونينوس ، ولم يحرم قنسطنتين « الخنثى » من شرف الترشيح لهذه الجائزة العلوية ؛ كما دعى الإسكندر ذو القرنين ليشترك السادة الرومان فى مسابقة الخلود هاتيك . وسمحت الآلهة أكل من هؤلاء القياصرة بأن يعدد مكرماته . فتحدثوا تبعاً وراح كل منهم يعدد انتصاراته الرائعة وكانت كلماتهم ترن فخاراً وبطولة . غير أن مجمع الآلهة كان متنعضاً ، إذ رأوا فى صمت ماركوس أنطونينوس « وتأملاته » حكمة تضاءلت أمامها بلاغة القياصرة جميعاً وأمجادهم العسكرية . ولما حان الوقت للقضاة من الآلهة ليعلموا قرارهم كان الإكليل السماوى من نصيب ماركوس أنطونينوس الإمبراطور الفياسوف الرواقى . وهنا فاق إسكندر وقيصر وأغسطس وتراجان وقنسطنتين من غفلة الحجب الحربى ، واعترفوا فى خجل زائد بأن السلطان والشهرة والمنة كانت تمثل هدفهم الأعلى ، وأيقنوا وقتها أنه لا يصبو إلى منال الرضى فى عيني الآلهة سوى الفضيلة والوقار وحب الحكمة — فى جهد جهيد للتغلب بالسمات الخلقية للأرباب ذاتهم . كان يوليان معجباً أيما إعجاب بفلسفة ماركوس أنطونينوس ، ولكنه فى الوقت

نفسه كان يمجّد سيرة الإسكندر الأكبر وبطولاته الحربية . والواقع أن يوليان جمع بين صفات الاثنين : فلم تشغله تأملاته الفلسفية وحياته الرواقية عن ميدان القتال . فلقد كانت الأمم ترهب اسمه ، كما قدم إلى بلاطه سفراء الهند وسيلان وجماعات القوط يقدمون له فرائض الولاء والطاعة . ولم يبق أمامه سوى ملك الفرس المتعجرف الذى كان يغير على ممتلكات الرومان فى بلاد ما بين النهرين .

وكان سابور الفارسى قد أرسل سفارة إلى يوليان يدعوه إلى الصلح . غير أن يوليان أعلن للسفراء أنه لن يقبل صلحاً فى وقت كانت فيه السنة النيران الفارسية تلتهم مدائن ما بين النهرين . ثم أضاف للسفراء وهو يبتسم بأن ليست هنالك ضرورة للتفاوض مع السفراء الفرس لأنه هو ذاته كان عازماً على زيارة البلاط الفارسى فى سرعة الرمح . كان هذا — بطبيعة الحال — إعلاناً للحرب ضد سابور . وسرعان ما قاد يوليان جيشه وعبر آسيا الصغرى ثم حل فى أنطاكية . على أن بلاد الشام ، حيث كانت غالبية الأهلى من النصارى ، قابلت يوليان فى فتور زائد . كذلك عندما حلت أعياد الساتورناليا Saturnalia اكتظت شوارع أنطاكية بالدهماء من راحوا ينشدون ، على مسامع الإمبراطور ، الأغنيات المبتذلة والأراجيز الساخرة التى كان فيها تعريض لشخص يوليان ولحيته . ولقد استاء تلميذ سقراط هذا استياءً شديداً من مسلك أهل أنطاكية . ولذلك فإنه أصر على التعريض بهم . يصنف سلاحهم ، فنظم قصيدة ساخرة عنوانها « كاره اللحية » Misopagon ، وفيها اعترف بنقاط ضعفه ، ولكنه هاجم حياة المحبون والخلاعة التى كان يحياها أهل أنطاكية « المخنثين » . وبعد هذا قرر مغادرة المدينة ليعسكر وجنده فى طرسوسة بقبليقيا ، بعد أن عين إسكندر المتجبر المستبد حاكماً على أنطاكية ليقلم أظافر أهلها « الجاحدين فى وقاحة » (٧) .

على أن مواطناً واحداً من أهل أنطاكية كان يملك من الحكمة والصيت ما جعل يوليان يتغاضى عن حماقات بقية أهلها ، وذلكم هو ليبيانوس صاحب مدرسة

(٧) "Ipse autem Antiochiam egressurus, Heliopoliten quendam Alexandrum.

Syriacae jurisdictioni praefecit, turbulentum et saevum ; dicebatque non illum meruisse, sed Antiochensibus avaris et contumeliosis hujusmodi judicem convenire." (Ammian.

الفلسفة اليونانية الأنطاكية . وكان ليبيانيوس معاماً للبيان والنحو والفيلولوجيا . وقد رأى هذا المعلم الضالع أن المسيحية قد أحلت بالعالم ظلاماً حالك السواد ، ضاعت فيه معالم الإشراف السمائي والسعادة الحقة . ولقد قرأ يولييان محاضرات ليبيانيوس جميعاً في نهم زائد ، ثم أصبح فيما بعد مقرباً إلى الفيلسوف بل صديقاً حميماً له .

تقدم يولييان على رأس جيشه لمحاربة الفرس حتى وصل إلى الدجلة . وهناك قابله أحد نبلاء الفرس وأقنعه أنه متمرد على الملك سابور وأنه سيرشده وجيشه إلى طريق النصر . ونجح هذا الفارسي في التغرير بيولييان . وعند هذه المرحلة أقدم يولييان على خطوة متهورة ، إذ أمر بإحراق سفن أسطوله ليقتنع بجنده أنه ماضٍ لإذلال الفرس في عقر دارهم . وأتت النيران على ألف ومائة سفينة رومانية بأمر الإمبراطور يولييان . ثم زود الإمبراطور معسكره بمئونة عشرين يوماً فحسب . وزحف ورجاله صوب جبال ميديا ، ولكن الأهليين أشعلوا النار في الحرت والزرع وهربوا إلى الجبال . وسرعان ما نفذت المؤن في معسكر الرومان ، بعد أن ضل يولييان الطريق بفعل خيانة النبيل الفارسي وأتباعه الذين أوقعوا يولييان في الفخ الذي كان سابور قد نصبه له في دهاء بالغ . وهنا اختفى النبيل الفارسي تاركاً وراءه بعضاً من رجاله ، الذين اعترفوا — تحت وطأة التعذيب — بتفاصيل المؤامرة . وفي الحال قرر يولييان التمهق قبالة الدجلة . ولكن سابور وجيوشه انقضوا على مؤخرة الفرق الرومانية وقتلوا منها الكثيرين ، فسقط خيرة ضباط يولييان الواحد بعد الآخر . كل هذا والمجاعة تزداد فتكاً بالجند اليائسين .

ولكن يولييان لقن جنده درساً بطولياً ، إذ كان يقاتل بجوارهم في بسالة فائقة ، وكانت همته سبباً في تحويل الهزيمة والعار إلى ما يشبه بؤادر الصمود بل النصر للرومان . ولكن سهام الفرس المنقضة من على غطت موقع الإمبراطور بسحابة حجبت البصر . وفيما راح حراسه يصيحون توسلاً إليه أن يأخذ الحذر ، إذ بسهم يسلم جلد يده وينسل ليستقر في كبده . حاول يولييان أن يتزع السهم من جنبه ، ولكن سلاحه الحاد قطع أصابعه ، وسقط القائد من على صهوة جواده مغشياً عليه^(٨) .

(٨) "Clambant hinc inde candidati quos disjecerat terror, ut fugientium molem tanquam ruinam male compositi culminis declinaret." (Ammian. 25; 3).

كانت الكلمات الأولى التي تفوه بها يوليان بعد أن أفاق من الإغماء أن طلب جواده وسلاحه ، ثم حاول النهوض لمواصلة القتال . ولكن الضربة كانت قاتلة ، ورأى أطباؤه أن الموت لا محالة محتطف سيدهم . ولقد قارن الفلاسفة الذين كانوا في حاشية يوليان في ذلك الوقت خيمته بالسجن الذي احتوى سقراط يوم إعدامه . وأنصت الجميع من حول يوليان إلى كلماته الأخيرة في رهبة وحزن بالغين . تكلم فقال :

« أيها الأصدقاء والرفاق من الجند . لقد آن الأوان لأرحل ، وإني في وفاء العهد لليان لعل بشاشة . لقد علمتني الحكمة فضل الروح على الجسد ، وإذا فإن انفصال قيس النور عن محتواه ينبغي أن يشيع السعادة لا الأتراح .

ولقد تعلمت من درس الدين أن المنية الباكرة من نصاب الأخيار . وعلى هذا فإني أستقبل هذه الضربة القاتلة على أنها منة من الآلهة لحمايتي من العار ، فلقد سلحت حياتي بزداد الفضيلة والفخار . وإني إذ ألفظ أنفاسي الأخيرة أعترف بأنني لم أخلف ضبغائن ورأى : لقد عافت يداي الإثم . لقد كانت سيرة نقية في العلانية والخفاء ، فحفظت السلطان الإلهي في يدي بغير عيب ولا دنس . ومن دافع مقبي للطغيان كان مراد حكومي أبداً إدخال السعد على الرعية . . . لقد كان السلام مقصدي طالما كان السلم في الصالح العام . ولكن عندما ناداني الواجب لحمل السلاح ، عرضت ذاتي لخطر الحرب ، برغم بصيرتي السابقة بأنني سأسقط بضربة السيف (لقد علمت هذا من استخاراتي للآلهة) ، وإني الآن أرفع الشكر للخالق الأزلي الذي لم يسمح لكياني أن يهلك على يد أحد الطغاة أو بواسطة خنجر المتآمرين أو بفعل مرض عضال ، وإنما حمداً للآلهة التي منت على بالرحيل عن هذا العالم وأنا في شرف ساحة القتال . كل هذا أقوله لكم وأنا أشعر الموت يدنو مني . وإني أتعهد ألا أؤثر عليكم في اختيار إمبراطور يخلفني ، خشية أن يأتي الرأي منحازاً أو متعجلاً . ولكنني كمواطن روماني آمل أن يمنح الله الرومان حاكماً فاضلاً »^(٩) .

. Ammianus Marcellinus, XXV, 3 :

(٩):

“Advenit, o socii, nunc abundi tempus e vita impendit tempestivum, quam repōcenti naturae ut deqitor bonae fidei redditurus exulto, non, ut quidam opinantur,

بعد هذا التفت يوليان إلى الفيلسوفين برسكوس ومكسينيوس وراخ يناقشهما في طبيعة الروح . وهنا ازداد الجرح نزيفاً ، وصعب على القائد شهيقه فطلب

==afflictus et moerens, philosophorum sententia generali perdoctus, quantum corpore sit beatior animus, et contemplans, quoties conditio melior a deteriore secernitur, lactandum esse potius quam dolendum, illud quoque advertens quod etiam dii coelestes quibusdam piissimis mortem tanquam summum praemium persolverant. Munus autem id mihi delatum optime scio, ne difficultatibus succumberem arduis, neve me projiciam unquam aut prosternam, expertus quod dolores omnes ut insultant ignavis, ita persistentibus cedunt.

Nec me gestorum poenitet aut gravis flagitti recordatio stringit, vel cum in umbra et angulis amendarer, vel post principatum susceptum : quem tanquam a cognatione coelitem defluentem, immaculatum, ut existimo, conservavi, et civilia moderatius regens, et examinatis rationibus bella inferens et repellens, tamesti prosperitas simul utilitasque consultorum non ubique concordent, quoniam coeptorum eventus superac sibi vindicant potestates. Reputans autem justi esse finem imperii, obedientium com modum et salutem, ad tranquilliora semper, ut nostis, propensior fui, licentiam omnem sacris meis exterminans, rerum corruptricem et morum, gaudensque abeo gestiensque quod, ubicumque me, velut imperiosa parens, consideratis periculis objecit res publica, steti fundatus, turbines calcare fortuitorum assuefactus.

Nec fateri, pudebit, interiturum me ferro dudum didici, fide fatidica praecinente; ideoque sempiternum veneror numen, quod non clandestinis insidiis, nec longa morborum asperitate vel damnatorum fine decedo, sed in medio cursu florentium gloriarum hunc merui clarum e mundo digressum : acquo enim iudicio juxta timidus est et ignavus, qui cum non oportet, mori desiderat, et qui refugiat, cum sit opportunum.

Hactenus loqui, vigore virium labente, sufficiet. Super imperatore vero creando caute reticeo, ne per imprudentiam dignum praefeream, aut nominatum : quem habilem reor, anteposito forsitan alio, in discrimen ultimum tradam. Ut alumnus autem rei publicae frugi, opto bonum post me reperiri rectorem.”

ماء ، وما إن شربه حتى فاضت روحه في غير ما ألم في منتصف تلك الليلة تماماً :

كانت محاولة جوليا هي آخر محاولات الوثنية اليائسة في صراعها مع المسيحية ، ولقد خسرت الوثنية المعركة بصفة قاطعة . ولقد استطاع آباء الكنيسة إقناع الأباطرة بأن عبادة الأوثان ما هي إلا تعبد للشياطين ؛ وهي جيمة كبرى تجلب سخط الرب . وعلى هذا فإن كهنة روما الخمسة عشر Augurs الذين كانوا يتفحصون الكون ويحددون مسار الأبطال ، كان ولا بد أن يجردوا من هذا السلطان . ولقى عرافو الأسرار السيبيلينية Quindcenvirs نفس المصير ، هم والعذارى الست . ودارت الدائرة أيضاً على سدة الآلهة السبعة Epulos ، وعلى حملة المشاعل الثلاث للأرباب جوبيتر ومارس وكورينوس . وجرد ملك القرابين والأضحيات - الذي كان يمثل الملك نوما العظيم - من صولجانه .

وكان الإمبراطور جراتيان (٣٦٧ - ٣٨٣) قد رفض أن يتسلم من روما الأرواب الأرجوانية الخاصة بالكاهن الأعظم لأنها « ملطخة بوصمات الوثنية » . أما عن السيناتو الروماني فقد ظل حتى ذلك الوقت قلعة وثنية بحق ، وكانت قاعة المجلس الموقر مزودة بتمثال ومذبح لربة الانتصار المربضة على الكرة في أروابها الفضفاضة ؛ بينما أجنحتها منسابة ، وهي تمسك بالتاج في يدها الممتدة . ولقد تكاثرت العادة أن يقسم أعضاء السيناتو يمين الولاء لروما على هذا المذبح لربة الانتصار ، وكان يصحب هذا القسم مقدمة من الخمر والبخور للربة . وكان الإمبراطور قنسطانطيوس (٣٤٠ - ٣٥٥) قد نقل هذا الرمز الهائل إلى بيزنطة ، ولكن نجوليان المرتد أعاده إلى موقعه اللائق به في قاعة الشيوخ الرومان ، وتغافل الإمبراطور فالنتينيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥) عنه . ولكن جراتيان حكم بإزالة ربة الانتصار من عرينها مرة أخرى . ولقد حفظ لنا التاريخ أخبار بعثة أوفدها السيناتو إلى الإمبراطور فالنتينيان الثاني (٣٧٥ - ٣٧٨) في بيزنطة لتتوسل إليه من أجل إعادة مذبح ربة الانتصار إلى السيناتو . ولقد وكل السيناتو تلك المهمة الصعبة لرفيقهم المرموق سيماخوس Symmachus ، ذاك الشيخ النبيل الذي كان سجله ينطق بالفخار : فهو كاهن وعراف وقنصل سابق ومحافظ لمدينة روما . وكان سيماخوس يعلم بحساسية

مهمته الدبلوماسية ، فهو يتجنب أية إشارة إلى الدين المسيحى الذى كان الإمبراطور يدين به ، ولذا فإنه يلجأ إلى التوسل والتضرع « فهما سلاحنا المتبقى » . على أن هذا الرومانى العجوز يحاول أن يثير خيال الفتى الجالس على عرش أغسطس فيعدد له مكرمات روما ربة الانتصار : ففي ظلها أخضعت الأرض لقانون الرومان ، ودان لقبصر هانيبال ونجى الكابيتول من كيد الأعداء . لماذا إذن ينكر على روما الربة حقها فى الحرية التى هى صاحبها ، ولماذا تجبر على نبذ تقاليد السلف الصالح^(١٠) . ولقد نعهد سيماخوس أن تأتى توسلاته على لسان الربة روما ذاتها ، ولكنه كان يدافع عن قضية قضى عليها بالخسران .

لقد انبرى أمبروز Ambrose رئيس أساقفة ميلان الشهير يفند أسانيد الوثنية واحدة فواحدة . فأوضح أن حجج روما لا تعدو أن تكون خطابة جوفاء ، ونادى بأن الضمان الوحيد للخلاص يكمن فى المسيحية . أما الوثنية فهى الشرك الذى يؤدى بأهله إلى الهلاك . وكان أمبروز يتمتع بشعبية عريضة وكان الأباطرة أنفسهم يحلون له ولقد كانت جهود أمبروز من بين الأسباب الأساسية التى أحبطت محاولة سيماخوس فى إرجاع مذهب الانتصار إلى روما .

ولما تولى ثيودوسيوس العظيم حكم الإمبراطورية (٣٧٨ - ٣٩٥) عقد مجلس السيناتو وطرح على الشيوخ - وفقاً لتقاليد الجمهورية - السؤال الآتى : من ينبغى له أن يبقى جوبيتر أم المسيح ؟ وحدثت المفاجأة الكبرى إذ قرر السيناتو بأغلبية ساحقة إسقاط جوبيتر . وهذا التحول الفجائى فى مشاعر النبالة الرومانية أمر محير للغاية : هل رأى الشيوخ فى نفي رفيقهم سيماخوس نذيراً فآثروا عدم إثارة غضب ثيودوسيوس عليهم ، أم أنهم قد أيقنوا أن جواد جوبيتر هو الخاسر لا بحالة ، أم

Symmachus, Relationes, III :

(١٠)

“Optimi principum, patres patriae, reveremini annos meos, in quos me pius ritus adduxit ! Utar caeremoniis avitis, vivam meo more, quia libera sum ! Hic ultus in leges meas orbem redegit, haec sacra Hannibalem a moenibus, a Capitolio Senonas repulerunt. Ad hoc servata sum, ut, longaeva reprehendar ? Videro quale sit quod instituendum putatur : sera tamen et contumeliosa est emendatio senectutis.”

أن زوجات هؤلاء السادة وعبيدهم — الذين كانوا من أتباع المسيح — قد أثروا عليهم بتعاليمهم الجديدة ؟

كانت أول الأسرات الرومانية التي اعتنقت المسيحية أسرة أنيشيوس : وهذا حذوها بيت باسوس وآل باولينوس ثم آل جراكوس . وقد وصف الشاعر المعاصر كامنس بروذنتيوس (ولد في ٣٤٨ م) هذه المناسبة بقوله : « إن رفاق كاتو وشيشيرون لم يعودوا يطبقون أردية الكهانة الوثنية على أجسادهم فألقوا بها عن ذواتهم مثلما تخلع الثعابين جلدها القديم . ثم تقمطوا الأرواب البيضاء في لون الثلج لينعموا بمساء المعمدية » . بعد هذا زحفت جماهير الشعب وفوداً على كنيسة اللاتيران وكنيسة الفاتيكان حيث صلوا صلاة سقوط جماعة الكايتول . ويرى إدوارد جيرون في هذا التحول المذهل « خضوعاً رومانياً لطغيان الإنجيل » (١١) .

بعد هذا الانتصار على قلعة الوثنية أصدر ثيودوسيوس العظيم قانوناً يحرم على الرعية في شتى أرجاء الامبراطورية تقديم الأضحيات . ثم صدرت الأوامر لكل من سنجيوس Cynegius حاكم الشرق وجوفوس Jovius وجودنتيوس Gaudentius القائدين المرموقين في الغرب بإغلاق المعابد الوثنية وتحطيم أوثانها ومصادرة أملاكها ، على أن تؤول هذه إلى الكنائس والجيش الإمبراطوري . وفي غالة قاد مارتن أسقف مدينة تور مظاهرة مسلحة من الرهبان لتحطيم المعابد الوثنية . وفي سوريا قاد الأسقف مارسيلوس مظاهرة مماثلة لإشعال النار في معابد آياميا ، برغم أنه كان أعرج لا تسعفه قدمه على هذا العنف . ولا أن أجهده الطريق استراح على مسافة من أعمال التدمير ، حيث هجم عليه نفر من الوثنيين وقتلوه . ولا اكتشف الرهبان مقتل أستاذهم الأسقف انقضوا على الأهلين وقاموا بأعمال السلب والنهب في صورة أبشع من الصورة التي كانوا يضجون منها عندما كانت الكلمة للوثنية على المسيحية . ولهذا نجد الفيلسوف الوثني الكبير ليبيانيوس Libanius يسخر من هؤلاء الرهبان المسيحيين « أصحاب العباءات السوداء القاتمة الذين يفوقون القبيلة الثملة في شراحتها . . . لا إن القبيلة تعاف أن تشبه بهم » .

ثم دارت الدائرة على سيرابيس Scapis . وسيرابيس هو إله الإسكندرية ، الذي

كان قد ظهر لبطليموس الأول في المنام (في القرن الرابع ق. م) وطلب منه أن يعمل على نقله من مدينة سينوبي على شواطئ بنطس إلى الإسكندرية . ولا تفرس الكهنة المصريون في هذا الإله الوافد من بنطس تعرفوا فيه على ملامح الإله المصرى الطيب أوزوريس الشهيد زوج إيزيس الجميلة الرفية . وقد عبده المصريون والأغارقة على حد سواء . ولقد تفنن البطالمة في إقامة معبد رائع له هو سيرابيوم الإسكندرية الشهير ، الذى صار البيت الأكبر للعبادة على مر العصورين البطلمى والرومانى .

ومع أن ثيودوسيوس العظيم قد أمر بتحطيم الأوثان ، إلا أنه تغافل عن أمر سيرابيس ، وظل الوثنيون في الإسكندرية يقدمون له الأضحيات : ويبدو أن مسيحي الإسكندرية أنفسهم كانوا يخشون إثارة غضب سيرابيس ، فهو أوزوريس الذى يجلب الفيضان كل عام ، وهو الذى يكسى الوادى خضرة والسنابل قمحاً ، ويملاً بطون السنكدرين ويغذى دهماء روما والقسطنطينية .

ولكن مسيحياً واحداً في الإسكندرية قام بتحدى سيرابيس وجبروته ، ذلكم هو ثاوفيلوس بطريرك الإسكندرية . وثاوفيلوس هو رجل المتناقضات : فهو لا يتخذ إلا عن الفضيلة ، وينكرس حياته لنصرة المسيحية ، ولكن يده كانت ملطخة بالدم وببصمات الذهب . وكان ثاوفيلوس قد نجح في هدم معبد باخوس (باكوس) إله الخمر ، وخشى الوثنيون أن تكون غزوة البطريرك التالية ضد رب الأرباب سيرابيس . ولهذا فإن فيلسوف الوثنية السكندري أوليميوس استنفر قومه ليدودوا عن إلههم العظيم ، وهبت جموع مسلحة من الوثنيين للدفاع عن السيرابيوم حتى الموت . وزحف المسيحيون وضربوا حصاراً حول سيرابيس ورعيته ، واشتبك الطرفان في عنف بالغ وقتل الكثيرون من الجانبين . وتدخلت السلطات الرومانية في الأمر ووفق القضاة إلى إبرام هدنة بين الطرفين حتى يكتبوا إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ليحكم في أمر سيرابيس . ولا أن وصل القرار الإمبراطورى اجتمع الطرفان في الميدان العام في الإسكندرية ، وتلى المرسوم فإذا به ينص على إزالة كل الأوثان من الإسكندرية . وعندها علت ضيحات المسيحيين تدوى في السماء وتوارى الوثنيون كاسفى البال ، خوفاً من الهلاك على يد الجماعة التى أسكرها النصر .

وتقدم ثاوفيلوس موكب الانتصار الزاحف على السيرابيوم ، وعملت معاول الهدم

في بيت العبادة السكندري فحولته إلى كومة من رماد . وكان تمثال سيرابيس يقف شامخاً ، يحمل الصولجان بيده اليسرى ، والمكيال على رأسه ، ويده اليمنى تمسك بالتنين الذي له جسد ورأس الثعبان ، وذيل ثلاثي ينتهي بثلاثة رعوس إحداها للكلب والأخرى لأسد والثالثة لذئب . وكانت هنالك أسطورة في الإسكندرية تقول إنه إن امتدت يد تهمين كرامة هذا الإله فإن السماء تنطبق على الأرض ويسود العالم خراب شديد . على أن جندياً مسيحياً أخذته الحمية وقد تسليح بالبلطة ، فصعد الدرج وانقض بثقل سلاحه على وجنة سيرابيس فسقطت الوجنة على الأرض . ولم تهتز السماء ، ولا الأرض مادت ! وتتابع ضربات الجندی على سيرابيس فمزقته إرباً ، وتحاطفت غوغاء المسيحيين قدمي الإله وأطرافه وعرضوها في مواكب السخرية في شوارع المدينة وملاعبها ومسارحها . وظن الوثنيون أن النيل لن يفيض وأن أبا أهول سينهار . ولكن هذا لم يكن . وأيقن عباد سيرابيس أنه إله عاجز تماماً أصم كالحجر ، فقلبوا له ظهر المحن ودخلوا أفواجاً في كنيسة الإسكندرية .

الفصل الرابع

هراطقة وأرثوذكس

« إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً . . .
كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضاً إن كان أحد
يبشركم بغير ما قبلتم فليكن أناثياً » .

« بولس الرسول »

تمسك آباء الكنيسة الأولون بالسيرة التي تواترت عن تلاميذ المسيح وبإيمانهم
الذي كان من إلهام الروح القدس . والرسل هم أول من عقدوا مجمعاً مسكونياً ،
أى عالمياً ، بمعناه الصحيح ، ونجد أخباره في سفر أعمال الرسل :

« ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة . وصار بغتة من
السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين .
وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم . وامتلاً
الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن
ينطقوا . . . فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية
وبتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبيا التي نحو القيروان ، والرومانيون
المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب » .

والرسل قانون للإيمان ورد في رسالة تعرف باسم « رسالة الرسل » Epistola
Apostolorum ، وهي قد كتبت أصلاً باللغة اليونانية ، وليس لدينا الآن سوى صيغتها
الأثيوبية ، كما حفظ جزء منها باللغة القبطية وجزء صغير آخر حفظ باللغة اللاتينية .
ويكاد معظم الدارسين يجمعون على أن تاريخها يسبق عام ١٥٠ م ، ورسالة الرسل
على هذا هي أقدم نص تاريخي يحدد قوامه الإيمان وأركانه ومن ثم يوضح المفهوم

الأول للأرثوذكسية السليمة . ولأهمية هذه النتمطة رأينا أن نورد مضمون كل من رسالة الرسل ، وقانون الإيمان في الكنيسة القبطية ، وقانون اريناوس ، ثم قانون الإيمان الإفريقي على الترتيب^(١) .

رسالة الرسل : « أؤمن بالله الأب ، وبيسوع المسيح مخلصنا ، وبالروح القدس الباراقليط ، وبالكنيسة المقدسة ، وبغفران الخطايا » .

قانون الإيمان القبطي : « أؤمن بإله واحد الله الأب ، وبابنه الوحيد مخلصنا يسوع المسيح ، وبالروح القدس معطي الحياة ، وبالكنيسة الأرثوذكسية المقدسة ، وبالحياة الأبدية » .

قانون اريناوس : « أؤمن بالله الأب ، وبيسوع المسيح ابنه الذي تجسد ، ومات ، وقام من الأموات ، وبالروح القدس ، وبغفران الخطايا ، وبالحياة الأبدية » .

ولا يختلف قانون الإيمان الإفريقي كثيراً عن قانون اريناوس^(٢) .
والمشاكل العويصة في اللاهوت المسيحي تدور حول الثالوث (الأب ، الابن ، الروح القدس)

See Badcock, F.J., The History of the Creeds, pt. II. (١)

"Credo in Deum Patrem omnipotentem universorum Creatorem, (٢)

Credo in Jesum Christum, Filium Eius unicum, Dominum nostrum, qui natus est,

Crucifixus, resurrexit;

Credo in Spiritum Sanctum;

Remissionem peccatorum;

Carnis resurrectionem

Et vitam aeternam per sanctam Ecclesiam."

(Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum, Auctore Henrico Denzinger).

See Bibliography.

في القضايا الآتية : هل الابن مساو للآب في الجوهر ؟
 هل للابن طبيعة واحدة أم طبيعتان ؟
 هل الروح القدس إله كامل ؟
 هل العذراء مريم أم للمسيح في طبيعته البشرية أم
 في طبيعته الإلهية ؟

هذه القضايا التي اختلف حولها الأولون وتنازعوا هي التي من أجلها عقدت المجامع المسكونية لمدارسها ولاتخاذ قرارات صار الالتزام بها هو الشرط الأساسي لتحديد الأرثوذكسية . ومن خرج على ما اتفق عليه الآباء في هذه المجامع دمع بالهرطقة .

انعقد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ برئاسة الإمبراطور قنسطنطين العظيم لمناقشة تعاليم أريوس القس السكندري ، الذي نادى بأن الابن (المسيح) أقل من الآب في الجوهر ، بل ووضع المسيح بين سائر المخلوقات . حقيقة أنه قال بسو هذا المخلوق ، ولكنه وضعه بين سائر البشر . وبعد نقاش طويل تجلت خلاله مواهب اثناسيوس السكندري وقوة حجته رفض المجلس آراء أريوس وأدانها بالهرطقة لأن « ألوهية المسيح هي الأمل الوحيد الذي يربطنا بالله الآب ، لأنه لا أحد سوى الله وحده بقادر على احتواء المخلوق وضمه في الخالق . والمسيح على هذا من نفس جوهر الآب (Homousios) ، وهو ليس بشبه إله أو مخلوق مميز بل إله حق من إله حق ، نور من نور ، مولود غير مخلوق قبل كل الدهور ، مساو للآب في الجوهر » (٣) .

وإلى جانب هذه المشكلة اللاهوتية عالج المجمع وسائل تنظيم الكنيسة فرتب القانون السادس الكنائس الرسولية على الوجه الآتي : روما ، الإسكندرية ،

"Credo in unum Dominum, Jesum Christum,

Filium Dei, natum de Deo, Deum de Deo,

Lumen de lumine,

Deum verum de Deo vero,

Natum ante omnia saecula, non factum!..."

أنطاكية . أما أسقفية أورشليم ، التي كانت واقعة تحت إشراف أبروشية . قيسارية ، فيأتي ترتيبها بعد هذه الكنائس الثلاث سالفة الذكر^(٤) . وبالطبع لم يرد ذكر بيزنطة في هذا التنظيم الكنسي لأن مدينة القسطنطينية لم تفتتح إلا بعد مجمع نيقيا بخمسة أعوام لتكون عاصمة للإمبراطورية . ولقد ظلت كنيسة بيزنطة خاضعة — كما كانت الحال من قبل — لأبروشية هيراقلية .

أما المجمع المسكوني الثاني فقد انعقد في القسطنطينية في سنة ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم ، لمناقشة آراء ماسيدونيوس الذي علم بأن الروح القدس أقل من الآب والابن في الجوهر . ولذا عرف ماسيدونيوس وأتباعه باسم « أعداء الروح القدس » Pneumatomachoi . وكانت هذه النظرية تهدد أقنوما من الأقانيم الثلاثة — هو الروح القدس — بنفس القدر الذي هددت به الأريوسية نظرية التثليث . ولذلك جدد الآباء المؤتمرون في مجمع القسطنطينية قانون الإيمان النيقى ، وأكدوا ألوهية الروح القدس « الرب المحي المنبثق من الآب المسجود له مع الآب والابن الذي نطق به الرسل الأطهار »^(٥) .

استقرت مسألة الثالث بعد مجمع القسطنطينية هذا . على أنه يجب أن نذكر أن الكنيسة اللاتينية قد أضافت إلى قانون الإيمان النيقو قسطنطينى عبارة تقول بانثاق الروح القدس « من الابن أيضاً » Filioque . وهذه الإضافة الدخيلة على قانون الإيمان ظهرت أول ما ظهرت في إسبانيا في مؤتمر طليطلة (٥٨٩ م)^(٦) ، ثم تبعتها الكنيسة الفرنجية . وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة في تعميق الخلاف بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما مما أدى إلى الشقاق بين الجانبين^(٧) .

(٤) راجع المخطوطة الخاصة بقوانين مجمع نيقيا في حاشية الكتاب .

(٥) "... et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem, cum Patre et Filio adorandum et conglorificandum, qui locutus est per sanctos prophetas. Et unam Sanctam catholicam et apostolicam Ecclesiam.

(٦) انظر باب القوط الغربيين .

(٧) راجع الفصل الأول من كتاب « روما وبيزنطة » للدكتور إسحق عبيد . دار المعارف ١٩٧٠ .

ولقد قرر الآباء المجتمعون في هذا المجمع المسكوني الثاني رفع كنيسة بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد كنيسة روما ؛ لأنه لم يكن من اللائق تجاهل عاصمة الإمبراطورية المسيحية . وعلى هذا فإن القانون الثالث لهذا المجمع وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الإسكندرية ذاتها ، وصار أسقف بيزنطة « يتمتع بالشرف الذي يتلو الشرف الذي يتمتع به أسقف روما لأن القسطنطينية هي روما الجديدة » .

كان قانون الإيمان الذي اتفق عليه في مجع نيقيا والقسطنطينية والمعروف باسم *Symbolum Nicaeeno Constantinopolitanum* نتيجة بلجهود القديس أثاناسيوس السكندري بطل الأرثوذكسية الذي اهتدى إلى كلمة *Homoousios* « مساو للآب في الجوهر » والتي سهلت على الآباء مشكلة صياغة قانون الإيمان هذا^(٨) . ولقد حمل رسالة الأرثوذكسية من بعد القديس أثاناسيوس ثلاثة من آباء كبادوكيا هم القديس جريجوري من نازيانزوس الشهير بجريجوري اللاهوتي (٣٢٩ - ٣٩٠) ، وبازيل الأعظم (٣٣٠ - ٣٧٩) ، ثم شقيقه الأصغر جريجوري من نيسا (توفي سنة ٣٩٤) .

ولقد ظهرت صيغة لاتينية لقانون الإيمان في غرب أوروبا نسبت إلى القديس أثاناسيوس ذاته ، وهي الصيغة المعروفة باسم « إلى من يريد الخلاص »^(٩) *Quicumque vult salvus esse* . ولقد دس الغرب اللاتيني على هذا النص قول القديس أثاناسيوس بانبثاق الروح القدس من الابن مثلما هو منبثق من الآب^(١٠) . وهذا تزييف مؤكد :

(٨) "Credimus in unum Deum Patrem omnipotentem, .. Et in unum Dominum Iesum Christum .. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem.. Et unam Sanctam Catholicam et apostolicam Ecclesiam. Confitemur unum baptisma in remissionem peccatorum. Expectamus resurrectionem mortuorum, et vitam futuri saeculi. Amen."

راجع النص الكامل لهذا القانون في الحاشية .

(٩) انظر النص الكامل باللاتينية في حاشية الكتاب .

(١٠) "Fides autem Catholica haec est, ut unum Deum in Trinitate, et Trinitatem in

يمكننا أن نلمس من قصة المجامع إلى جانب الجدل اللاهوتي العميق تطلعات إلى الزعامة الكنسية بين الآباء الأساقفة ، ذلك أن كل كرسى من كراسى الأسقفيات الرسولية أراد أن يجعل من مدرسته الحكم الأوحى للأرثوذكسية ، مما أدى إلى بروز النعرات المصرية والأنطاكية والطموح البيزنطى والمطامع الرومانية .

والواقع أن كلا من الإسكندرية وروما قد غضبتا من القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الذى رفع كنيسة بيزنطة من العدم إلى المرتبة الثانية على حساب الإسكندرية ، وتحرشاً بنفوذ روما . والإسكندرية حتى ذلك الوقت كانت صاحبة القول الفصل فى المسائل اللاهوتية ، فهى كرسى القديس مرقس ، ويكفيها اثناسيوس على مدى التاريخ لتطالب بصلاحياتها الأرثوذكسية وبتفوقها فى تفهم المشكلات اللاهوتية المستعصية . أما روما فقد رأت فى تحركات أسقفية بيزنطة ما يدعو إلى الريبة :

فالقسطنطينية وهى العاصمة الجديدة للإمبراطورية ومقر الإمبراطور المسيحى قد لا تكتفى بالرتبة الثانية بين الكنائس وإنما قد يأتى اليوم الذى تتطلع فيه إلى المكان الأول مما يضيع على أسقفية روما ما تستند إليه من مقومات رسولية وادعاءات فى الإمارة على الكنيسة العالمية . ولذا فقد رفضت روما الموافقة على هذا القانون الثالث إلى أن انعقد مجلس اللاتيران فى عام ١٢١٥ ، أى أن روما لم توافق على هذا القانون إلا بعد مرور ٨٣٤ عاماً من إصداره ، وذلك حينما كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت بالفعل فى أيدي جنود الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) التى كان قد بشر بها البابا أنوسنت الثالث . ومعنى هذا أن البابوية لم تعترف لكنيسة بيزنطة بالمرتبة الثانية بين الكنائس الرسولية الخمس إلا بعد أن أصبحت بيزنطة خاضعة بالفعل للسلطان البابوى . هذا عن موقف روما .

أما عن الإسكندرية فقد دخلت بعد صدور هذا القانون الثالث فى صراع عنيف مع بيزنطة دام سبعين عاماً ، وكان النصر خلال هذه الفترة فى جانب مدرسة

الإسكندرية التي نجحت بالفعل في إذلال أساقفة بيزنطة في أكثر من موقف .
والانتصار الأول الذي أحرزه السكندريون على بيزنطة كان في عام ٤٠٣ عندما نجح
ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية في خلع ونفي يوحنا ذهبي الفم من منصب الأسقفية
لبيزنطة^(١١) . أما الانتصار الثاني للإسكندرية فكان في المجمع المسكوني الثالث الذي
انعقد في أفيسوس سنة ٤٣١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني . وفي هذا
المجمع نوقشت آراء نسطور Nestorius أسقف القسطنطينية الذي تبني آراء المدرسة
الأنطاكية التي كانت تنادي بضرورة التمييز بين طبيعتي المسيح البشرية والإلهية .
وراح نسطور يفصل في أمر الطبيعة الناسوتية للمسيح إلى حد بدا معه أن هنالك
ازدواجاً في شخصية المسيح : من ذلك قول نسطور أن مريم العذراء لم تكن أمّاً
للمسيح في طبيعته الإلهية وإنما هي أم للمسيح في طبيعته البشرية فقط (والدة-المسيح
وليست والدة الإله) . ووجد كيرلس أسقف الإسكندرية - وهو ابن أخ وخليفة
ثاوفيلوس سابق الذكر - فرصته لإذلال أسقف بيزنطة مرة أخرى ، فأخرج للآباء
المجتمعين في أفيسوس الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا وقرأ عليهم « لقد صارت
الكلمة جسداً » . وأدين نسطور والنساطرة بالهرطقة ، وقرر مجمع أفيسوس أن

(١١) يوحنا ذهبي الفم : ولد في أنطاكية في عام ٣٤٧ وتوفي في كوماة بنطس في ١٤ سبتمبر عام
٤٠٧ . وكان يوحنا الابن الوحيد لأحد القواد في الجيش الإمبراطوري ، ولقد ربته والدته على تعاليم المسيحية ،
ولكنه لم يعمد إلا في سن الرجولة . ولقد درس يوحنا القانون وتلمذ على يد الفيلسوف الوثني العظيم ليانيوس .
على أنه غير رأيه فجأة وتوحد في الجبال ، وفي عام ٣٨١ سيم قسا في أنطاكية . ولقد ذاعت شهرة يوحنا كواعظ
ينطق بدرر الكلام وبالحكمة فسمى بذهبي الفم . وفي عام ٣٩٨ اختير اسقفاً لكرسي بيزنطة . ولقد اصطدم يوحنا
بالإمبراطورة يدوكسيا زوج اركادايوس لأنه كان يوبخها علانية بسبب إسرافها ومجونها . وفي عام ٤٠٣ نجحت
المؤامرة التي دبرتها يدوكسيا ضد الأسقف واجتمع مجلس خارج القسطنطينية برئاسة ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية ،
ولفق المجلس بعض الاتهامات ضد ذهبي الفم وقرروا عزله . ولقد نفاه الإمبراطور ولكنه سرعان ما استدعاه من
المنفى . ولكن مؤامرات الأعداء كانت لا تكف فنفاه الإمبراطور مرة أخرى إلى أرمينيا ، وفي عام ٤٠٧ أمر
بترحيله إلى بتيس في إيبيريا ، ولكن القديس توفي أثناء هذه الرحلة المصنية .

ويعتبر ذهبي الفم واحداً من الأربعة المعلمين للكنيسة البيزنطية . وأهم مؤلفاته تعليقاته على رسائل القديس
بولس ، ومباضجه البديدة ، ومدائحه لسيرة الشهداء ، وشروحه لطقوس المعمودية

العدراء مريم هي « والدة الإله »^(١٢) Theotokos وكسبت الإسكندرية الجولة الثانية وصار شعارها « الجوهر الواحد ووالدة الإله » - للتدليل على انتصارها على كل من الأريوسية والنسطورية - ولتتخذ منهما مبرراً لزعامتها في الأرثوذكسة .
 عل أن النصر عل ما يبدو كان قد أسكر السكندريين فتجاوزوا الحدود :
 ذلك أنهم عقدوا مجعاً آخر في أفيسوس سنة ٤٤٩ لتأكيد ألوهية المسيح . ولقد أدى حرص أتباع كيرلس على تأكيد هذا المعنى إلى أن جاءت براهمينهم لتهدد ناسوت المسيح ، فبدأ وكأن لاهوته قد استوعب ناسوته . ومن وجهة نظر هذا الفريق لم تعد للمسيح طبيعتان بل طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية ، ومن ثم عرف السكندريون وعلى رأسهم أسقفهم ديوسقورس بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة :
 المنافرة أو المونوفيزيتيين Monophysites (مونو = واحد ، فيوزيس = طبيعة) .

وكان لديوسقورس السكندري مؤيد مونوفيزي كبير هو أوطاخيا Eutyches الذي كان وكيلاً لأحد الأديرة في القسطنطينية . ولقد لقيت تعاليم ديوسقورس وأوطاخيا قبولا وتأيداً من جانب الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) . ولكن أسقف القسطنطينية والبابا ليو الأول العظيم وقفا بشدة يعارضان فكرة الطبيعة الواحدة . وبرغم هذا نجح ديوسقورس في إقناع الإمبراطور بعقد مجمع في أفيسوس سنة ٤٤٩ . وقد ترأس ديوسقورس هذا المجمع وأجبر أعضائه - برغم أنفهم - على الاعتراف بتعاليم أوطاخيا المونوفيزية .

ولقد صدق الإمبراطور على قرارات المجاس . ولكن البابا ليو لم يهدأ وشن حرباً ضد هذا المجمع حتى أسقط من عداد المجامع المسكونية وعرف باسم « مجمع اللصوص » Latrocinium .

وفي سنة ٤٥١ انعقد المجمع المسكوني الرابع في خلدونية على عهد إمبراطور مارقيان (٤٥٠ - ٤٥٧) وبدعوة من البابا ليو الأول العظيم ، وذلك لمحاكمة تعاليم

Anathematismi Cyrilli Contra Nestorium :

(١٢)

“Si quis non confitetur, Deum esse veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem : peperit enim secundum carnem factum Dei verbum, anathema sit.”

الإسكندرية المونوفيزية . وأكد الآباء المجتمعون في خلقيدونية أن للمسيح طبيعتين : بشرية وإلهية . والحق أن الفصل في حسم هذا النزاع يرجع إلى البابا ليو الذي قدم مقولته الشهيرة باسم Tomus وفند فيها آراء أوطانخيا وديوسقورس ، وأكد أن ناسوت المسيح كامل كما أن لاهوته كامل أيضاً في غير لبس ولا امتزاج ، فهو إنسان كامل وإله كامل^(١٣) . وبهذا أدينّت تعاليم المنافزة على أنها غير أرثوذكسية . وإلى جانب ذلك أكد مجمع خلقيدونية من جديد القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الخاص برفع مركز أسقفية بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد أسقفية روما . وكان هذا إذلالاً آخر للسكندريين الذين فقدت كنيستهم المركز الثاني . كذلك منح آباء خلقيدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريرك ، وهي بالترتيب الخلقيدوني : روما ، القسطنطينية ، الإسكندرية ، أنطاكية ، وأورشليم .

غير أن البابا ليو قد عارض القانون الثامن والعشرين لخلقيدونية الذي أعطى لكنيسة بيزنطة المركز الثاني بعد روما ، فكتب إلى الإمبراطور ماركيان يستنكر هذا القرار ويلقي تبعة هذا التطرف في أطماع كنيسة بيزنطة على أناتوليوس أسقف القسطنطينية متهماً إياه بالطمع الزائد والتطاول على حقوق روما ، مذكراً الإمبراطور والبطريرك بأن القسطنطينية أصلاً لم تكن لتستحق حتى مجرد لفظة « أسقفية » لأن ليس لها أصل رسولي^(١٤) .

ولعله من الضروري هنا أن نوضح أن مبدأ الطبيعتين للمسيح ، هذا المبدأ الذي أكدّه مجمع خلقيدونية هو من قول كل من ثيودور من مصيصه (موبوستيا)

“(١٣) *Unum eundemque Christum Filium Dominum unigenitum, in duabus naturis inconfuse, .. unum eundemque confiteri Filium et dominum nostrum Iesum Christum consonanter omnes docemus, eundemque perfectum in deitate, et eundem perfectum in humanitate.*”

“(١٤) *Qui enim verus est Deus, idem verus est homo, et nullum est in hac unitate mendacium, dum invicem sunt et humilitas hominis et altitudo Deitatis.*”

“(١٤) *Satis sit praedicto Anatolio quod vestrae pietatis auxilio, et mei favoris assensu, Episcopatum tantae urbis obtinuit. Non dedignetur Regiam civitatem, quam apostolicam non potest facere sedem; nec ullo speret modo, quod per aliorum possit offensiones augeri.*”

ونسطور ذاته . ولكن الغريب أن مجمع خلقيدونية وقد أمر بإعادة الأساقفة من أتباع مدرسة نسطور وثيودور إلى أبروشياتهم ، إلا أنه أصر على إدانة نسطور بالاسم وذلك بسبب تجديفه السابق على العذراء مريم . والحق أن هنالك تناقضاً مريباً بين قرارات المجمع المسكوني الثالث في أفيروس وبين قرارات المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية : فالأول يمثل انتصار آراء مدرسة كيرلس الإسكندرية القائلة « بتجسد الكلمة » في طبيعة واحدة ، بينما يمثل الثاني انتصار مدرسة البابا ليو والمدرسة الأنطاكية أو النسطورية القائلة بالطبيعتين الكاملتين للمسيح . ويتضح هذا جلياً إذا علمنا أن أتباع ديوسقورس الإسكندري كانوا قد أصدروا قراراً بالحرمان ضد النسطورة وأيضاً ضد البابا ليو ذاته بسبب مسألة الطبيعتين .

لم يشارك الآباء المصريون في أعمال مجمع خلقيدونية أو بالأحرى لم يتسنى لهم بذلك ، وقد أدانهم المجمع بالهرطقة فنعثوا تارة باسم المنافرة وأخرى باسم اليوطاخية . ولعل النقطة التي يمكن أن تميز بين المنافرة وبين آراء أوطاخيا هي أنه في حين علم المنافرة بالطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح قال أوطاخيا بوجود طبيعتين في المسيح قبل أن تتحدا ، وطبيعة واحدة بعد الاتحاد ، ولعله يقصد بذلك بعد قيامة المسيح من الأموات بعد الصلب .

ولقد ظهر فريق من غلاة المنافرة في مصر وسوريا الذين نادوا بأن جسد المسيح لا يمكن أن يكون فاسداً ، ولهذا فإنه لم يتألم وقت الصلب إلا ظاهرياً . وقد عرف هؤلاء باسم اليوليانيين أي أتباع يوليانيوس من هاليكارناسوس الذين أطلقوا على أنفسهم لقب افثارتودوكيتائ Aphthartodocetae أو فانتازياستيس Fantasiastes أي الذين يؤمنون بنقاوة جسد المسيح ، ومن ثم فإن هذا الجسد لم يكن أكثر من طيف عارض للمسيح الله .

على أن منافزة مصر تنكروا لتطرفات اليوليانيين وراحوا يتكلمون عن « خاصتين » للمسيح بدلا من « طبيعتين » ، الأمر الذي قربهم بهذا من آراء خلقيدونية . على أن النقطة الكبرى للخلاف بين الفريقين هي عدم اعتراف المنافرة بوجود طبيعة بشرية دائمة للمسيح ، خاصة بعد القيامة .

والواقع أنه لو شارك آباء الإسكندرية من الفريق الأخير المعتدل ربما كان

سيقدر لهم أن يشرحوا وجهة نظرهم هذه . ولكن بطريركتي بيزنطة وروما قد تعمدتا إذلال المدرسة السكندرية وانتزاع الزعامة منها . ويحدد عام ٤٥١ انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأرثوذكسية ، فبعدها نبذ المصريون كل ما هو يوناني ولاتيني وانطوت الكنيسة المصرية على نفسها واستخدمت اللغة الوطنية وهي اللغة القبطية في قداساتها علامة على سحقها . وتسمت الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية ، ولكن أتباع خلقيدونية من لاتين ويونان لا يعترفون لها بهذا الاسم وإنما ما زالوا يدمغونها بوصمة المونوفيزية . أما فريق الكتاب الذين يقللون من قيمة الخلافات اللاهوتية بين المنافرة والخلقيدونية فهم يعالجون تاريخ الفترة بروح « أقيومينيقية » أى مسكونية تهدف إلى تبسيط الخلاف بين الطرفين سعياً وراء الفكرة الهادفة إلى وحدة الكنائس العالمية ، فيما يعرف بالحركة المسكونية Ecumenical Movement .

أما المجمع المسكوني الخامس فقد انعقد سنة ٥٥٣ في القسطنطينية بأمر من الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥) وذلك للبحث عن حل وسط يرضى المنافرة في سوريا وفلسطين ومصر . والمعروف أن الإمبراطورة ثيودورة زوج جستينيان كانت متعاطفة مع المنافرة هي وأنثيموس بطريرك القسطنطينية . ولكن البابا أغابيتوس وحزب الأرثوذكس المتطرفين من جماعة أكويميتوى Akoimetoï ، أى السهارين الذين يواصلون الليل بالنهار في الصلاة والطلبات من أجل نصرة قرارات خلقيدونية الأرثوذكسية ، هاجموا سياسة البطريرك أنثيموس والإمبراطور جستينيان اللبنة تجاه المنافرة . وأمام هذا اضطر جستينيان إلى التراجع في موقفه فأقال أنثيموس وأحل محله ميناخ وهو من غلاة أتباع خلقيدونية . ولكن جستينيان ظل يسعى - برغم هذا - لمصالحة المنافرة ومال نحو تأييدهم في ضرورة إدانة الآراء النسطورية في كتابات كل من ثيودور من مصيصه وثيودوريت من قورس وعباس الرهاوى والمعروفة باسم « الفصول الثلاثة » Tria Capitula بل ذهب إلى حد أنه عاب على مجمع خلقيدونية تواطؤه في هذا الشأن . وعليه فقد استدعى البابا فيجيليوس إلى القسطنطينية ، ثم وجه الدعوة إلى ساويرس بطريرك أنطاكية المونوفيزي الثائر لمباشرة الأمر . ولما وصل ساويرس إلى القسطنطينية أعلن أنه لن يتنازل عن مطالبه في

ضرورة إنزال اللغة بمقولة البابا ليو (Tomus) وإدانة مجلس خاقيدونية « الحقير المدنس ». وقد كانت هذه الآراء العلنية المتهورة سبباً في إثارة الرأي العام في القسطنطينية ضد جستينيان ، فاضطر إلى إيداع ساويرس السجن لمدة عامين ، ولكن ثيودورة أطاقت سراحه وهرب بعدها إلى مصر . ولقد نجح الإمبراطور جستينيان في إقناع البابا فيجيليوس بضرورة إدانة آراء أصحاب « الفصول الثلاثة » سابق الذكر ، ووافق البابا على ذلك وأصدر إدانته ضدهم بالفعل فيما عرف باسم Judicatum . ولكن موقف البابا قوبل باحتجاج شديد خاصة من جانب أساقفة أفريقيا الذين استنكروا إدانة الموتى في قبورهم ، واضطر البابا إلى سحب قراره هذا .

والواقع أن البابا فيجيليوس قد تهرب من حضور جلسات المجمع المسكوني الخامس متعللاً بأسباب واهية . ولقد قرر المجمع إدانة الآراء النسطورية في « الفصول الثلاثة » وإنزال اللعنة على أصحابها . ولما لم يوافق البابا فيجيليوس على هذه القرارات نفي إلى إحدى جزر بحر مرمرة ، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلى روما إلا بعد أن وقع على قرارات المجمع الخامس^(١٥) . على أن البابا قد مات أثناء رحلة العودة . ولم يعترف غرب أوروبا بالمجمع المسكوني الخامس هذا إلا على عهد البابا جريجوري الأول العظيم وذلك في أواخر القرن السادس (٥٩٠ - ٦٠٤) .

كان المناقزة يشكلون شوكة في جنب الإمبراطورية ، وظهرت المشكلة بشكل حاد بعد أن استردت الإمبراطورية البيزنطية أقاليم سوريا وفلسطين ومصر من يد

(١٥) "Si quis defendit impium Theodorum Mopsuestenum, qui dixit alium esse Deum

Verbum, et alium Christum a passionibus animae et desideriis carnis molestias patientem, talis A.S. ..

Si quis defendit impia Theodoriti conscripta, quae contra rectam fidem et contra primam EPHESINAM sanctam Synodum, et Sanctum Cyrillum et duodecim eius Capitula exposuit, talis A.S.

Si quis defendit epistolam, quam dicitur Ibas ad Marin Persam haereticum scripsisse, quae abnegat quidem Deum Verbum de sancta Dei genitricis semper virgine Maria incarnatum... talis A.S."

الفرس . ولهذا فقد اقترح الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) مشروعاً لإعادة الوثام بين كل كل من النساطرة والمناصرة من جانب وبين أتباع مجمع خلقيدونية من جانب آخر : ويقضى اقترح هرقل بأن يعترف الخلقيدونيون بوجود طبيعتين للمسيح وإرادة واحدة (Thelema) ، ومن هنا جاءت كلمة « مونوثيليتية » Monothelism أى مذهب الإرادة الواحدة . ولقد وافق على هذا الحل الوسط كل من بطارقة أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية كما أيده البابا هونوريوس (٦٢٥ - ٦٣٨) . غير أن الراهب الفلسطيني سوفرونوس ، الذى كان يعيش فى الإسكندرية ثم اختير بطريركا لأورشليم فيما بعد ، عارض هذا الحل معارضة كاملة . ولما اشتد الجدل أصدر هرقل مرسوماً يعرف باسم Ecthesis أى « تفسير الإيمان » على أساس الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإرادة واحدة له . ولكن البابا سيفيرينوس (٦٤٠) استنكر موقف سلفه هونوريوس ورفض المشروع الهرقل « المونوثيليتى » ودمغه بالهرطقة .

ولما توفى هرقل خلفه على الحكم ابنه كونستانس الثانى (٦٤١ - ٦٦٨) الذى كان أيضاً متحمساً للمذهب المونوثيليتى فأصدر مرسوماً جديداً عرف باسم Typus أى « أنموذج الإيمان » يقضى بالاعتراف بطبيعتين للمسيح وإرادة واحدة فى أسلوب غامض . ولكن « أنموذج » كونستانس دنا جاء ليزيد من بلبلة الأفكار وتعميد الأمور . وعليه نقد عقد البابا مارتن الأول (٦٤٩ - ٦٥٥) مجلساً لاتيرانياً فى روما عام ٦٤٩ ، حضره ممثلون من رجال الكنيسة البيزنطية ، وفيه اتخذ قرار اللعنة ضد مشروعى هرقل وكونستانس^(١٦) .

ولقد عاقب الإمبراطور كونستانس هذا البابا على موقفه ، فأرسل إليه حاكم راقنا البيزنطى الذى قبض عليه وأرسله إلى القسطنطينية حيث حوكم واتهم بالحياة ثم نفى إلى جزيرة القرم حيث خضع لضنوف من التعذيب والتجويع حتى مات بائساً

(١٦) "... et super haec impiissimam Ecthesim, quae persuasione eiusdem Sergii facta

est ab Heraclio quondam imperatore adversus orthodoxam fidem, unam Christi Dei voluntatem..

et cum illis denuo scelerosum Typum, qui ex suasionem praedicti Pauli nuper factus est a serenissimo principe Constantino imperatore contra catholicam Ecclesiam.."

في منقاه . ولقد اضطر خلفه البابا فيثاليان (٦٥٧ - ٦٧٢) إلى عقد صلح مع الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥) خوفاً من أن يحل به نفس المصير الذي كان كونستانس قد أوقعه بمارتن .

وفي عام ٦٨٠ - ٦٨١ دعا الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى عقد المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية ، حيث تقرر إدانة المذهب المونوثيليتي ، واعترف الآباء المجتمعون بطبيعتين وإرادتين للمسيح^(١٧) . وكان هذا كافياً لإرضاء مشاعر روما ، على حساب مشاعر المناقزة بطبيعة الحال .

أما المجمع المسكوني السابع والأخير فقد انعقد في نيقيا سنة ٧٨٧ لفض النزاع الطويل الذي دار حول الأيقونات . والأيقونات هي صور المسيح والعذراء والقديسين ، وتشمل أيضاً الصلبان والتماثيل والمخلفات المقدسة ، التي كانت بيوت العبادة في الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة البيوتات الديرانية تزخر بها . ولقد تورط المجتمع المسيحي في العصور الوسطى في تبجيل هذه الأيقونات إلى حد وصل إلى مصاف العبادة ، مما يعيد للأذهان تجدد العادات الوثنية القديمة . ومنذ وقت مبكر حذر الآباء الرعية من هذه الشعوذة : فذكر المؤرخ الكنسي يوسبيوس أنها عادة وثنية ، كما وأن المجلس الذي عقد في الفيرا Elvira بإسبانيا في بداية القرن الرابع أدان عبادة الأيقونات أيضاً . كذلك عبر البابا جريجوري العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) عن معارضته لعبادة الأيقونات ورأى في هذه الصور « مجرد أدوات للتعليم الديني للعامة الذين لا يجيدون القراءة » .

والأباطرة الذين شنوا حرباً على عبادة الأيقونات هم أفراد الأسرة الأيسورية أو السورية التي أسسها ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١) وانتهت بانتهاك حكم ثيودورة (٨٢٩ - ٨٤٢) . ويعرف الأباطرة الذين حاربوا الأيقونات « بمحطمي الأيقونات » Iconoclasts ، في حين أن عبادها يعرفون باسم Iconodules . وقد

(١٧) . "Et duas naturales voluntates in eo, et duas naturales operationes indivise, inconvertibiliter, inseparabiliter, inconfuse secundum sanctorum Patrum doctrinam adaeque praedicamus..."

كانت حرب الأيسوريين ضد الأيقونات على فترتين : الأولى من عام ٧٢٦ إلى ٧٨٠ ، والثانية من ٨١٣ إلى ٨٤٣ (١٨) . ولقد اتسمت هذه الحركة بالشدة والقسوة ، وكان جل الضحايا من الرهبان الذين عارضوا هذه السياسة اللاأيقونية في عناد شديد . ويرى المؤرخون في هذه السياسة الأيقونية إصلاحاً اجتماعياً واقتصادياً ودينيّاً في حين واحد : فهي محاولة من جانب الأباطرة لتطهير الكنيسة من العادات الوثنية ، كما وأنها كانت فرصتهم أو حجتهم لتجريد البيوت الديرانية من أموالها الطائلة التي تكدست فيها من النذور والهدايا الوفيرة ، وهي في نفس الوقت تأكيد من جانب الجالس على عرش قنسططين بأنه صاحب صلاحيات الرأس الأعلى للكنيسة إلى جانب مهامه كقيصر : فالإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١) عندما كتب إلى البابا جريجوري الثاني أكد له أنه ذاتياً لا غبار على أرثوذكسيته ، وإنما هو ثائر على العادات الوثنية الرذيلة المتفشية في كنائس الإمبراطورية ، ثم أصر على حقه في أنه « رجل دين وقيصر » في آن واحد ، وهذا هو حقه التقليدي المعروف بالقيصر - بابوية Caesaropapism الذي كان العامل الأكبر في الصراع على مدار العصور الوسطى بين البابا وبين الإمبراطور .

والملاحظ أن جميع الأباطرة الذين أقدموا على تحطيم الأيقونات كانوا من أصل شرقي ، ولعل هذا يعكس أثر الديانتين اليهودية والإسلامية على طريقة تفكير هؤلاء الأباطرة ، ولتدبر عن هذا المعنى المؤرخ المعاصر ثيوفانيس في قوله بأن ليو الثالث كان صاحب « عقلية متأثرة بالتعاليم الإسلامية » . وما يلفت النظر أيضاً أن إرجاع عبادة الأيقونات قد تم على يد سيدتين من أصل إغريقي وهما : الإمبراطورتين إيريني (٧٩٧ - ٨٠٢) وثيودورة (٨٢٩ - ٨٤٢) .

هذا وفي سنة ٧٥٤ عقد الإمبراطور قنسططين الخامس كوبرونيدوس (٧٤١ - ٧٧٥) مجلساً في القسطنطينية حضره ثلثائة من رجال الدين ، ولكن لم يشارك في هذا المجلس أحد من كراسى روما وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية . وقرر المجلس اعتبار من يعبد الأيقونات عدواً للأرثوذكسية وللدولة وحقت لذلك محاكمته . واستمرت

موجات العنف بين أنصار الأيقونية ودعاة اللا أيقونية إلى أن تولت الحكم الإمبراطورة إيريني فدعت بمعونة البطريرك تارازيوس إلى عقد المجمع المسكوني السابع في القسطنطينية في عام ٧٨٦ . وقد حضر إلى هذا المجمع مندوبون من قبل البابا هادريان الأول . وبدأت الاجتماعات في كنيسة الرسل بالقسطنطينية ، غير أن كتائب الجند التي كانت ما زالت تؤيد الأباطرة الراحلين في سياستهم اللا أيقونية هجموا على أعضاء المجمع شاهرين سيوفهم في وجه البطريرك وأعضاء مؤتمره . واضطر المؤتمر إلى الهروب والتفرق . ولكن الإمبراطورة إيريني سرعان ما نجحت في طرد العناصر المعارضة لسياستها من صفوف الجيش . ثم تابع المؤتمر جلساته في سنة ٧٨٧ في نيقيا هذه المرة . وقد عقدت الجلسة الختامية للمجمع المسكوني السابع في القصر الإمبراطوري في مدينة القسطنطينية ، وفيها تقرر إعادة تبجيل الأيقونات كما كانت الحال من قديم ، كما قدم المؤتمر الشكر للإمبراطورة الأم إيريني ولابنها القاصر قنسطنطين السادس وخلع عليهما لقب « قسطنطين الجديد وهيلانه الجديدة »^(١٩) .

* * *

هذا عن الهرطقة وتاريخها في النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية . أما عن الهرطقة في الغرب فلإنا نكتفي هنا بالحديث عن طائفتين فقط هما الدوناتية والبيلاجية^(٢٠) .

وترجع جذور الدوناتية إلى عهد دقاديانوس وشركائه في الحكم على زمن

(١٩) „ Regiae quasi continuati semitae, sequentesque divinitus inspiratum sanctorum Patrum nostrorum magisterium, et catholicae traditionem Ecclesiae, definimus in omni certitudine ac diligentia, sicut figuram pretiosae ac vivificae crucis... : tam videlicet imaginem Domini Dei et Salvatoris nostri Iesu Christi, quam intemeratae dominae nostrae sanctae Dei genitricis, honorabiliumque anglorum, et omnium sanctorum simul et aliorum virorum...”

See Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise; Hughes, P., A History of the Church; (٢٠)
Hefele et Leclercq, Histoire des Conciles. .

الاضطهاد . وقد ظهرت هذه الفرقة في شمال أفريقيا ، الذي كان واقعاً تحت نفوذ الإمبراطور ماكسيميان الذي ابتلى المسيحيين الأفريقيين بنار الاضطهاد ما بين عامي ٣٠٣ - ٣٠٥ . فلقد أمر ماكسيميان محاكم التفتيش بإرهاب الكنائس الإفريقية ، وكانت هذه القسوة سبباً في أن البعض من رجال الإكليروس في الشمال الإفريقي قد ضعفوا واضطروا إلى تسليم الكتب المقدسة والأواني الخاصة بخدمة الأسرار الكنسية إلى السلطات التي تناولت هذه المقدسات بالتدنيس أو التدمير . ولقد ندم نفر كبير من هؤلاء الذين ضعف إيمانهم وقت الشدة ورجعوا في التوبة والعودة إلى حظيرة الأرثوذكسية ، ولكن فريقتاً مغالياً رفض السماح لهم بالعودة ووصمهم بلقب الخونة Traditores أو المرتدين . ولعل في قصة منصور (منسوريوس) أسقف قرطاجة ما يكشف عن أبعاد الموقف : فهو لم يقاوم السلطات عندما أقدمت على إزالة الكتب المقدسة من كنائس أبروشيته ، ولم يتحرك وهو يرى المراسيم الوثنية تقام في بعض الكنائس . ولقد اتهمه فريق « المعترفين » أو « المتطهرين » ، وهم ذلك نفر الذين لاقوا صنوف التعذيب والآلام في صبر وجلد ، بالخيانة والردة . ولم يكتف هؤلاء الغلاة بهذا الموقف وإنما نصبوا من أنفسهم حكاماً للكنيسة وراحوا يتحرشون بالحقوق الشرعية للأساقفة ومن بينهم منصور أسقف قرطاجة . ولكن منصور أعلن أن هنالك فرقاً شاسعاً بين الضحايا الحقيقيين للاضطهاد وبين بعض الناس الذين يتخذون من الاضطهاد ذريعة كاذبة لتحقيق مكاسب مادية على حساب النظام الكنسي وشرعية الأساقفة . ورداً على هذا قامت جماعة « المعترفين » بقطع منصور من شركة التناول في الكنيسة . ولما توفي منصور في عام ٣١١ انتخبت الكنيسة القرطاجية خلفاً له الشماس سيسيليان الذي قرر السير على سياسة سيده الراحل تجاه جماعة « المعترفين » الغلاة . ودبت الفرقة والحزبات الشخصية بين الجماعتين :

فريق سيسيليان وجماعة المعترفين التي برز من بين أنصارها الخطرين امرأة مرموقة هي لوسيلا ، وعدد من أساقفة نوميديا ثم دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae في نوميديا والذي كان يعيش وقتها في قرطاجة . وإلى دوناتاس هذا تنسب الطائفة الدوناتية .

ولما احتدم الخلاف اضطر رئيس أساقفة نوميديا إلى الحضور إلى قرطاجة وفي معيته سبعون من الأساقفة للفصل في هذا الموقف المتأزم . غير أن سيسيليان تجاهل هذا المجمع تماماً ، فأعلن المؤتمر أن سيسيليان غاصب لعرش الأسقفية وعينوا بدلاً منه واحداً من حاشية السيدة لوسيليا واسمه مايورينوس . كذلك قرر المؤتمر أن فيليكس أسقف أيتونجا ، الذي كان قد رسم سيسيليان للأسقفية ، هو أيضاً من « المرتدين » الخونة ، ومن ثم فإن نعمة الاكليروس يجب أن تسقط عنه لأنه لا يصح لمرتد أن يمارس أسرار الكنيسة من عماد وميرون وتناول وزيجة إلخ . وهذه الآراء ليست بالشئ الجديد على كنيسة شمال إفريقيا فهي ترديد لنظرية القديس كبريان .

ولقد تفاقم الموقف في شمال إفريقيا في عام ٣١٢ ، وهو نفس العام الذي شهد انتصار قنسطنطين العظيم على أعدائه في واقعة قنطرة ملثي ، وهو أيضاً نقطة التحول في موقف قنسطنطين إلى جانب الديانة المسيحية بوجه عام . ولما وصلت تفاصيل النزاع إلى مسامع الإمبراطور جاء حكمه في جانب الأسقف سيسيليان ، كما أمر بنزع الأساقفة الدوناتيين عن كراسيهم . ولكن الدوناتيين احتجوا على هذا القرار وطعنوا في شرعية حكم سيسيليان ، طالبين تحكيم أساقفة غالة .

وافق قنسطنطين على مطارحة المسألة من جديد ، وشكل محكمة في روما من عدد من أساقفة غالة وإيطاليا وعلى رأسهم البابا ذاته للفصل في النزاع الدوناتي ، وكان ذلك في أكتوبر ٣١٣ . وانعقدت المحكمة في قصر اللاتيران Lateran ، واستمع القضاة إلى رأى كل من الفريقين ، وانتهوا إلى قرار بأن دوناتوس ليس على صواب في موقفه ، وبأن سيسيليان هو الأسقف الشرعي لقرطاجة . ولكن هذا القرار لم يهتد به الصراع وإنما زاد النار ضرماً ؛ إذ تحفز لكل أسقف كاثوليكي خصم دوناتي ينغص عليه حياته وعلى أبروشيته السلام : وأمام هذا أمر الإمبراطور قنسطنطين موظفيه المدنيين بفحص الأمر عن كثب . وتركزت القضية الآن حول شخصية فيليكس الذي اتهمه الدوناتيون بالخيانة والردة أيام الاضطهاد . ونبش موظفو الإمبراطور في ملفات محاكم التفتيش كما عثروا على القاضي الذي قيل إنه كان قد أصدر قراراً

بالقبض على فيلكس . وأدلى القاضى بشهادته ونفى جميع الشبهات عن فيلكس ، فهو لم يقبض عليه ألبته . وكشفت التحقيقات أيضاً عن أن الدوناتيين قد زيفوا بعض الوثائق لتجريم فيلكس البرىء . وقد أرسل الإمبراطور بهذه الوثائق الخطيرة إلى المجمع المنعقد في مدينة أرلس Arles بغالة (أغسطس ٣١٤) . وقرر المجلس أن طائفة الدوناتية « متهوسة تعصباً » ، وأنها خطر يهدد المسيحية ذاتها . وانتصر المجلس لسيسيليان على خصومه .

لم يكف الدوناتيون عن شغبهم واحتجوا مرة ثالثة إلى قنسطنطين . واضطر الإمبراطور إلى أن يستدعى كلا من دوناتوس وسيسيليان للاجتماع به في مدينة بريسيا ، وبعد مداورة الأمر مع مستشاريه قرر في صالح سيسيليان ، وأمر بأن تنزع الكنائس التي في يد الدوناتيين وتسلم للكاتوليك ، كما حرم على الدوناتيين عقد أية اجتماعات فيما بينهم . وقد تبع هذا قيام عدة ثورات خاصة في نوميديا حيث كان الدوناتيون يسيطرون على الموقف ، فأرهبوا الكاثوليك وقتلوا منهم أعداداً وفيرة .

والدوناتية ، هذا التعبير عن الخلاف المذهبي في ظاهرها ، إنما كانت ثورة اجتماعية عارمة في حقيقة أمرها ، فهي الفرصة التي أتاحت الانفلات للعواطف المكبوتة والكراهيات القديمة والأحقاد الدفينة ضد السادة الرومان والنبالة الرومانية الفاحشة الثراء . وليس أدل على صدق ذلك من حقيقة أنه حينما انتصرت الدوناتية انقضت عصابات من المفلسين والمعدمين ، وهم يرفعون لواء الأسقف الدوناتي تميمة تحميمهم ، ترتكب جرائم السلب والقتل . وهكذا هلك كثير من كاثوليك شمالى إفريقيا وبخاصة من الأثرياء ، فالدوناتيون كانوا ييغون من النبلاء والأساقفة الأعداء رؤوسهم ورؤوس أموالهم على حد سواء . أما هذا النفر من الكاثوليك الذين رفعوا راية الاستسلام للدوناتية فقد أجبروا على قبول المعمودية من جديد وفق المراسيم الدوناتية ، وإن كانوا من الإكليروس أعيدت مراسيم سيامتهم مرة أخرى . وأما الكنائس الكاثوليكية التي سقطت في أيديهم فقد غسلت ثم أعيد غسلها لتطهر من طقوس الردة ، في حين أن ما تبقى فيها من قربان التناول فقد ألقي به على قارعة الطريق وجبة ممقوتة للكلاب الضالة .

ولم تبدأ الأمور إلا في عام ٣٢١ عندما أصدر الإمبراطور قنسطنطين قراراً بالتسامح للدوناتية ، وأمنهم على عقيدتهم وحقوقهم في المناطق التي كانوا قد سيطروا عليها . واستغل الدوناتيون هذا القرار وراحوا يشبتون مراكزهم ويدعمون حركتهم لمدة خمسة وعشرين عاماً . وفي عام ٣٤٧ رأى الإمبراطور كونستانس (قنسطانز) ضرورة تحرير كاثوليك شمالي إفريقيا من إرهاب الدوناتيين ، فقبض على جميع الأساقفة الدوناتيين في نوميديا ونفاهم ، ثم سلم كنائسهم إلى الكاثوليك . وساد السلام حتى ارتقاء جوليان المرتد العرش : فلقد رأى المرتد أن أكبر ضربة يمكنه أن يسدها للمسيحية هي أن يعيد الأساقفة الدوناتيين من المنفى ، وذلك ليثير الفتنة من جديد بينهم وبين الكاثوليك فتضعف بذلك شوكة المسيحية . ولكن جوليان توفي بعد عام من إصدار هذا القرار .

ظلت الاضطرابات تعكر صفو الكنيسة في شمال إفريقيا على عهد الأباطرة فالنتينيان الأول وجرانيان وفالنتينيان الثاني . ولكن باعتراف ثيودوسيوس العظيم العرش انكسرت شوكة الدوناتية ؛ ذلك أن هذا الأمير الإسباني الكاثوليكي العنيد لم يكن ليعرف أنصاف الحلول . ولعل العامل الآخر الذي ساهم في كسر جناح الدوناتية هو ارتقاء القديس أغسطينوس عرش الأسقفية في مدينة هيو في عام ٣٩٦ . ولقد جادل أغسطينوس بحسن منطقته الأساقفة الدوناتيين وحاول إقناعهم بشتى الطرق ، ولكنه تعفف عن سبل العنف والاضطهاد برغم أنه قد تعرض للهلاك ذات مرة على أيديهم . ولم يتوان أغسطينوس في إصدار سيل من الرسائل والمواعظ والمقولات والأناشيد الكنسية لتنفيذ النظريات الدوناتية ، وكانت هذه تعلق على أبواب الكنائس والمساكن العامة لسد الطريق أمام الدوناتية . وقد وقف الأساقفة الكاثوليك صففاً واحداً وراء أغسطينوس في جهاده هذا ضد الدوناتية ما بين عامي ٤٠١ - ٤٠٣ . وفي عام ٤٠٥ أصدر الإمبراطور هونوريوس مرسوماً باعتبار الدوناتيين هراطقة يجب استئصال شأفتهم . وفي عام ٤١١ قرر مجمع قرطاجة إدانة الدوناتية واستمطرها اللعنات . وفي عام ٤١٢ أصدر هونوريوس أوامره بتنفيذ قرارات مجمع قرطاجة هذا ، وبالفعل تم القضاء على فرقة الدوناتية أو هرطقتها - إن شئت .

أما عن البيلاجية فهي تنسب إلى بيلاجيوس الراهب الإنجليزي الأصل الذي

عاش في روما في أواخر القرن الرابع ، واشتهر بالزهد والتعشف . ويرتبط بالبيلاجية اسمان آخران هما سلستيوس البريطاني ، وجولييان من اكلانوم الذي كان أرسطاطيلي النزعة . والنظرية البيلاجية تؤمن بحرية الإرادة عند الإنسان في قضايا الخير والشر ، وبأن ليست هنالك ثمة عوائق تتدخل في حرية الاختيار للبشر ، وعلى هذا فإنه في مقدور الإنسان القوى الإرادة أن يعيش حياة تصل إلى مرتبة الكمال .

وفلسفة بيلاجيوس هذه تهدم الرأي الكاثوليكي التقليدي الذي يقول بأن الخطيئة الكبرى للإنسان الأول — آدم — قد أسقطت عن بني البشر الامتيازات الفضال التي كان الله قد أودعها في آدم وقت الخلق . كما ترفض البيلاجية من هذا المنطلق فكرة أن السقوط الأول في جنة عدن قد أورث بني آدم جميعاً نزوعاً نحو الإثم . وإنما بشر بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية لكل مخلوق فرد تشبه طبيعة آدم البكر النقية وقت الخلق ؛ أي قبل السقوط ، وهذا يعني أنها لم ترث أوزار الإثم الأول : ومن هنا فالإنسان حر تماماً ، بل وليس في حاجة إلى أى عون خارجي لكي يسلك الصواب . وإذا كانت البشرية قد ضلت فإنها ضلت بمحض اختيارها وبحرية إرادتها : « لقد اختطفت لنفسها الاختيار الخطأ » . وفي وسع البشر أن يمارسوا ما زودهم الله به من ملكات تبيح لهم حق الاختيار للصواب ، ولا يستلزم هذا إعادة خلق الآدمية من جديد ، ومن ثم فليس هنالك مبرر لمعمودية جديدة ولا لنظرية الفداء . وطقوس العماد — عند البيلاجيين — مراسيم ظاهرية لا تمس روح الإنسان في شيء ، فما هي إلا طقس خلق يقصد به الموعظة ، ويمكن الاستغناء عنه تماماً .

والصلاح إنما يكمن في أعماق النفس البشرية التي هي من صنع الله ، الخير الأعلى . وهكذا أفرغ بيلاجيوس سر « الفداء » المسيحي من مغزاه الحقيقي ، بل إن تجسد « الكلمة » ذاتها لم يعد أكثر من معجزة كبقية المعجزات الأخرى كإحياء الموتى مثلاً . وأخيراً يخلص بيلاجيوس إلى رأى جريء : لئن نجح الإنسان في الحصول على الخلاص تلقائياً ، أى دون عون خارجي ، فإن هذا يعني أنه غني بذاته عن وسطاء السماء (الإكليروس والكنيسة) بل عن السماء ذاتها . ويتساءل الفيلسوف

الإنجليزى : هل هنالك إذن حاجة إلى الدين ؟ والصلاة بشكلها المعروف تصبح عند بيلاجيوس مجرد هراء وعبث ؛ لأن الله لا يهتم إلا بالقلوب وبالأفعال .

وصل بيلاجيوس ورفيقه سيلستيوس إلى شمالى إفريقيا فى عام ٤١٠ فراراً من جحافل آلاريك المحاصرة لروما . وتقدم سيلستيوس إلى أسقف قرطاجة ليرسمه قسّاً ، ولكن الأسقف رفض طلبه واتهمه بالهرطقة ثم أصدر ضده قراراً بالحرمان . ولهذا ترك سيلستيوس شمالى إفريقيا مخلفاً وراءه نفراً من الأتباع . ولما وصل إلى أفيسوس نجح فى الحصول على منصب كنسى دون عناء . أما بيلاجيوس فقد سافر إلى أورشليم وقوبل هناك بالترحيب الزائد ، وافتتن الكثيرون بعظمة لسانه وحياته الزاهدة . ولكن القديس جيروم ، الذى كان مقيماً آنذاك فى أورشليم ، لم يلبث أن هاجم آراء بيلاجيوس برغم الحماية التى كان أسقف أورشليم قد بسطها على بيلاجيوس . ولما اشتد الجدل حول البيلاجية عقد مجلس فى أورشليم ، ولكن المجلس لم يصل إلى نتيجة حاسمة فأحال الأمر إلى روما فى عام ٤١٥ . كذلك التأم مجلس آخر فى مدينة ديوسبولس Diospolis فى عام ٤١٥ ، حضره أوروذىوس الإسباني نيابة عن القديس أغسطينوس ، وأسقفان من غالة ، وتدارس المؤتمر النظرية البيلاجية ولكنهم لم ينتهوا فيها إلى شىء . وفى عام ٤١٦ تاقى البابا أنوسنت الأول رسالة من القديس أغسطينوس ضمنها شرحاً وافياً لطبيعة الجدل حول البيلاجية ، وبناء على هذا قرر البابا التصديق على قرارات الحرمان ضد بيلاجيوس وسيلستيوس . وفى عام ٤١٨ أرسل البابا زوزيموس قراره المعروف باسم « تراكتوريا » Tractoria إلى شمالى إفريقيا يدين فيه البيلاجية صراحة بالهرطقة . وقد أصدر مجمع قرطاجة السادس عشر (سنة ٤١٨) قراراته بالآناثيا ضد أتباع البيلاجية^(٢١) . أما جوليان

(٢١) Carthaginense Conc., Can. 2.: "Item placuit, ut quicumque parvulos recentes ab uteris matrum baptizandos negat, aut dicit in remissionem quidem peccatorum eos baptizari, sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit consequens, ut in eis forma baptismatis "in remissionem peccatorum" non vera, sed falsa intelligatur- A. S."

من أكلانوم فكان واحداً من أساقفة جنوب إيطاليا المناصرين للبيلاجية ، وقد هرب إلى الشرق عندما أصدر البابا زوزيموس ضده قراراً بالحرمان . وقد وصل جوليان إلى مصيصه حيث تعرف على اللاهوتي الشهير ثيودور أسقف المدينة ، وقد تأثر ثيودور بالبيلاجية إلى حد كبير .

ولقد أفاض القديس أغسطينوس في الرد على البيلاجية ، وجاء رده متوافقاً ، بطبيعة الحال ، مع آراء الكنيسة الكاثوليكية . يقول القديس : إن الله خلق آدم ولم يكن محتاجاً إلى عبوديته بل إن البشر هو المحتاج إلى الربوبية . وزود الرب أبانا الأول بهبة الخلود وإرادة خيرة تماماً ، كما صاغ فيه العقل والحواس وتوج آدميته بالمعرفة . ولكن آدم « انتهى » ثمرة الشجرة المحرمة ، ثم أكل منها بغواية الحية وحواء وبهذا يكون آدم قد « هجر الله » (٢٢) . وتعري آدم وعرف حواء وولدت بالإثم ، وتوارث بنو آدم هذا الإثم (٢٣) . وتشهد سجلات التاريخ بتعاسة البشرية منذ هذا السقوط الأول . ولن يفلت من البشر واحد بسبب الخطيئة الكبرى وهي الجنس ، فابن آدم يجرى وراء الشهوة فيطأ بقدميه القوانين والضوابط .

وهذه النوازع الآدمية الآثمة الموروثة قد وأدت في ذرية آدم عنصر الخلود وحرية الإرادة التي كان الله قد أودعها أصلاً في « الوعاء النقي » ، في آدم الطيب قبل السقوط الأكبر . ولولا « الرعاية » الربانية والعطف السماوي لظلت البشرية متردية في هلاك الهاوية إلى الأبدية ، ولكن الله أرسل « الكلمة » فصارت في

De Civitate Dei, Liber Decimus Tertius, Cap. XV, Col. 387 :

(٢٢)

“Nam in eo quod inobediens motus in carne animae inobedientis exortus est, propter quem pudenda texerunt, sensa est mors una in qua deseruit animam Deus. Ea significata est verbis ejus, quando timore dementi sese abscondenti homini dixit, Adam, ubi es? non utique ignorando quaerens, sed increpando admonens, ut attenderet ubi esset in quo non esset Deus. Cum vero corpus anima ipsa deseruit aetate corruptum et senectute confectum, venit in experimentum mors altera, de qua Deus peccatum adhuc puniens homini dixerat, Terra es, et in terra ibis..”

“Hoc est malum peccati in quo nascitur omnis homo.”

(٢٣)

بطن العذراء جسداً ، وولد المسيح ليفدى البشرية ويغسل آثامها . أما وقد صعد المسيح إلى السموات ، فقد ترك لنا على الأرض كنيسة بأسرارها المقدسة مجسماً للفداء والخلاص ، وما شركة التناول إلا تكرار للفداء وغفران دائم للذنوب والخطايا . والمسيحية على هذا رسالة كنسية تقوم على الفداء وتحمي « بالنعمة » الإلهية التي لا خلاص للبشرية من إثم هذا العالم بدونها .

وبهذه النظرية يكون أغسطينوس قد محا حرية الإرادة وحكم على الجنس البشرى بشيء أشبه بالإعدام ، لأنه لا خلاص إلا من فوق ! أليست هذه ردة إلى القدرية واليأس ؟ !

الفصل الخامس

الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام المتبربرين « ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من أتيللا »

لعله من المفيد أن نأخذ فكرة عن الشعوب الجرمانية المتبربرة التي اكتسحت الإمبراطورية الرومانية من مصدر هام هو المؤرخ تاكيتوس صاحب كتاب « جرمانيا » Germania الشهير^(١). ولد كورنيليوس تاكيتوس سنة ٥٥ م وتوفي سنة ١١٨ . وكان لأحد الفرسان الرومان تلقى تاكيتوس تربية ممتازة ، ثم تدرج في سلك الوظائف حتى صار عضواً في مجلس السيناتو ، وعين قنصلاً لعام ٩٧ ثم حاكماً لولاية آسيا سنة ١١٢/١١٣. وكان تاكيتوس صديقاً مقرباً لبليني الصغير Pliny الخطيب المرموق :

وبلاد الجرمان — في دراسة تاكيتوس — محوطة من الشمال بالمحيط ، ويفصلها الراين والدانوب عن بلاد الغال ، وتفصلها سلاسل جبلية عن سرماتيا وداكيا . وهي بلاد كثيفة ماحلة ، مناخها بالغ القسوة ، وليس فيها ما يسر البصر أو يمتع الأذن — على حد تعبير تاكيتوس ذاته . وأشهر آلهة الجرمان القدامى Tuisto وابنه Mannus ، والأخير هو الجدد الأكبر للجرمان القاطنين بالقرب من المحيط . وهؤلاء اتخذوا أسماءهم القبلية من أسماء أبناء الإله مانوس الثلاثة ، وهذه القبائل هي : Ignaevores و Herminones و Istaevones . وبعض الروايات تسجل أسماء أخرى لبعض القبائل التي تنسب لأبناء آخرين للإله مانوس ، من قبيل Marsi و Gambrivii و Suebi ثم Vandilici .

والجرمان — في رأى تاكيتوس — لم يدخلهم دم غريب لأنهم لا يتزاوجون مع الأجانب . وهم على هذا يكونون عنصراً نقيّاً ويحملون ملامح واحدة تتمثل في العيون الزرقاء اللامعة ، والشعر الأحمر ، والبنيان الضخم . وبلادهم مليئة بالغابات

(١) Tacitus, On Britain and Germany, trans. by H. Mattingly, The Penguin classics, (١)

والأحراش ، وهى رطبة ومعرضة للرياح القاسية . وغالبية الشعوب الجرمانية لا يعرفون العملة النقدية ، وإنما يقضون حوائجهم بالمقايضة .

أما المحاربون الجرمان فإنهم قليلاً ما يستخدمون السيف أو الحربة فى القتال وإنما يقاتلون بالرماح التى يطلقون عليها فى لغتهم اسم *Frameas*^(٢) . وقوام المعارك عندهم فرق المشاة . والمقاتل الجرمانى لا يعرف الهزيمة ، بل إن فقدان الدرع يعد عاراً كبيراً . أما القتلى الذين يسقطون فى أرض المعركة ، فإن رفاقهم يحملونهم معهم إلى المعسكر مهما بلغت خطورة الموقف . ومن يشاع عنه الجبن فى القتال يقدم على شئ نفسه هروباً من العار . والمرأة الجرمانية عامل هام فى تقديم الخدمات للرجال فى المعركة وفى استنفارهم لإحراز النصر ، وإذا لاحت فى الأفق بوادر هزيمة ولولع النساء بصراخ عال وهن يكشفن عن صدورهن ليحذرن الرجال من العار الذى سيتعرضن له إن خسر الجرمان المعركة . ومن بين النسوة المؤهلات عند الجرمان فيليدا وأورينيا . ويقدم الجرمان الأضحيات للآلهة ميركورى وهرقل ومارس ، وتقدم بعض قبائل السويبي الأضحيات للإلهة إيزيس^(٣) . ولا يقدم الجرمان على الحرب إلا بعد أن يستشيروا الآلهة وتبشرهم بالنصر على العدو . ولديهم طريقة غريبة للتعرف على نتيجة الحرب ، وذلك بأن يختطفوا واحداً من رجال العدو ثم يجعلونه يقاتل أحد رجالهم ويحددون نتيجة الحرب على ضوء ما تسفر عنه هذه المباراة الفردية .

ويعقد الجرمان مجالسهم عندما يكون القمر هلالاً أو عندما يكتمل بدرًا . والحساب التقويمى عندهم ليس بعدد الأيام وإنما بالليالى . وعندما يجتمعون للاستماع للملكهم أو كاهنهم يكونون مدججين بالسلاح ، فإن كانت الأنباء التى يذيعها عليهم الزعيم غير سارة زأروا بالضجيج مستنكرين ، وإن كانت الأخبار سعيدة تبادلوا التحية بقرع أسنة الرماح بعضها فى بعض .

ويحق لآى جرمانى أن يرفع مظلمته لمجلس الكبار للفصل فيها . ويتنوع العقاب

(٢) "Rari gladiis aut majoribus lanceis utuntur : hastas, vel ipsorum vocabulo, frameas gerunt angusto et brevi ferro.."

(٣) "Herculem ac Martem concessis animalibus placant; pars Sueborum et Isidi sacrificat.."

عندهم حسب نوع الجريمة : فعقوبة العنف الشنق على الأشجار ، وعقوبة الجبن والتخاذل في الحرب دفن المذنب حيًّا في مستنقع وحل مغطى بأخشاب مغراة بالطمي . ويقصد من هذا التمييز في العقوبة أن تتم عمليات عقاب جرائم العنف في العلانية لتكون درساً ، في حين أن الجرائم التي ينحز منها المجتمع الجرمانى لأنها ليست خليقة بجنسهم ، يتم عقاب مرتكبيها في الخفاء وبالطريقة السالفة الذكر ، تعبيراً عن احتقارهم للمذنب في حق الشرف الجرمانى . أما في المخالفات القانونية الصغيرة ، فتفرض على مرتكبيها غرامات مما يملكون من خيول أو ماشية ، على أن يحصل زعيم القبيلة من هذه الغرامة على جزء ويعطى الجزء المتبقى لأهل من حل به الضرر .

وعندما يبلغ الابن في القبيلة سن الشباب يقلده ولى أمره بالرمح والدرع في المجلس القبلى . أما الشباب من أبناء المقاتلين القدامى فيؤلفون جماعة تعرف « بجماعة الرفاق » وينضمون في خدمة أحد الزعماء . وهم موضع احترام القبيلة كلها لأنهم نموذج الشجاعة والبطولة . ولا يليق بالزعيم أن يتفوق عليه في القتال واحد من هؤلاء الرفاق ، وإن سقط الزعيم في أرض المعركة فإنه من العار على الرفاق أن يعودوا من الميدان أحياء ، ذلك لأن خلق البطولة يحتم عليهم حماية زعيمهم بالدم ، وهذا عرفهم السائر المعروف « بالولاء » Alligantia . ويجرى المثل عندهم « حرب الزعيم للفوز ، وقاتل الرفاق من أجل الزعيم »^(٤) . وكثيراً ما يهجر شباب النبالة العسكرية القبيلة إذا ماركت فيها الحياة القتالية ، بحثاً عن ميادين أخرى للفروسية ، فالحرب رياضتهم الفضلى ومنها يجنون الأغنام والأسلاب . ويؤمن الجرمانى إيماناً قاطعاً أن القتال أشرف السبل للحصول على العيش ، فلا وقت عنده لجر المحراث وتسوية الأرض ، فهذا عمل العاجزين ، وشعاره وداعاً « بالدم لا بالعرق يأتى الخبز ... الخبز الوفير » . والجرمان لا يعرفون حياة المدن بل يعيشون الحياة في الهواء الطلق ويسكنون بيوتات خشبية متباعدة متناثرة فوق الجبال ووسط الغابات والأحراش . وهم يحفرون

(٤) "Cum ventum in aciem, turpe principi virtute vinci, turpe comitatus virtutem

principis non adaequare; jam vero infame in omnem vitam ac probrosum superstitem principi suo ex acie recessisse : illum defendere, tueri, sua quoque fortia facta gloriae ejus assignare praecipuum sacramentum est : principes pro victoria pugnant, comites pro principe."

كهوفاً في بطن الأرض يخفون فيها كنوزهم ، ويهرولون إليها في موسم الصقيع :
والزواج عندهم بواحدة فقط ، ومهر العروسة يتألف من بضع ثيران وخيول وأسلحة ،
وعندما تزف العروس إلى رجلها تحمل إليه هدايا من الدروع النادرة والرماح الجيدة .
والثور إشارة إلى أن العروس جاءت لتشارك رجلها الحناء ، وترمز الخيل إلى أن
الزوج قد يمتطي جواده ويحمل درعه عندما ينفخ في البوق في أية لحظة . والزوجة
الجرمانية وفية الوفاء كله لزوجها وأطفالها وبيتها ، وهي تقوم بالخدمة المنزلية بنفسها
حتى ولو كان زوجها يملك عدداً كبيراً من العبيد .

والمجتمع الجرمانى لا يعرف الربا في المعاملات ، والأرض كلها مشاع للقبيلة يزرعها
لمدة عام ثم ينتقلون إلى قطعة أخرى من الأرض حيث التربة بكر ولا تحتاج إلى
جهد . والغلة الرئيسية عندهم هي القمح . وتنقسم السنة الزراعية إلى ثلاثة فصول
فقط هي الشتاء والربيع والصيف ، فهم لا يعرفون فصل الخريف ولا الغلة
الخريفية .

وتتسم المراسيم الجنائزية في المجتمع الجرمانى بالبساطة ، فهم يحرقون جثة المتوفى
ثم يلقون بأسلحته وأحياناً بجواده في النار . ولكن العويل غير معروف لديهم ،
حقيقة أن بعض النساء قد ينفجرن بالبكاء أمام الناس حزناً على الراحل البطل ،
ولكن البكاء علانية أمر لا يليق بخلق الرجال عندهم ، فليس من شيم الجرمانى
أن يتحجب على شاكلة النساء .

وقبائل الجرمان لا حصر لها ولا عد ، ولكن نظراً لأهمية التعرف على معظم
أسماء هذه القبائل فإننا نورد هنا عدداً كبيراً منها نقلاً عن مصدرنا تاكيتوس :
وأهم هذه القبائل : هلفيتى ، بوى ، أرافيسكى ، أوزى ، ترفيرى ، نرفيى ،
فانجيونيز ، تريبووى ، نيميتز ، أوبى ، باتافى ، شاتى ، ماتياكى ، أوزيبى ،
تنكتيرى ، بروكتيرى ، شامافى ، انجريفارى ، دولجوبنى ، شازيوارى ، فريزى ،
تشوسى ، شريوسكى ، فوزى ، كمبرى ، سوبى ، تنكتيرى ، ريودجنى ،
أفيونز ، أنجليى ، قارينى ، أيدوسيز ، سوارينى ، نيوتونيز ، هرمندورى ، ناريسى ،
ماركومانى ، كوادى ، مارسينى ، كوتينى ، بورى ، هارى ، هلفيكونيز ،

مانيمي ، هليزي ، زاهارقالى (٥) . ويحكى تاكيتوس عن قبائل هارى أنهم يطلون دروعهم وأجسامهم باللون الأسود ، وأنهم يختارون الليالى المظلمة تماماً لخوض معاركهم حتى يبتثوا الرعب « رعب الشياطين » فى قلوب الأعداء .

وهناك أيضاً قبائل الجوثونيز (القوط) والروجي والليموثى والسيونى والأيستى والسيتونز والبيوكينى والثندى والفنى (٦) .

ظلت هذه الشعوب الجرمانية عدة قرون حبيسة عند الجوتلاند والأودر تحت ضغط قبائل الغال . وكانت السلطات الرومانية آنذاك تخطط بين الشعوب الجرمانية والعناصر الغالية . ثم تحرك الجرمان غرباً واستقرت جماعة تونجري Tungri على الضفة اليسرى للراين . ولم تكن روما لتدرك من هم الجرمان حتى سنة ١١٣ ق . م عندما زحفت ز قبائل الكمبرى والتوتونى من مواطنها فى أقاصى الشمال نحو إيطاليا . وفى سنة ١٠٨ ق . م ظهر هؤلاء فى وادى الرون وألحقوا هزيمة قاسية بالقنصل سكاوروس . وفى ١٠٥ ق . م حطم الجرمان جيشين قنصليين عن آخرهما عند واقعة أورانج ، ولو كانت هذه القبائل قد تقدمت بعد هذا النصر الرائع على إيطاليا لما استطاعت قوة أن تصدها . غير أن الجرمان لم يزحفوا على إيطاليا وإنما يمحوا شطر إسبانيا ، ثم مالبثوا أن عادوا إلى بلاد الغال .

استجمعت روما قوتها وتمكن ماريوس (١٥٧ - ٨٦ ق . م) من أن يلحق هزيمة بالتوتونى فى واقعة اكس - إن - بروفانس Aix-en-Provence فى عام ١٠٢ ق . م . ، ثم دمر قوات الكمبرى فى واقعة فرسلاى Vercellae فى عام ١٠١ ق . م . وبعد هذين الانتصارين الحاسمين ساد السلام بين البرابرة وروما قرابة أربعين عاماً . وفى سنة ٥٨ ق . م قام أريوفستوس Ariovistus ملك السويى بغزو بعض الأراضى فى غالة ، فاضطر يوليوس قيصر إلى مقاتلته ورده ورجاله إلى ما وراء الراين .

(٥) Helvetii, Boii, Aravisci, Osi, Terviri, Nervii, Vangiones, Triboci, Nemetes, Ubii, Batavi, Chatti, Mattiaci, Usipi, Tencteri, Bructeri, Chamavi, Angrivarii, Dulgubnii, Chasuarii, Frisii, Chauci, Cherusci, Fosi, Cimbri, Suebi, Tencteri, Reudigni, Aviones, Anglii, Varini, Eudoses, Suarini, Nuitones, Hermunduri, Naristi, Marcomanni, Quadi, Marsigni, Cotini, Buri, Harii, Helvecones, Manimi, Helisii, Naharvali.

(٦) Gothones, Rugii, Lemovii, Suiones, Aestii, Sitones, Peucini, Venedi, Fenni.

ولكن قيصر عقد صلحاً مع أريوفستوس وأغرى السيناتو الروماني على قبول هذا الملك المتبربر « صديقاً » للجمهورية . وقد أتاح هذا الموقف من جانب قيصر الفرصة لأعدائه لأن يتهموه بالخيانة . ثم سادت فترة سلام أخرى بين روما الجرمان ، فلم يتحرك هؤلاء المتبربرون أثناء الحرب الأهلية التي اندلعت بعد اغتيال قيصر (٤٤ ق م) . ولما آل الأمر إلى أوكتافيانوس أغسطس قرر تقليم أظافر الجرمان وردهم إلى ما وراء نهر الإلب ، وقد عهد بهذه المهمة الوعرة إلى ابني زوجته نيرو دروسوس وطيبيريوس ، الذين ألحقا هزائم متتالية بالجرمان . على أن ماربودوس Marbodius ملك الماكروماني قام بثورة ضد روما ، وانتشرت ثورته إلى بانونيا Pannonia وبين قبائل شريوسكي الذين تمكن زعيمهم أرمينيوس (هرمان) في عام ٩ م من إلحاق الدمار والعار بقبائل كونيكتيليوس فاروس Quinctilius Varus الثلاثة وذلك في الواقعة الشهيرة باسم تيوتوبرجر فالد Teutoburger Wald بين نهرى وزر Weser وإمز Ems . وبعد هذه الكارثة نقلت حدود الإمبراطورية (Limes) مع الجرمان إلى نهر الراين مرة أخرى . وفي عهد طيبيريوس قام جرمانيكوس Germanicus ابن أخيه بجهود جبارة لاستعادة الأقاليم الشمالية العربية من أيدي الجرمان . وقد دمر جرمانيكوس الكثير من الأراضي وقتل العديد من السكان في هذه المناطق ما بين عامي ١٤ و ١٦ م ، ولكن أرمينيوس الزعيم الجرمانى المتمرد لم يهتز . وفي نهاية الأمر اضطر الإمبراطور طيبيريوس إلى أن يستدعى جرمانيكوس وينصحه بالعدول عن خطته ضد أرمينيوس .

بعد هذا قسمت حدود الراين إلى منطقتين عسكريتين هما الراين العليا والراين السفلى . وعمل الأباطرة الفلافيون (فسباسيان ، تيتوس ، دومتيان : ٦٩ - ٩٦) على تقوية الجبهة الواقعة بين الراين العليا وأعلى الدانوب . وعلى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) قامت القبائل الجرمانية من بوهيميا وهى الماكروماني والكوادى بعدة غزوات عبر الدانوب ، واستولوا على بانونيا ، ثم توغلوا في إيطاليا حتى اكويليا . ولقد بذل الإمبراطور جهوداً مضنية ليجبر الغزاة المتبربرين على إخلاء الأراضي الرومانية المحتلة .

١ - الهون : The Huns

يمكن تقسيم الشعوب المتبربرة التي كانت تهيم وراء الراين والدانوب إلى قسمين

متمايزين هما الشعوب الجرمانية والشعوب المغولية . والشعوب المغولية جاءت أصلاً من مناطق الاستبس في أواسط آسيا ، ثم ضغطت على الشعوب الجرمانية التي اضطرت تحت هذا الضغط إلى تحطيم الحدود بينها وبين الإمبراطورية الرومانية . والشعوب الجرمانية الأولى هم الأجداد الحقيقيون للدول الأوروبية الحديثة سواء أكانوا من القوط Goths أو الفندال Vandals أو النورديين Norsemen (أهل الشمال) أو السويد Swedes أو الدانيين Danes أو الروس أو الألمان Germans أو الفرنجة Franks أو الأنجلوسكون أو اللومبارد . وهؤلاء جميعاً كانوا يتكلمون لغة مشتقة من أصل هندو - أوروبي Indo-European . والكلمات الأولية لهذه اللغة الأوروبية المبكرة لها أصول مشتركة مع الكلمات الأصول في اللغات السنسكريتية والفارسية : فكلمات من قبيل أب وأم وأخت وخبز في صيغها الفارسية والسنسكريتية والإغريقية واللاتينية والإيرلندية القديمة والإنجليزية والروسية ترجع جميعها إلى أصل واحد .

ولكن لغة الشعوب المغولية تختلف عن هذه اللغات الهندو - أوروبية الأصل ، في حين أنها قريبة من اللغة الصينية . أمر آخر يميز الشعوب الجرمانية عن الشعوب المغولية هو أن الجرمان كانوا أهل زراعة وقرى في حين أن العناصر المغولية كانت بدوا رحلاً تعيش على تربية الخيل . ولم تكن هنالك فواصل بين الشعوب المغولية والشعوب الجرمانية ، وإذا فإنه كلما اشتد الجفاف في مناطق الاستبس ضغطت الشعوب المغولية على القبائل الجرمانية واضطرتها إلى التحرك غرباً مما ترتب عليه عبور الجرمان الراين والدانوب ثم غزوهم روما في نهاية الأمر .

ونجد في كتابات جوردان Jordanes ، الذي نلخص لنا مؤلف كاسيودوروس - الذي فقد - بعنوان Getica أي « تاريخ القوط » ، كراهية شديدة للعناصر المغولية الضاربة في البربرية والعنف . فهو في حديثه عن جماعة الهون من أتباع آتिला Atila يقول (٧) :

« هؤلاء ليسوا ببشر وليس لهم لسان مفهوم كسائر خلق الله . ولا حرفة عندهم إلا الصيد وإدخال الرعب في قلوب الأعداء ، لأن منظرهم مخيف فهم لا يملكون رأساً كالآدميين وإنما لهم كتلة من العظام تقف على العنق وبها ثقبان صغيران يمثلان

العنين . وقسوتهم لا تعرف حدوداً ، كما وأنهم يعاملون مواليدهم بفظاظة زائدة :
ففى اليوم الأول من مولد الطفل عندهم يخذشون وجناته بالسيف قبل أن يسمحوا
له بالرضاع من ثدى الأم . ويقصدون من وراء هذا أن يشعروا كل طفل من
أطفالهم بآلام الجراح قبل أن يستشعر لذة لبن الأم . ولهذا فإنهم يشبون على الشراسة ،
وهم بطبيعة الحال ليسوا أصحاب لحي (٨) :

وقد تمكن الهون وحلفائهم من الآلان Alans من تحطيم مملكة القوط الشرقية
وأجبروا قبائلها على الفرار أمامهم فى كل صوب فى أوربا . ولم يكن هذا الانتصار
إلا نتيجة لاكتشافات حربية هائلة توصل إليها الهون ألا وهى حدود الخيل وسروجها :
فالحدوة سهلت على الخيل قطع المسافات البعيدة فى وقت قصير ودون كلل ، والسرج
مكن المقاتلين من دخول الحرب وهم على ظهور جيادهم . ولقد تفنن الهون فى ركوب
الخيل إلى حد أنهم كانوا يتناولون وجباتهم الغذائية وهم على ظهور الخيل ، بل
كانت مجالسهم السياسية تعقد وهم أيضاً على ظهور الخيل ، مما دعا البعض إلى
الاعتقاد بأن الهون لا يعرفون السير على الأقدام . وكان اكتشاف الحدوة والسروج
فى ذلك العصر يمثل انقلاباً حربياً خطيراً ، وكانت هجمة الهون بنحيوها وسيوفها
دفعة واحدة أشبه ما تكون فى الحروب الحديثة بهجوم مفاجئ للمدرعات أو
الدبابات . ولقد ذهل القوط من هول المفاجأة الهونية وانهارت مملكتهم تحت حوافر
الخيل المغولية . واتخذ الهون من بانونيا مقراً لهم وكانت قبائلهم تموج ما بين الراين
والقوبلجا . أما القوط فقد فروا إلى شواطئ الدانوب وراحوا يستصرخون السلطات
البيزنطية لكى تسمح لهم بعبور النهر وبلا استقرار فى الأراضى الواقعة جنوب الدانوب
وكان ذلك فى عام ٣٧٦ . وفى عام ٣٧٨ وقع ما لم يكن هنالك بد منه ، وإذا
اصطدم القوط بجيوش الإمبراطورية فى واقعة أدريانوبل وسقط الإمبراطور الرومانى
ذاته — فالنس — صريعاً فى ميدان القتال . ويجب أن نلاحظ أن القوط قد
أجبروا على مقاتلة الرومان لأن جحافل الهون كانت تلهب ظهورهم بالسيوف فاضطروا
إلى عبور الدانوب .

Also Ammianus Marcellinus, Res Gestae, XXX, 2 :

(٨)

“.. Ubi ab ipsis nascendi primitiis infantum ferro sulcantur altius genae, ut pilorum vigor tempestivus emergens corrugatis cicatricibus hebetetur..”

لم يكن الهون في ذلك الوقت قد اتحدوا تحت زعامة ملك واحد ، بل إن بعضاً منهم قد خدموا جنداً مرتزقة مع القوط ضد بني جلدتهم ، وهم الذين علموا العناصر الجرمانية فن ركوب الخيل والقتال من على ظهورها . وما يلفت النظر أن الزعيمين اللذين قادا الأنجلو سكسون لغزو بريطانيا كانا يحملان كنية مشتقة من كلمة « الفرس » : فواحد منهما اسمه هنجست Hengest ومعناها « الحصان » ، والآخر عرف باسم هورسا Horsa وهو اسم لا يحتاج إلى تفسير^(٩).

فزعت شعوب الإمبراطورية الرومانية من البرابرة الهون ، وتسابقت السلطات الحاكمة في تقديم الهدايا الفاخرة من الذهب والفضة إلى زعمائهم لتشتري ودهم وتقي شروهم . وكان رجال الهون مثل نساءهم يتحلون بالمجوهرات والبروشات والأقراط . ولقد وصف برسكوس Priscus سفير البلاط البيزنطي إلى بلاط أتيللا الثراء الفاحش الذي رآه هناك : فلقد شاهد منازلهم الفاخرة المصنوعة من أجود أنواع الخشب والتي لها أعمدة مطلية بالذهب . أما أرصفة الطرقات المؤدية إلى بيت زوجة أتيللا فكانت مغطاة بالسجاد .

وفي سنة ٤٥٠ عبر أتيللا نهر الزاين وتوغل في بلاد الغال ثم ضرب حصاراً حول مدينة أورليانز . ولكن ميروفيتش الزعيم الفرنجي السامي هب لنجدة المدينة ومعه رجاله من الفرنجة واللايث والأرموريك والبريون والسكسون والبرجنديين والسرماطين والآلان والربواريان . وانضم إليه ثيودوريك ملك القوط الغربيين وولداه . كذلك خف لنجدة أورليانز الباتريكيان أثيتيوس قائد الجيوش الرومانية . وقد اضطر أتيللا إلى رفع الحصار عن مدينة أورليانز وأثناء تفهقره انقض عليه الحلفاء في معركة هائلة في حقول قطالونيا سنة ٤٥١ . انسحب أتيللا وجيشه بعد هذه الهزيمة إلى عاصمته في بانونيا (في قرية توكاي الحالية) . وفي العام التالي هاجم أتيللا شمال إيطاليا ولكن مطاردة أثيتيوس وفصائله له إلى جانب الوباء الذي انتشر بين جنود الهون أجبر أتيللا على الانسحاب من إيطاليا . وهناك رواية أسطورية تتحدث عن مقابلة تمت بين البابا ليو الأول

(٩) For the Barbarian movements and Settlements, see Lot, *Les Invasions Germaniques*;

L. Halphen, *Les Barbares*; Wallace Hadrill, *The Barbarian west, 400-1000*; R. Grousset, *L'Empire des Steppes*; Thompson, E.A., *A History of Attila and the Huns*.

الإمبراطورية الرومانية

العظيم. وآتيللا على نهر Mincio ، وعندما دخل البابا معسكر الملك المتبربر ظهرت فوق رأس ليون هالات القديسين بطرس وبولس ، ففزع الملك من هذا المنظر وعاد عن غزوه لمدينة روما . وقد فر الكثيرون من سكان مصب نهر بو خاصة من عائلات اكويلا وبادوا إلى الجزر المجاورة هروبا من سيوف آتيللا ، وعلى هذه الجزر قامت النواة الأولى لمدينة البندقية .

بعد رجوع آتيللا من غزوه الفاشلة على إيطاليا أضاف إلى حريمه شابة صغيرة هي إلديكو Eldico لتخفف عنه مرارة الفشل . وفي صبيحة اليوم التالي اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد انتابته من فرط الشغل فمات . وكان ذلك في عام ٤٥٣ . كان آتيللا يحتقر الرومان وكانت خطته تبغى بناء إمبراطورية مغولية على أنقاض إمبراطورية الرومان . ويحكى عنه أنه عندما استولى على القصر الإمبراطوري في ميلان قد استاء من اللوحات التي كانت تمثل الأباطرة الرومان جالسين على عرشهم في حين أن أمراء سكيزيا Scythia المتبربرين قد انبطحوا أرضا يقبلون قدمي العاهل الروماني ، فأمر الفنانين بتغيير مضمون هذه اللوحات بأن صوروا الأباطرة الرومان صاغرين يقدمون جزية الحرب من الذهب للعاهل الهوني آتيللا . هذا وقد كان من بين خدم آتيللا بعض الأغارقة الذين كلفهم الملك بالكتابة عنه لتخليد ذكره . وبعد موت آتيللا تمزقت مملكة الهون، وحاول ابنه إلالا Ella قمع الشرابات التي اندلعت بين القبائل ولكنه قتل أثناء هذا الصراع في عام ٤٥٤ . وبهذا تحررت قبائل القوط والسلاف المستعبدة من أغلال آتيللا وولده ، وبدأت هذه القبائل تهييم على وجهها. تقذف بها الظروف إلى حيث شاءت .

(٢) القوط الغربيون Visigoths

(٣) أدواكر (٤) البرجنديون (٥) القوط الشرقيون Ostrogoths

أما عن الشعوب الجرمانية الغربية فهي تظهر أول ما تظهر في التاريخ مستوطنة حول الحافة الغربية القصوى لبحر البلطيق ، في السويد وجوتلاند وشلزويج هولشتين ، وعلى الشواطئ الجنوبية للبلطيق . تحرك بعض هؤلاء الجرمان جنوباً قبالة مصب الراين ، وفي عام ٢٥٨ تمكنت فرقة من جماعة الألمانى Alemanni من عبور الراين واحتلت راثيتيا Rhaetia في حين حاولت جماعة أخرى هي الفرنجة الهجوم على غالة ولكنها صدت عنها فاستقرت على الحافة اليمنى للراين التي عرفت فيما بعد باسم فرانكونيا وهي الدوقية الوسطى لألمانيا المتمركزة في حوض نهر المين ومدينة فرانكفورت .

وفي الوقت نفسه كانت شعوب جرمانية شرقية - قوامها من القوط - تتحرك هي أيضا صوب الجنوب قبالة أحراش پريپت Pripet . وفي سنة ٢٥٠ تمكنوا من إرساء إمبراطورية شاسعة على شواطئ البحر الأسود الشمالية . وكان يجاورهم جماعة الفن Finns من الشمال الغربي والآلان Alans من الشرق . ثم ما لبثوا أن زحفوا على بلاد البلقان الغنية لنهب خيراتها . ولقد صادف القوط في تحركاتهم نجاحاً رائعاً يرجع الفضل فيه إلى تعلمهم فن القروسية من أعدائهم المغول : ولقد هزموا الجيش الإمبراطوري وقتلوا الإمبراطور ديكْيوس في واقعة دوبروجا Dobrudja سنة ٢٥١ ، وفي عام ٢٦٠ توغلوا إلى قلب البلقان ولم يستطع الإمبراطور ثاليريان أن يقاومهم . وقد أقام هؤلاء القوط الشرقيون Ostrogoths عاصمتهم في كيرش Kerch في شبه جزيرة القرم ، وفي عام ٣٥٠ كانوا يخضعون جميعاً لزعيم واحد هو الملك أرمانارك . ولكن الهون حطموا مملكة أرمانارك في عام ٣٧٦ وانتحر الملك من اليأس والفرع . وحاول خلفه آثانارك مقاومة عدوان الهون دون جدوى . وتحت ضربات الهون التي لم تكف اضطرت القوط الشرقيون إلى عبور الدانوب ، ثم دارت الحرب بينهم وبين السلطات البيزنطية وقتلوا الإمبراطور فالنسن في واقعة أدريانوبل سنة ٣٧٨ .

أما بقية شعب القوط في شمال البنخر الأسود فقد صاروا عبيداً للهن . وفي أثناء تلك الفترة المضطربة الغامضة من التاريخ تمكن أولفيلا Wulfila من نشر المبادئ المسيحية بين بني جلدته القوط . وكان أولفيلا أريوسياً . ولذا فإن الشعوب الجرمانية جميعاً (اللهم إلا الفرنجة) كانوا على المذهب الأريوسي . وقد ترجم أولفيلا الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية التي كان قد اخترع لها أبجدية خاصة لهذا الغرض . وقد مات أولفيلا في عام ٣٨٨ واستحق لقب « رسول القوط » .

سمح الإمبراطور ثيودوسيوس للقوط الغربيين بالاستقرار في شمال البلقان وقدم لهم الهدايا والعطايا . وعند وفاة ثيودوسيوس توقفت الهدايا الوافدة من البلاط البيزنطي إلى المعسكر القوطي . ثم اختار القوط لهم ملكاً هو ألاك Alaric الذي كان من بيت بالثي Balthi العريق والذي معناه « الشجاعة » . وفي سنة ٤٠٠ أعد ألاك جيشاً ضخماً لغزو إيطاليا ، ثم عبر قنطرة كانديدانوس التي تقع على مشارف مدينة رافنا . وحاصر ألاك روما لمدة ثلاثة أعوام ، ولم تفلح جهود القائد ستيليكو Stilicho ضد حصار ألاك . وكان ستيليكو من أصل متبربر ، ولقد ساورت الإمبراطور هونوريوس الشكوك في نوايا ستيليكو واعتقد أنه متعاطف مع ألاك فأعدمه في عام ٤٠٨ . وفي عام ٤١٠ سقطت روما في يد ألاك ، وعمل القوط نهباً وتخریباً في بيوت نبلاء الرومان . ولكن ألاك منع رجاله من قتل الناس بالجملة ، ومع أنه كان أريوسياً إلا أنه لم يمس الكنائس الكاثوليكية في روما .

فزع العالم لسقوط روما في أيدي هذا المتبربر ، وظن المسيحيون أن نهاية العالم قد اقتربت . وبعد هذا قرر ألاك عبور البحر الأبيض للسيطرة على شمال أفريقيا ، ولكن عاصفة حطمت أسطوله ، ثم توفي ألاك في نهاية عام ٤١٠ . ولم يرغب قوط ألاك في دفن زعيمهم في ضريح يتركونه وسط الإيطاليين الأعداء ، بل أرادوا تكملة شوطهم صوب شمالي إفريقيا ، ولذا قرروا دفنه في قاع أخذ الأنهار في ضريح مجهول حتى لا تمتد إليه يد الأعداء (١٠) . واختاروا خلفاً له صهره أثولف Athaulf الذي رأى في نفسه « باعث الإمبراطورية الرومانية » Restitutor Orbis Romana

(١٠) . "Qua Jordanès, De origine actibusque Getarum, éd. Th. Mommsen, p. 99 :

—adversitate depulsus Halaricus, dum secum quid ageret deliberaret, subito in matura morte

وقد عدل أثولف عن مشروع سلفه الأفريقي وقرر الاستيطان برجاله في غالة ، ووقع اختياره على مدينة تولوز عاصمة لمملكة القوط الغربيين . ويبدو أن الإمبراطورين الأخوين أركاديوس وهونوريوس قد رغبا في كسب ود هذا للزعيم المتبربر فوافقا على زواجه بأختهما جاللا بلاسيديا Galla Placidia ، التي كانت قد وقعت أسيرة في يده في روما ، وقد عقد أثولف قرانه عليها في مدينة ناربون .

توفي أثولف سنة ٤١٥ وصار حكم القوط الغربيين إلى سيجريك Sigeric الذي قتل كل ذرية أثولف وأساء معاملة جاللا بلاسيديا ، ولهذا فقد اغتيل بعد أسبوع واحد من توليه العرش على يد زعيم اسمة ثاليا Wallia . ثم قامت جاللا بلاسيديا بدور الوسيط بين ثاليا والبلاط الروماني ، واتفق على السماح لها بالعودة إلى إيطاليا مقابل إرسال شحنات من القمح إلى القوط والاعتراف بثاليا حاكماً على أقطانيا (أراضي فرنسا الحديثة جنوبى نهر اللوار) ، على أن يتعهد هو ورجاله بتطهير غالة وإسبانيا من عناصر الآلان والسويث Sueves . أما عن جاللا بلاسيديا فقد تزوجت الباتريكيان قنسطنطينوس الذى شارك هونوريوس حكم الإمبراطورية في عام ٤٢١ ، وعندما توفي هونوريوس في عام ٤٢٣ صارت مقاليد الأمور في النصف الغربى للإمبراطورية في يدها لمدة خمسة وعشرين عاماً ، بوصفها وصية على ابنها الإمبراطور القاصر ثالنتينيان الثالث . ولقد أقامت جاللا بلاطها في مدينة رافنا ، وهى تقف وسط ظلام هذا العصر العنيف مثلاً واضحاً لنوعية العلاقات بين النبالة الرومانية والأمراء المتبربرين ، كما تفسح سيرتها عن روح العصر والتناقضات التى كانت تتحكم فيه وقد توفيت بلاسيديا في روما في عام ٤٥٠ م .

في خلال ذلك الوقت نجح القوط الغربيون في توطيد حكمهم في غالة وإسبانيا ،

praeventus rebus humanis excessit. Quem nimia sui dilectione lugentés Busento anne juxta Consen=
tina civitate de alveo suo derivato — nam hic fluvius a pede montis juxta urbem dilapsus fuit
unde salutifera — hujus ergo in medio alvei collecta captivorum agmina saepulturae locum
effodiunt, in cujus foveae gremium Halaricum cum multas opes obruunt, rursusque aquas in suo
alveo reducentes, et ne a quoquam quandoque locus cognosceretur, fossores omnes intereme=
runt...".

كما طهروا البلاد من عناصر الآلان والسويث ،.. كما أجبروا جزريك Gaiseric زعيم القنдал على الإبحار إلى أفريقيا . وفي عام ٤٥١ حققوا معجزة كبرى بإيقاع الهزيمة بجيش أتيللا ملك الهون في حقول قطالونيا .

هذا وقد أقامت جماعة جرمانية أخرى هم البرجنديون مملكة لهم في غالة : ويصف جوردان هؤلاء البرجنديين بأنهم « أقوياء الحناجر ولهم شهية الخيل في الطعام » وكان من عاداتهم تليين شعورهم الصفراء بالزبد . والبرجنديون أيضا من مواطن البلطيق ، ومنها زحفوا قبالة الراين . وفي سنة ٢٦٨ هجموا على مدينة ميتر حيث قاتلهم الإمبراطور ماكسيميان ، وفي سنة ٤٠٦ فر البرجنديون هلعاً من ضربات الهون فعبروا نهر الراين ، وفي سنة ٤١٣ سمحت لهم السلطات الرومانية بالاستيطان كمعاهدين Foederati جنوبي مناطق استيطان الفرنجة حول مدائن ورمز Worms وميتر Mainz وسباير Speyer . على أنه في عام ٤٣٧ حرضت السلطات الرومانية زعماء الهون على استئصال شأفة البرجنديين لتطهير غالة منهم تماماً ، وقد ذبح الهون منهم أعداداً مهولة . أما الباقيون فقد فروا واستقروا في حوض الرون الأعلى ، حوالي عام ٤٤٣ ، وأصبحت منطقة ساقوى هي برجنديا العصور الوسطى . وكان الملك برجنديا — جندوباد Gundobad — كلمة مسموعة في السياسة الرومانية لأن عمه ريكيمير Ricimer كان يشغل منصب الباتريكيان في روما . وبعد وفاته في عام ٤٧٢ صارت صلاحيات هذا المنصب إلى جندوباد . والبرجنديون كسائر العناصر الجرمانية الأخرى كانوا على المذهب الأريوسي . ولكن إحدى أميراتهم وهي كلوتلد Clotilde كانت على الكاثوليكية ، وقد قدر لها أن تؤثر على مستقبل الفرنجة جميعاً بزواجها من كلوفيس Clovis زعيم الفرنجة ، إذ شجعته وشعبه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي .

ولقد تدفقت قبائل الفرنجة عبر الراين بعد أن كان القنдал والسويث والبرجنديون قد حطموا هذا الحاجز في أعوام ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ على التوالي . وكان الفرنجة على الوثنية ، ولم يكونوا قد تأثروا بالأساليب والحضارة الرومانية ، ولكنهم كانوا على علاقات بالهون ومنهم تعلموا ركوب الخيل وأفانين الفروسية . وبعد اقتحامهم حدود الراين استقر الفرنجة في نطاقين : الأول في بلجيكا وهولندا الحاليتين وهؤلاء عرفوا باسم الفرنجة السالين Salian بين نهري سالا وشلت ، والثاني على ضفاف الراين حول

كولون وتزير وهؤلاء عرفوا باسم الريبوريان Ripurians . وفي سنة ٤١٠ عقد الإمبراطور هونوريوس مع الفرنجة بشقيهم معاهدة أقدم بمقتضاها على مواقع استيطانهم سالفة الذكر . وفي سنة ٤٨٦ زحف الفرنجة تحت قيادة زعيمهم كلوفيس على غالة ليستقروا فيها بصفة نهائية .

ومما يلفت النظر أنه في وسط هذه الفوضى الضاربة التي خلقها الجرمان كانت الإمبراطورية قد انقسمت بالفعل إلى قسمين : فبعد وفاة ثيودوسيوس العظيم (٣٩٥) حكم أركاديوس النصف الشرقى من العاصمة الجديدة القسطنطينية ، في حين أن هونوريوس نقل بلاطه إلى رافنا . كذلك لم تعد للإمبراطور قوة فعلية وإنما باتت السلطة الحقيقية في يد قواد الجيش الذين كانوا في أغلب الأحيان من العناصر المتبربرة المرتزقة .

في هذه الظروف المتقلبة وصل إلى إيطاليا شاب جرمانى طموح هو أودواكر Odovaker . وهو أصلاً من بانونيا من إحدى قبائل هروليا ، وقد قدم إلى إيطاليا بحثاً عن المغامرة والسلطان . وكان أورستيز Orestes قائد القوات الرومانية قد عين ابنه روميلوس أغسطس إمبراطوراً . ولما أوقفت السلطات الرومانية العطايا عن الجرمان وقطعت الرواتب عن الجند المرتزقة طلب أودواكر إلى هذه العناصر المتبربرة المتذمرة الانضمام إلى معسكره ووعدهم بالمال والغنائم الوفيرة . وانضمت جماعات كثيرة من الجرمان إلى الزعيم أودواكر الذى ضرب حصاراً حول مدينة بافيا حيث كان يقيم أورستيز . ولما حاول أورستيز الفرار قبض عليه أتباع أودواكر بالقرب من بلدة بياتسنا ثم أعدموه . بعد هذا سقطت روما في يد أودواكر ، وكان ذلك في عام ٤٧٦ ، ثم أجبر الإمبراطور روميلوس أغسطس على المثل أمام السيناتو واعتزال منصبه ، ثم قرر أودواكر نقله إلى نابولي (١١) .

أرسل أودواكر النياشين الإمبراطورية إلى زينون في القسطنطينية وكتب السيناتو

(١١) Jordanés, op. cit., pp. 119-120 : "Augustulo veroa patre Oreste in Ravenna

imperatore ordinato non multum post Odoacer Torcilingorum rex habens secum Sciros, Herulos diversarumque gentium auxilios Italiam occupavit et Orestem interfectum Augustulum filium ejus de regno pulsum in Lucullano Campaniae Castello exilii poena damnavit..".

إلى الإمبراطور - بإيجاء من أودواكر - بأنه ليست هنالك حاجة إلى إمبراطور في الغرب لأن إمبراطوراً واحداً قوياً في القسطنطينية كفيل بحماية النصفين الشرقي والغربي معاً . وفي نفس الرسالة أبدى شيوخ السيناتو موافقتهم على نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية وتنازلهم عن حق مجلسهم في انتخاب الإمبراطور . وقد طلب السيناتو إلى الإمبراطور زينون أن ينعم بلقب باتريكيان على أودواكر وأن يمنحه حق حكم إيطاليا . غير أن زينون لم يجب على مطلب السيناتو رفضاً أو إيجاباً ، ولكنه عامل أودواكر على أنه باتريكيان دون أن يسبغ عليه هذه الصلاحيات بصفة رسمية . غير أن أودواكر لم يكن لينتظر موافقة زينون أو رفضه بل نصب نفسه باتريكيًا ثم ملكاً على إيطاليا . ثم وزع ثلث أراضي إيطاليا على كتائبه . كان حكم أودواكر لإيطاليا حكماً طيباً ، فقد أعاد منصب القنصلية من جديد (في سنة ٤٨٢) واحترم سيادة القانون والتقاليد الرومانية . ومن الناحية النظرية كانت حكومته لإيطاليا تخضع لإشراف الإمبراطور الشرعي لبيزنطة ، ولكن في واقع الأمر كان أودواكر حاكماً مستقلاً تماماً . وقد قمع أودواكر ثورة قامت في دلماشيا كما عاقب بعض العناصر المتبربرة التي غزت الأراضي الواقعة بين نهري دراف وساف . وأعاد هذا الزعيم المتبربر السلام إلى إيطاليا بعد أن حرمت منه فترة طويلة . وفي عام ٤٨٧ هاجم أودواكر القبائل الروجيانية Rugians في بانونيا وأوقع بهم الهزيمة ثم أسر فردريك ابن ملكهم فليثيوس Feletheus . ولكن فردريك نجح في الفرار من الأسر وبلغ إلى القوط الشرقيين وتوسل إلى ملكهم ثيودوريك أن ينتقم له من أودواكر .

كان القوط الشرقيون قد نجحوا سنة ٤٦٢ في غزو إقليم الليريا ، واضطر الإمبراطور إلى تهدئة أطماع زعمائهم بتقديم الرشوة إليهم . ثم بعث ثيوديمير ملك القوط الشرقيين ابنه ثيودوريك ، الذي كان صبيّاً في السابعة من العمر ، رهينة إلى القسطنطينية ، وبقي هناك حتى سن الثامنة عشرة . ولقد كان لهذه الإقامة الطويلة في القسطنطينية بالغ الأثر في خلق الفتى ثيودوريك الأمير المتبربر . وعند عودته إلى بلاده اختير ملكاً خلفاً لوالده ، في عام ٤٧٥ . وكان الإمبراطور زينون يحيطه بالكثير من العطف والمحابة .

لما وصل فردريك - هارباً من الأسر - إلى بلاط ثيودوريك يستنجد به

ضد أدواكر ، طلب ثيودوريك الإذن من الإمبراطور زينون بأن يسمح له بالزحف على إيطاليا ، واعداداً بطرد أدواكر منها وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية . والواقع أن زينون لم يكن على خلاف مع أدواكر فقد كان حكمه لإيطاليا عادلاً ، ولكن الإمبراطور رأى في خطة ثيودوريك الفرصة الذهبية للتخلص منه ومن قبائله . جاء رد زينون على ثيودوريك غاية في الدبلوماسية ، فهو لا يحمل موافقة صريحة ؛ وذلك لأن الإمبراطور لم يكن في موقف يستطيع معه أن يغضب ثيودوريك أو أدواكر .

وفي صيف ٤٨٨ جمع ثيودوريك رجاله عند مدينة نوفا ومنها زحف على إيطاليا . وفي الطريق كان على ثيودوريك وكتائبه أن يشقوا طريقهم بالسيف فاضطروا إلى مقاتلة قبائل الجيبينى Gepidac وغيرهم من جحافل المتبربرين المنتشرين في كل مكان . وفي خريف ٤٨٩ دخل ثيودوريك إيطاليا واشتبك مع قوات أدواكر في عدة معارك كان النصر فيها . لمعسكر ثيودوريك . ولقد فر أدواكر ذاته من ميدان القتال في الواقعة الحاسمة التي اشتعلت بين الطرفين عند فيرونا . ومع أن ثيودوريك كان على المذهب الأريوسى إلا أنه لقي تأييداً كبيراً في شمال إيطاليا من جانب الأساقفة الكاثوليك . وعند ميلان حلت الهزيمة مرة أخرى بأدواكر ، فهرب إلى رافنا . ضرب ثيودوريك حصاراً حول رافنا ثلاثة أعوام ، وأخيراً اتفق الزعيمان المتبربران على أن يعقدا صلحاً وأن يحكما إيطاليا سوياً . وفي أثناء حفل الصلح دبر ثيودوريك مؤامرة دنيئة اغتال بها أدواكر (سنة ٤٩٣) ، وانفرد بعد ذلك بحكم إيطاليا ، ملكاً على القوط الشرقيين .

ونحن مدينون لكاسيودوروس Cassiodorus في الحصول على أخبار عهدي أدواكر وثيودوريك ، ومع أن كتبه الاثني عشر عن تاريخ القوط فقد فقدت إلا أن جوردان قد حفظ لنا موجزاً لهذا التاريخ في كتابه الشهير بعنوان Getica أى « تاريخ القوط » . كان فلاقيوس ماجنوس أوريليوس كاسيودوروس (٤٧٧ - ٥٧٠) ينحدر من عائلة رومانية نبيلة . وقد تدرج في مختلف المناصب حتى أصبح عضواً في السيناتو . ولقد عمل كاسيودوروس وزيراً لثيودوريك ، ثم كوايستورا Quaestor في القصر الملكي في رافنا سنة ٥٠٠ ، ثم عين باتريكيان فقتل سنة ٥١٤ ، وأخيراً اختير رئيساً للديوان الملكي في سنة ٥٢٦ وهو العام الذي توفي فيه ثيودوريك . وفي عام ٥٣٤

صار كاسيودورس حاكماً برايتوريا، وهو الذى ألقى خطبة التهئة لثيودوهاذ Theodohad عند اعتلائه العرش بعد وفاة آثالارك Athalaric ، وقد تبوأ منصباً مرموقاً أيضاً على عهد الملك فيتيغيز Witigis . وبعد أن حطم الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥) مملكة القوط الشرقية ، سمح لكاسيودورس أن يعتزل الحياة العامة إلى ضياعه في سكويلاس Squillace ، وهناك أسس بيتاً ديرانياً للرهبان الدارسين أو العلماء . ولقد عاش الرجل طويلاً حتى بلغ ٩٣ عاماً . وله إلى جانب تاريخه غن القوط عدة رسائل متنوعة بعنوان Variae ، وهى ذات قيمة تعليمية وأخلاقية تشرح ما يجب على موظفى الدولة أن يتبعوه في تصريف أمور الدولة ومصالح الرعية (١٢) . اتخذ ثيودوريك لنفسه اسماً رومانياً هو فلافيوس ، انتماء منه إلى الأسرة الفلافية Gens Flavia ، كما كان يخاطب الإمبراطور فى القسطنطينية فى أسلوب دبلوماسى رائع على أنه الخادم والابن المطيع (ego qui sum servus vester et filius) أما العملات التى سكها ثيودوريك فى رافنا وروما وميلان فكانت تحمل اسم الإمبراطور لا اسمه هو ، مكتفياً بأن يحمل ظهر العملة الحرفين الأولين من اسمه . ولم يقدم ثيودوريك على إصدار قوانين Leges تشبهاً بالإمبراطور ، وإنما اكتفى - عندما دعت الضرورة - بإصدار بضع مراسيم Edicta ، وكان يخاطب أعضاء السيناتو بلقبهم الموقر : Patres Conscripti . ولقد قام ثيودوريك بعدة إصلاحات للنهوض بالزراعة فى إيطاليا ، وشجع التعليم ودفع الرواتب للخطباء كما كانت الحال قديماً ، وأظهر احتراماً بالغاً للنظم والقوانين الرومانية .

اعتبر ثيودوريك نفسه ممثلاً للإمبراطور فى إيطاليا (١٣) . ومن هذا المفهوم رأى فى نفسه أيضاً مشرفاً على الممالك الجرمانية الأخرى التى كانت جميعها - قبل اعتناق كلوفس الفرنجى للكاتوليكية - على المذهب الأريوسى . وبعد أن هزم الفرنجة القوط الغربيين فى واقعة Campus Vogladensis سنة ٥٠٧ ، بات الخطر يهدد ثيودوريك ونفوذه فى البحر المتوسط . ولهذا عمل ثيودوريك على أن يؤمن لمملكته الممر الساحلى على البحر الذى يصل إيطاليا بتولوز ، ثم عين الكونت ثيوديز Theudis نائباً عنه

Cassiodorus, Variae, in M.G.H.

(١٢)

See Deanesly, M., A History of Medieval-Europe, (Methuen.), Ch. III.

(١٣)

في حكم القوط الغربيين في إسبانيا من مقره في ناربون . كذلك عقد ثيودوريك تحالفاً مع أعداء الفرنجة ، ورحب باللاجئين من عناصر الألمان الذين فروا من وجه الفرنجة ، كما بسط حمايته على عناصر الثورنجي والهريولي . وسعى ثيودوريك أبصاً إلى أن يخطب ود كبلوفس ملك الفرنجة عن طريق المصاهرة فطلب يد أخته أودوفليدا Audofleda ، ومع أن هذا الزواج قد تم (٤٩٥) إلا أن الفرنجة ظلوا يضمرون العداء الشديد للقوط ، كما يقول المؤرخ جوردان . وكانت أودوفليدا وثنية ، وعند زواجها من ثيودوريك قبلت المعمودية على يد أسقف آريوسي . كذلك وثق ثيودوريك علاقاته بالهندال بأن زوج أخته آمالافريدا إلى ثرازاموند ملك الهندال ، وزج إحدى بناته إلى سيجسموند ملك برجنديا ، وأخرى إلى آلارك الثاني ملك القوط الغربيين .

لم ينجب ثيودوريك ابناً يرث الملك من بعده ، فاستقدم أميراً شاباً من قوط إسبانيا هو أيوثارك ، وزوجه من ابنته آمالاسونزا في عام ٥١٥ ، ثم أنعم عليه بعد ذلك بمنصب القنصلية . ولقد أنجب أيوثارك ولداً وبنتاً ، ولكنه توفي تاركاً أرملته الشابة في رعاية والدها ثيودوريك . وفي سنة ٥٢٦ استخلص ثيودوريك من نبلاء مملكته وعبداً باختيار حفيده آثارك ملكاً من بعده .

جاءت سحب التهديد من القسطنطينية تتوعد ثيودوريك : ففي عام ٥١٨ اعتلى عرش بيزنطة جندي الليري خشن الطبع هو جستين . وكان الإمبراطور الجديد شديد الحماس للكاتوليكيته ، ومن ثم فقد كان شديد العداء للآريوسية ومعتنقيها القوط . والواقع أن ثيودوريك - برغم التسامح الذي عرف عنه تجاه الكاثوليكية في إيطاليا - أقدم لسبب غير معروف على تحطيم كنيسة القديس ستيفن في ضواحي فيرونا ، الأمر الذي أثار مشاعر الكاثوليك في روما فراحوا يرنون بأبصارهم قبالة الجالس على عرش البسفور لتخليصهم من هذا التهديد الآريوسي . ولقد زاد الطين بلة ذلك الاستحواذ الذي تملك عقل ثيودوريك في السنين الأخيرة من حكمه فبات يرتاب في أعضاء السيناتو الواحد بعد الآخر ، ثم حرم على الأهالي حمل السلاح . ولقد وصلت نوبة الشك هذه بثيودوريك إلى الحد الذي جعله يقدم على سجن صديقه الفيلسوف العظيم بوثيوس Boethius بتهمة الاتصال بالبلاط البيزنطي وبمحجة أنه يزاول السحر

والتنجيم . ولقد أمضى الفيلسوف أيام السجن في هدوء الرواقين وسجل خلالها كتابه « تعازى الفلاسفة » Consolationes Philosophae ، وفي سنة ٥٢٤ أعدم بطريقة وحشية .

صادر الإمبراطور جستين الكنائس الأريوسية في القسطنطينية وسلمها للكاثوليك ، ثم أجبر بعض الأريوسيين على اعتناق المذهب الكاثوليكي . ولما علم ثيودوريك بذلك استدعى البابا يوحنا الأول إلى رافنا وأمره بالتوجه إلى القسطنطينية للتوسط لدى الإمبراطور لكي لا يجبر الأريوسيين على اعتناق المذهب الكاثوليكي . ولقد كانت هذه المهمة الصعبة مدعاة للحرص الشديد عند البابا فهو رأس الكاثوليكية الأكبر !

اصطحب البابا يوحنا معه أسقف رافنا وثلاثة من أعضاء السيناتو وعدداً آخر من رجال الدين والنبلاء ووصل إلى القسطنطينية في عام ٥٢٥ . ولقد استقبلته العاصمة الإمبراطورية استقبالا حافلا ، ثم قام بتتويج جستين إمبراطوراً . وعقد الإمبراطور والبابا اجتماعاً خاصاً ، ويبدو أن جستين قد اقتنع بضرورة إيقاف موجة الاضطهاد ضد الأريوسيين فوافق على أن يعيد إليهم كنائسهم ، ولكنه رفض السماح لمن دخل الكاثوليكية منهم أن « يرتد » إلى الأريوسية .

ولما وصلت أنباء هذا التقارب بين البابا والإمبراطور إلى مسامع ثيودوريك جن جنونه ، فألقى أعضاء السفارة البابوية جميعاً في السجن ، وتوفي البابا في سجنه في ٢٥ مايو سنة ٥٢٦ . وفي ٢٦ أغسطس من نفس العام توفي ثيودوريك قبل أن ينفذ خطته التي كان محمداً لها نهاية أغسطس لنقل كل كنائس إيطاليا الكاثوليكية إلى حوزة الأريوسيين .

خلف ثيودوريك على عرش مملكة القوط الشرقية حفيده آثالارك تحت وصاية والدته آمالاسونزا ، يعاونهما في الحكم كاسيودوروس رئيس الديوان Magister officiorum وكانت الملكة الأم على درجة عالية من الثقافة ، فلقد قرأت فرجيل وسوفوكليس ، ولكنها كانت رعناء في مجال السياسة إذ دبرت اغتيال ثلاثة من كبار نبلاء القوط . وبعد وفاة ابنها الملك أشركت معها في الحكم ابن عمها ثيودوهارد الذي ما إن ثبت قدمه في الحكم حتى ألقى بالملكة في السجن ثم أمر بإعدامها . والواقع أن آمالاسونزا كانت على اتصال بالبلاط البيزنطي وعرضت على الإمبراطور جستينيان أن تسلم له

إيطاليا وأن تلجأ هي إلى بيزنطة . ولقد استجاب الإمبراطور لهذا الطلب وفوض البرو قنصل بطرس لإتمام هذا الاتفاق ، الذي علم عند وصوله إيطاليا بأمر اغتيال آمالاسونزا ، فأعان - باسم الإمبراطور - الحرب على الذين قتلوها . وفي سنة ٥٣٦ أرسل جستنيان حملة عسكرية بقيادة بليزاريوس الذي استولى على نابولي ثم زحف صوب روما . في أثناء ذلك قام نبلاء القوط بغزل ثيودوهاث وانتخبوا فيتيجيز ملكاً بعد أن تزوج من ماتسونزا حفيدة ثيودوريك . وفي سنة ٥٣٧ استولى بليزاريوس على روما ، وبعدها بثلاثة أعوام سقطت راقنا عاصمة القوط الشرقيين في يده . واقتيد الملك القوطي فيتيجيز أسيراً إلى بيزنطة ، في حين أن بليزاريوس قد سمح لكاسيودوروس بأن يعتزل الخدمة إلى الحياة الديرانية .

ولكن القوط سرعان ما تمردوا ضد قوات جستنيان في عام ٥٤٣ بقيادة توتيلّا Totila ، الذي نجح عام ٥٤٦ في غزو مدينة روما . هرب أعضاء السيناتو من وجه توتيلّا إلى جزيرة صقلية ، ومنها أبحروا إلى القسطنطينية . وفي سنة ٥٥٠ عين جستنيان الجنرال جرمانوس لإعادة فتح إيطاليا ولإسقاط حكومة راقنا وقد حقق جرمانوس بعض النجاح في مهمته ، ثم تزوج من ماتسونزا أرملة فيتيجيز ، ولكنه مات في نفس العام . ولم يتحقق إسقاط حكومة راقنا إلا على يد القائد العجوز نارسيس Narsis الذي أوقع هزيمة نكراء بجيش توتيلّا عند أنكونا Ancona ، ثم قتل توتيلّا نفسه . وبهذا طوى فصل مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا :

الفرنجة Franks

والقندال Vandals

كان الفرنجة قد تحركوا من وادي نهر المين إلى وديان الموسل Moselle واثراين . وسمحت السلطات الرومانية للفرنجة السالين Salian بالاستقرار في إقليم توكساندريا (شمال بلجيكا الحالي) في سنة ٣٥٨ ، الذين حصلوا في القرن الخامس على جانب كبير من الاستقلال الذاتي والذين أحلوا في هذا الإقليم لسانهم الجرمانى محل اللغة اللاتينية . ولم يكن الفرنجة السالون قبيلة واحدة وإنما عدة قبائل شأنهم في هذا شأن الفرع الآخر من الفرنجة الذين عرفوا بالربواريان Ripuarian . والنظام السائد في المجتمع الفرنجى هو القبيلة التى تخضع لزعيم أهم مؤهلاته البطولة العسكرية . وكانت لكل قبيلة قطعة من الأرض عرفت باسم Pagus (معناها الأصل : قرية) كانت تقسم إلى وحدات مثوية يشرف على كل منها رئيس بلقب Centenarius . وكانت الأسر النبيلة في المجتمع الفرنجى تخضع للزعيم الأكبر أو الملك وتدفع له ضريبة الحرب Wergeld . ومصدرنا الأول عن أخبار الفرنجة هو جريجوريوس فلورنتيوس الشهير باسم جريجورى أسقف تور . تربى هذا الأسقف في وسط غالة ، وكان على قنسط متواضع من العلم والثقافة ، ويعترف هو ذاته بذلك ويبدى أسفه على ضحالة علمه وخشونة لا تينيته (rusticitas) . وأهم مؤلفات جريجورى « تاريخ الفرنجة » Historia Francorum الذى بدأه بالحديث عن آدم وحواء وتدرج فيه حتى استشهاد القديس مارتن في مدينة تور ، ثم أرخ للقندال والهون والفرنجة الأوائل وملكهم كلوفس Clovis ، وبعد هذا عالج الفترة من عهد كلوفس حتى وفاة حفيده ثيودبرت (٥٤٧) ومنها حتى وفاة الملك سيجبرت (٥٧٥) . وفي ختام هذا المؤلف سجل أسقف تور مذكراته الشخصية ما بين عامى ٥٨٤ و ٥٩١ . وإلى جانب كتاب « تاريخ الفرنجة » كتب جريجورى عدة مؤلفات أخرى منها مصنف « الفصول السبعة للمعجزات » والى تدور حول معجزات الشهداء Gloria Martyrum والأعمال الخارقة للقديس مارتن .

هذا إلى جانب كتاب آخر بعنوان *Vitae Patrum* يشمل سيرة القديس أندرو وعشرين من آباء غالة ، إلى جانب قصة أهل الكهف السبعة في مدينة أفيسوس^(١) .

تم للفرنجة السيطرة التامة على غالة في عهد كلوفس (كلودوفيتش) ملك الفرنجة السالين . وكان جده ميروفيتش قد قاد جيشاً من الفرنجة لمساعدة السلطات الرومانية ضد غزوات الهون في سنة ٤٥١ . وعند وفاة ميروفيتش في سنة ٤٥٦ خلفه ابنه شلدريك الأول الذي تمكن من الاستيلاء على انجرز Angers على نهر اللوار ثم زحف قبالة سواسون Soissons . وفي سنة ٤٨١ توفي شلدريك فخلفه في الملك ابنه كلوفس الذي تمكن ، بمعونة قائد جيشه راجنا شار ، من الاستيلاء على سواسون وروين وريمز وباريس ، في عام ٤٨٦ . بعد هذا اصطدام كلوفس مع قائد جيشه راجنا شار فقتله ، ثم هزم ملك الربواريان وأذل زعماء الألمان ، وذلك في عام ٤٩٦ .

كان الفرنجة ، دوناً عن بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، على صلات بالحضارة الرومانية ، ولذا فقد كانوا أقل بربرية من بقية الجرمان . وقد تزوج كلوفس في عام ٤٩٣ من كلوتلد الأميرة البرجندية الكاثوليكية التي أقنعت زوجها الوثني بضرورة اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي . وقد تم عماد كلوفس على يد ريميجيوس أسقف مدينة ريمز . ولقد شبه المؤرخ جريجورى أسقف تور هذا الحادث الهام باعتناق قنسطنطين العظيم للمسيحية ، بل لقد أتمى كلوفس « قنسطنطين الحديد » لأن عماده قد أدى إلى اعتناق كل الأمة الفرنجية للدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي . وقد كان مشهد عماد كلوفس - حسبما يروى جريجورى - مؤثراً للغاية إذ رفع الأسقف ريميجيوس صوته يأمر ملك الفرنجة بأن « انخفض عنقك في مزلة أيها السيكمبرى ، ولتعبدن الرب الذى طالما قد أحرقت ولتحرقن الآلهة التى طالما قد عبدت »^(٢) . ويقال إن كلوفس عند ما استمع إلى قصة آلام المسيح

Gregorii Tournensis Episcopi Opera Omnia, in P.L., Vol. 71.

(١)

Gregorii Tournensis Episcopi Opera Omnia, Historia Fancorum, Liber Secundus, (٢)

XXX, Cols. 225 seq.: "Regina vero non cessabat praedicare, ut Deum verum cognosceret et idola neglegeret..."

Procedit novus Constantinus ad lavacrum, deleturus leprae veteris morbum sordentesque=

على يد اليهود والسلطات الرومانية ، صاح قائلا « لو كنت ورجالي هنالك وقتها لا نتقمت للمسيح شر انتقام » (٣) .

بعد أن اعتنق كلوفس المسيحية على المذهب الكاثوليكي أعد العدة للهجوم على أقوى جيرانه وهم القوط الغربيون في تولوز ، الذين كانوا ينافسون الفرنجة في محاولة السيطرة على غالة . وقد اتخذ كلوفس من أريوسية القوط الغربيين حجة قوية لشن الحرب عليهم . في سنة ٥٠٧ جمع كلوفس جيشه وزحف على بواتييه مقر آلارك الثاني . وقد حدث عند مدينة تور أن استولى أحد ضباطه على ما كان أحد بسطاء فلاحي المنطقة قد جمعه من زرع ، فغضب كلوفس عندما علم بذلك وأمر بقتل الضابط على التو صائحاً : « كيف يكون لنا نصر إذن إن نحن أغضبنا قديس المدينة مارتن ؟ » ثم بعث كلوفس برسول إلى كنيسة القديس ليقدّم له الهدايا والندور وليستشف مصير حربه ضد القوط من وحي القديس . وعند دخول رسول كلوفس باب الكنيسة سمع رئيس المرتلين ينشد من الداخل في وضوح أخاذ « أيها الرب لقد منطقتني بالقوة وألقيت بأعدائي تحت قدمي » : وعلى مقربة من بواتييه التقى جيش كلوفس وجيش القوط الغربيين في واقعة Campus Volgradensis وانتصر الفرنجة على أعدائهم انتصاراً ساحقاً . وهرب القوط في حين أن زعيمهم آلارك سقط صريعاً في ميدان القتال ، وفر ابنه آمالارك إلى إسبانيا . بعد هذا الانتصار الحاسم عاد كلوفس إلى مدينة تور حيث قدم الهبات للقديس مارتن . وهكذا دانت تولوز ، عاصمة القوط الغربيين ، للفرنجة ، في حين استولى البرجنديون على سبماينا .

وفي هذه المرحلة وصلت سفارة من القسطنطينية تحمل رسائل المودة من الإمبراطور أناستاسيوس ، وتخلع على كلوفس الروب القنصلي والعبادة الأرجوانية . وبهذا اكتسب حكم كلوفس شرعية رسمية . وقد تمت هذه المراسيم في كنيسة القديس مارتن ، وعندها امتطى كلوفس جواده وقصد إلى كاتدرائية القديس جاتيان حيث وزع

=maculas gestas antiquitus recenti latica deleturus. Gui ingresso ad baptismum Sanctus Dei sic

infert ore facundo : "Mitis depone colla; adora quod incendisti, incende quod adorasti."

= "Si ego ibidem cum Francis meis fuisset, injurias ejus vindicasset."

(٣)

الصدقات من الفضة والذهب على جموع الشعب . ومن باريس حكم كلوئس مملكة الفرنجة الشاسعة ، وقد حافظ على الصبغة الغالية - الرومانية لبلاده ، فأبقى على النظم الرومانية في الإدارة وكذا على العملة القديمة . ولقد امتد حكم كلوئس حتى عام ٥١١ (٤) .

٧ - القندال

عبرت قبائل القندال من جماعات الأزديج والسيلنج جبال البرانس إلى إسبانيا بصحبة جماعات من السويث والآلان في سنة ٤٠٩ . وكان على هذه القبائل أن تقاتل ضد ثاليا ملك القوط الغربيين لكي يتزعوا منه بعض الأرض ليستقروا عليها ، وقد أفنى فرع القندال السيلنج تماماً في هذه الحرب البشعة (عام ٤١٦) . وابتداء من عام ٤١٨ خضع القندال والآلان لزعيم من فرع الأزديج . وفي عام ٤٢٢ هزم القندال جيشاً رومانياً واستولوا على الشواطئ الإسبانية على البحر المتوسط وعلى بعض السفن التي وجدوها راسية عند كارتاجينا . ثم قاموا ببناء أسطول كبير ليدعوا نشاطهم في القرصنة ، وانقضوا على جزر البليار وولاية موريتانيا الإفريقية ونهبوها . وبعد أن توفي الملك جندوريك خلفه على عرش القندال الملك جيزريك (٤٢٨) الذي قاد شعبه عبر البحر إلى شمال أفريقيا . ولقد شجع بونيفاس حاكم ولاية أفريقيا الروماني جماعة القندال على الإبحار إلى أفريقيا لمساعدته ضد هجمات القبائل الصحراوية ، على أن يكون هؤلاء القندال جنداً معاهدين للإمبراطورية Foederati . ولكن جيزريك لم يكن ليقنع بهذا ، بل راح يخطط للاستيلاء على شمال أفريقيا وإقامة مملكة للقندال هناك . وفي سنة ٤٤٠ كان القندال قد تمكنوا من الاستيلاء على قرطاجة من أيدي السلطات الرومانية ، وامتدت مملكتهم من تنجيتانا حتى طرابلس . وفي نفس الوقت كان أسطول القندال يسيطر على حوض البحر المتوسط ويقوم بغزواته المتكررة على جزائر قبرص وسردينيا وكورسيكا ، وبذلك قطعت الاتصالات بين روما والعالم

(٤) انظر الفصل السابع لمتابعة قصة الميروفنجيين بعد كلوئس .

الخارجي . وفي سنة ٤٥٥ عندما اغتال أتباع أثيتيوس Aetius الإمبراطور فالنتينيان قاد جيزريك حملة بحرية وهاجم ميناء أوستيا ، وهو ميناء العاصمة روما ، وقد خرج البابا ليوم لمقابلة جيزريك ليرجوه ألا ينهب العاصمة . ومع أن ملك القندال كان قد وعد ألا ينهب العاصمة ، إلا أنه أمضى ورجاله أحد عشر يوماً يجردون خلالها المدينة من كل نفيس وجدوه فيها . وفي نهاية الأمر حمل الملك المتبربر معه يودوكسيا أرملة الإمبراطور الراحل وابنتها والذهب الذي كان في القصر الإمبراطوري . كذلك نهب جيزريك نصف السقف الذي كان يغطي معبد الإله جوف الكايتوليني الذي كان من أفضل أنواع البرونز . كذلك استولى جيزريك على الأسطول الإمبراطوري الذي كان راسياً في ميناء أوستيا . ولقد زوج الملك القندال ابنه الأكبر هونريك Huneric من أسيرته الإمبراطورة يودوكسيا . وفي العام التالي قام أسطول القندال بغزوة على جزيرة صقلية وسواحل جنوبي إيطاليا .

بات خطر القندال يهدد جزائر البحر الأبيض وإيطاليا والليريا وبلاد اليونان وشرق حوض البحر الأبيض بل والإسكندرية أيضاً . ولم تفلح جهود الإمبراطور الغربي ماجوريان في عامي ٤٥٨ و ٤٦٠ ضد القندال . كذلك باءت بالفشل جهود الإمبراطور الشرق ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) ضد القندال . وقد نجح جيزريك في أن يعقد صلحاً مع الإمبراطورية البيزنطية ، ثم عين ابنه خلفاً له على العرش . ولقد دامت مملكة القندال ، التي أسسها جيزريك في ١٩ من أكتوبر ٤٣٩ ، يوم سقوط قرطاجة ، مدة ٩٥ عاماً .

يحدثنا بروكوبيوس^(٥) Procopius - الذي صاحب القائد بلزاريوس في حملته لتحطيم مملكة القندال - أن الملك جيزريك بعد أن استولى على جميع الأراضي في شمال أفريقيا قام بتوزيعها على رجال جيشه ، ولم يترك لأهالي البلاد إلا جزءاً صغيراً من الأرض اضطروا إلى شرائه من الملك . وكان القندال آريوسيين متعصبين فاضطهدوا الأساقفة الكاثوليك . كل من قرطاجة وهيو Hippo وريجيوس Regius . وكان الملك حاكماً مستبداً ليس له مجلس من النبلاء يشاوره الرأي ، وإنما كان يستخدم ثمانية من الأدواق (duces, chiliarchs) لقيادة أساطيله في أعمال

القرصنة . ويقدر عدد رجال الجيش القندالى على عهد جيزريك بحوالى ٨٠,٠٠٠ ، وقد خدم فى هذا الجيش إلى جانب القندال عناصر أخرى من الإفريقيين والآلان والهرىولى والسويث والقوط . ولم يكن للملك خطة مرسومة فى حملاته العسكرية وإنما كان فى كل إغارة يردد : « نحن فى طريقنا لمهاجمة قوم أغضبوا الله » ، وكان يقصد بهذا جميع شعوب البحر المتوسط التى لم تكن على المذهب الأريوسى .

بعد وفاة جيزريك حكم ابنه هونريك الذى كان قد تزوج الإمبراطورة الأرملة يودوكسيا . وفى عهده تمردت قبائل شمال أفريقيا وأغار على معسكرات القندال . كذلك وقع خلاف بين هونريك وبين الإمبراطور البيزنطى حول الثروة الطائلة التى كان القندال قد نهبها من روما . واضطهد هونريك الكاثوليك ، فكان يحرق بعضهم أحياء كما أكره البعض على اعتناق المذهب الأريوسى ، ورحل عدداً كبيراً من الأساقفة إلى سردينيا ، ثم أغلق الكنائس الكاثوليكية وصادر أملاكها لصالح الكنائس الأريوسية : وسار جوثاموند (٤٨٤ - ٤٩٦) على سياسة أبيه هونريك مع الكاثوليك . ولكن لما آل العرش إلى ترازاموند ، وهو شقيق جوثاموند ، اتسم حكمه (٤٩٦ - ٥٢٣) بالاعتدال مع الكاثوليك إلى حد آثار إعجاب المعاصرين من اللاتين واليونان فشبهوه بشيودوريك العظيم . وكان ترازاموند قد تزوج من آمالافريدا شقيقة ثيودوريك ، الذى أرسل لصهره القندالى هدية قوامها ألف من النبلاء المحاربين ، لمساعدته ضد إغارات القبائل الصحراوية التى كانت تناوئ المعسكر القندالى . وكانت خيول القندال تفرع عند ملاقات الجبال التى كان يمتطيها رجال القبائل الإفريقية المحاربون .

بعد وفاة ترازاموند حكم هلدريك وهو ابن هونريك من زوجته الرومانية يودوكسيا ، وقد حكم من سنة ٥٢٣ إلى ٥٣١ . وكان هذا الفتى قد عاش طويلاً فى بلاط القسطنطينية فتأثر بالحضارة الرومانية ، فلما آل إليه العرش انحاز إلى الكاثوليكية التى كانت تدين بها والدته فأعاد إلى الكاثوليك كنائسهم المصادرة كما سمح لمن كان منهم فى المنفى بالعودة إلى أبروشياتهم ، وإذا فقد اكتسب حبهم وإعجابهم^(٦) . ولقد أمر هلدريك بإعدام آمالافريدا شقيقة ثيودوريك.

"Nullo modo unquam Christianos vexavit."

ملك القوط الشرقيين ، وفي عام ٥٣١ دبر جلمير Gelimer ابن عمه مؤامرة ضده فخاضه
عن العرش وألقى به في السجن .

كان الجالس على عرش بيزنطة في ذلك الوقت الإمبراطور جستينيان العظيم
(٥٢٧ - ٥٦٥) . فلما أن علم الإمبراطور بما حل هلدريك ، الذي
كانت تجرى في عروقه دماء ثيوديسيوس العظيم - أرسل إلى جلمير يطلب منه
إطلاق سراح هلدريك على أن يكون له حق حكم مملكة اثندال باسم الأخير .
ولكن جلمير رفض عروض جستينيان في وقاحة زائدة . وفي سنة ٥٣٣ بعد أن
هادن جستينيان ملك الفرس وبعد أن قمع ثورة « نيكّا » Nika التي قامت في
العاصمة ضده ، أرسل الإمبراطور قائده بلزاريوس على رأس حملة قوامها ١٥,٠٠٠
رجل وعدد آخر من رجال الأسطول لغزو شمال أفريقيا وتدمير مملكة اثندال .
وكان پروكوبيوس - مؤرخنا المرموق - مرافقاً للقائد بلزاريوس في هذه الحملة ،
لأنه كان يعمل سكرتيراً له . ويقول پروكوبيوس إن أسطول الحملة كان قوامه
٥٠٠ سفينة ، ركب إحداها وهي السفينة Navis praetoria بلزاريوس وزوجه
أنتونيا ومعهما پروكوبيوس السكرتير . رسا الأسطول عند Caput-Vada التي تقع
على مسيرة خمسة أيام من قرطاجة ، وهناك ضرب بلزاريوس معسكره في رقعة يتوسطها
ينبوع من المياه . وأذاع بلزاريوس على سكان شمال أفريقيا أنه جاء ليحررهم من
الطاغية جلمير . وفي ١٣ سبتمبر سنة ٥٣٣ التقى الجيشان على مقربة من قرطاجة
(ad Decimum) وحلت الهزيمة بجلمير الذي تقهقر غرباً قبالة نوميديا . ثم سقطت
قرطاجة في يد بلزاريوس الذي أجلس نفسه على عرش جلمير في القصر الثندالي .
ثم أقام في هذا القصر مأدبة لنبلأء الجيش قام على الخدمة فيها رجال قصر
جلمير . وبهذا تحققت النبوءة التي طالما كان القرطاجيون يرددونها في ألعابهم دون فهم
لكنها وهي :

G fugabit B

ac rursus B fugabit G

ومعناها أن ج (جيزريك) يهزم ب (بونيفانس الحاكم الروماني لشمال أفريقيا) ،
ثم تدور الأيام فيهزم ب (هذه المرة بلزاريوس) ج (هذه المرة جلمير) . ولقد

هرب القساوسة الأريوسيون ، بينما هلك الأكليروس الكاثوليك فرحاً بانتصار بلزاريوس على القندال ودقت أجراس الكنائس في قرطاجة .

كان جلمير قد لجأ إلى حلفائه من الأفريقيين في بوللا — *Bulla Regia* في نوميديا ، كما أنه استنجد بأخيه ترازو *Tzazo* الذي كان على رأس حملة في سردينيا ، ثم قام بقطع القنوات التي كانت تحمل المياه إلى قرطاجة. ولكن بلزاريوس هجم عليه وأوقع به الهزيمة مرة أخرى . وقد قتل ترازو في المعركة . فرجلمير مرة أخرى إلى *Pappua* ليحتمي مع القبائل الأفريقية ، وسقطت هيو في يد بلزاريوس الذي استولى على كنوزها . ثم أرسل بلزاريوس حملة ضد سردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، كما سيطر على حصن سبته في أقصى الغرب . ودارت الدائرة على جلمير فسلم نفسه لبلزاريوس .

بعد وصول أنباء هذه الانتصارات إلى جستينيان استدعى بلزاريوس وأقام له موكب نصر هائل سار فيه جلمير أسيراً ذليلاً ، ثم أضاف الإمبراطور إلى ألقابه لقب « قاهر القندال والأفريكان *Vandalicus Africanus* » .

حقيقة أن القندال والقبائل الصحراوية في شمال أفريقيا دبروا ثروة ضد حكم جستينيان ، ولكن بلزاريوس رجع إلى أفريقيا مرة أخرى ونجح في قمع الثورة ، وبذلك دان الشمال الأفريقي للإمبراطورية الرومانية .

ولا يمكن أن نطوى صفحة القندال في شمال أفريقيا دون أن نخرج على اثنين من عمد هذا العصر عاشا في شمال أفريقيا وهما مارتينانوس كاپللا *Martianus Capella* والقديس أغسطينوس *St. Augustine* .

كان كاپللا مواطناً من مادورا جنوبي مدينة هيو — ريجيوس ، وقد تعلم فن الخطابة والقانون في قرطاجة وقام بالتدريس في مدارسها . وقد ألف كاپللا مقالة بعنوان « زواج الفيلولوجيا من الإله مركوري » *De Nuptiis Philologiae et Mercurii* في وقت ما بين سقوط روما في يد آلارك (٤١٠) وسقوط قرطاجة في يد جيزريك (٤٣٩)^(٧) . وحدد الكاتب في هذه المقالة فروع الآداب بسبعة هي « عمد الحكمة » ،

ويفسر هذا في حكاية طريفة ينم عنها عنوان المقالة نفسه : فلقد رغب الإله مركورى في الزواج ولكن إلهة الحكمة رفضت الارتباط به وأعرضت عنه أيضاً إلهة الغيب وحتى إلهة الأرواح هي الأخرى لم ترحب به زوجاً . ولذا فقد نصحه الإله أبوللو بالزواج من الفيلولوجيا (اللغة) . تلك العذراء الحلوة من بنى البشر والتي سترفع بزواجها من مركورى إلى مصاف الآلهة . وقام بالإعداد لهذا الزفاف الميمون كل من الفضيلة والعقل والجمال . كما وهب أبوللو إلى هذه العروس الجميلة سبعا من العذارى يصطحبها إلى عش الزوجية السعيد ومن : الأجرومية والديالكتيكا والنحو والهندسة والحساب والفلك والموسيقى . وهنا تتحول قصة كابللا إلى كتاب مدرسى ؛ إذ تقوم كل من هذه العذراوات بحديث طويل عن نفسها . وبعد أن تنتهى العذراء الموسيقى من حديثها العذب الطويل تقود العروس (الفيلولوجيا) إلى مخدع الزوجية !

والكتاب - على أية حال - ليس بذى قيمة كبيرة كما قد يتصور البعض ولكنه أصبح المرجع الأول للدراسة في العصور الوسطى ، وقد ألف فلجنتيوس Fulgentius الأفريقى كتاباً على منواله . ويذكر جريجورى أسقف تور - مؤرخ الفرنجة المرموق - أن كتاب كابللا كان متداولاً في مدارس غالة .

أما القديس أغسطينوس فهو عملاق العصور الوسطى الأكبر ^(٨) . ولد سنة ٣٥٤ في تاجستا شرق نوميديا (شرق الجزائر اليوم) ، وهو ابن لباتريكىوس ومونيكا وهما من الرومان الذين استوطنوا شمال أفريقيا : وفي عام ٣٦٦ تعلم الأجرومية في مادورا ، وفي سنة ٣٧١ وصل إلى قرطاجة لتعلم فن الخطابة . وكانت قرطاجة وقتها مزدهرة عامرة تفيض خيراً ونعماً "Splendidissima Carthago, alma et celsa Carthago" ويعترف أغسطينوس أنه قد فقد صفة الطهر في تاجستا ، وبأنه أطلق للجسد العنان في قرطاجة فطغت عليه الشهوة ، وهناك تعرف على حظية سرعان ما أنجبت له ابناً هو أديودات Adeodat الذى كان أغسطينوس يحبه من كل قلبه . وعرف أغسطينوس هرج المسرح وعنف المجالدين وجبروت المصارعين وجلادى السيرك . ووسط هذه الحياة

(٨) P.L., Vols. 32-47; H.I. Marrou, Saint Augustin et la fin de la culture antique;

Bardye, G., Saint Augustin, l'Homme et L'Oeuvre.

المضطربة انكب أغسطينوس على كتب أرسطو وأفلاطون وفرجيل وشيشرون وفارو ينهل منها العلم والحكمة . بعد هذا ترك الفتى قرطاجة وعاد إلى مسقط رأسه تاجستا . وقد كانت والدته مونيكاً شديدة القلق والحسرة على ابنها الضال ، فتوسلت إلى قسيس المدينة ليرد ابنها إلى جادة الصواب والإيمان ، ولكن كلمات الكاهن لم تجد عند أغسطينوس آذاناً صاغية .

ولقد تعلق أغسطينوس بالمانوية التي بشر نبيها ماني الفارسي (٢٤٠) بأنه هو رسول الحق وخليفة بوذا وزرادشت والمسيح . ونادى ماني بأن الباراقليط (الروح القدس) الذي وعد به المسيح قد تكشف له وأزاح له الستار عن الحقيقة كلها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، فغدا ماني بذلك — جسداً وروحاً — متلبساً بالباراقليط والباراقليط به في آن واحد . والمانوية ليست من الوثنية في شيء ، ولكنها أشبه ما تكون بالابن « اللقيط » للديانة المسيحية . وقد علم ماني بمبدأ الأزواج ، بوجود قوتين علويتين الواحدة للخير المطلق والأخرى للشر الكامل . ونادى ماني بشيء من الحياة النسكية والامتناع عن أكل بعض الأطعمة الدسمة وعن الزواج . وجماعة ماني طبقية : فهناك طبقة الخالصاء أو « المختارين » وهم الذين ينفذون التعاليم المانوية بحرفيتها ، وهناك طبقة « المستمعين » للتعاليم المانوية الذين يدرّبون النفس على أمل يوم الخلاص الذي يدخلون فيه إلى حظيرة الطبقة الخاصة .

ولقد استهوت تعاليم ماني الشاب أغسطينوس لأنه وجد فيها تفسيراً لمسائل عويصة طالما أقلقته باله وهي مسائل تختص بلغز الحياة ومصير البشرية وطبيعة الخير والشر . وظل أغسطينوس متمسكاً بالتعاليم المانوية لمدة تسع سنوات ، وبعدها انتابته موجة من الشك العارم فطاق ماني ومانويته . وفي سنة ٣٨٣ أتيحت له فرصة الأستاذية لكرسي الخطابة في ميلان عاصمة الغرب ، فقبلها أغسطينوس . وفي ميلان تعرف أغسطينوس على أمبروز أسقف المدينة الجليل واستمع لمواعظه الحسنة^(٩) .

(٩) أمبروز : ولد في مدينة Trier حوالي عام ٣٣٤ وتوفي في ميلان عام ٣٩٧ . كان ابناً لحاكم غالة البرابيتوري ، ودرس القانون في روما ثم عين في عام ٣٧٠ حاكماً لولاية اميليا - ليجوريا التي كانت ميلان عاصمة لها . وعندما خلا كرسي الأسقفية في ميلان في عام ٣٧٤ اختير له أمبروز استجابة لرغبة الشعب ،

ولكن أغسطينوس لم يقتنع بما استمع إليه من مواظ واستهوته في هذه المرحلة الأفلاطونية المحدثة التي كانت تبشر بسمو الروح على المادة ، وبأن الله هو الروح الأعلى ، وبأن الشر ليس بمخلوق كامل وإنما هو مخاوق ناقص أى أنه عنصر سلبي لا إيجاب فيه ؛ فهو انتفاء الخير وتضاده . ومن آراء الأفلاطونيين المحدثين أن قبس النور الإلهي (الروح) في الإنسان سجين للمادة (الجسد) ، ولا يمكن تحرير الروح إلا بإذلال ، إن لم يكن تحطيم ، هذا الوعاء أو الجسد . ولا شك

مع أنه كان لا يزال Catechumenus أى تحت التدريب على تعاليم المسيح ولم يعد بعد . وكانت مهمته كأسقف لميلان غالة في المسئولية ، لأن المدينة كانت وقتها العاصمة الإدارية للنصف الغربى للإمبراطورية مما عرضه لمشكلات سياسية خطيرة ، كما وأنه كان على الأسقف رعاية أفواج من الداخلين الجدد في المسيحية . هذا إلى جانب تحرشات الوثنيين بالمسيحية ، ومضايقات العناصر الأريوسية المتبريرة للأرثوذكس . وأمبروز هو الذى أقنع الامبراطور فالنتينيان الثانى بعدم إرجاع تمثال ربة الانتصار إلى السيناتو الرومانى . وعندما طلبت إليه الإمبراطورة الأم جستينا أن يسلم أحد المباني للأريوسيين ليجعلوا منه كنيسة رفض الأسقف طلبها في تحد وإصرار . وفي عام ٣٩٠ قامت ثورة في سالونيكاً وقتل المتوردون حاكمها الرومانى ، فأمر الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم جنوده المرتزقة من القوط بذبح العديدين من أهالى المدينة انتقاماً لمقتل الحاكم . ولقد أثارت هذه الوحشية البالغة مشاعر القديس أمبروز فكتب إلى الإمبراطور يعنفه على فعلته الشائنة وأجبره أيضاً على إعلان التوبة والندم وراح يكفر عن جريمته بالطريقة التى أمره بها أمبروز . وذهبت صيحة أمبروز سابقة خطيرة يدلل بها رجال الكنيسة على سلطان « رجل الله » فوق « رجل العالم » . قال القديس : « إن الإمبراطور واحد من أبناء الكنيسة كالأخرين وهو ليس فوقها ولا عليها » . وبعد أمبروز واحداً من المعلمين الأربعة في الكنيسة اللاتينية ، مع أغسطينوس وجيروم وجريجورى الأول العظيم . وأمبروز هو رجل المواظ الحسنة الذى وجه رسالته لتبصير الشعب بروح التعاليم المسيحية وبطرق الحياة الصالحة .

وله مقولة في الدوغما بعنوان De Mysteriis لتبصر الداخلين في المسيحية بأسرارها ، ورسالته تكشف عن روح العصر الذى عاش فيه . وهو أول معلم في الغرب أفاد جماعة المصلين بالترانيم والمدائح الإلهية لتفهم روح الدين وقواعده . وكان يظن إلى وقت قريب أن القديس أمبروز هو صاحب الـ Te Deum الشهيرة ، ولكن هذا خطأ ، وإن كان يظن أنه هو الذى كتب قانون الإيمان المنسوب إلى القديس آثاناسيوس الشهير باسم

. Quicumque vult salvus esse

في أن الفلسفة الأفلاطونية المحدثه قد قربت المسافة بين أغسطينوس والمسيحية^(١٠). وبعد أن توفيت خليلته الأولى — أم اديوداتوس الحبيب — اتخذ أغسطينوس له حظية أخرى ، ولكنه كان يرفض فكرة الزواج تماماً . وفجأة والرجل في هذا الوحل واليأس والظلام استصرخه قبس الروح من الأعماق يناديه Tolle, Lege : وقام أغسطينوس من زومه المكدر يطالع قول القديس بولس الرسول :

« إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم : فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا . قد تناهى الليل وتقارب ، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور . لنسلك بلباقة كما في النهار لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد ، بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات . »
ومن هذا الينبوع القدسي الحى ارتوى أغسطينوس وهتف الصيحة الأغسطينية الخالدة بأن « لا خلاص للبشر من أغلال عبوديتهم في الإثم إلا بالنعمة الربانية

Plotinus, The Six Enneads, trans. by Stephen Mackenna and B.S. Page, London, (١٠)

1952, cols. 359-61 says On the Good — the One :

“The Soul in its nature loves God and longs to be at one with Him in the noble love of a daughter for a noble father; but coming to human birth and lured by the courtships of this sphere, she takes up with another love, a mortal, leaves her father and falls.

But one day coming to hate her shame, she puts away the evil of earth, once more seeks the father, and finds her peace...

There is thus a converse in virtue of which the essential man outgrows Being, becomes identical with the Transcendent of Being. The self thus lifted, we are in the likeness of the Supreme : if from that heightened self we pass still higher — image to archetype — we have won the Term of all our journeying. Fallen back again, we awaken the virtue within until we know ourselves all order once more; once more we are lightened of the burden and move by virtue towards Intellectual — Principle and through the Wisdom in That to the Supreme.

This is the life of gods and of the godlike and blessed among men, liberation from the alien that besets us here, a life taking no pleasure in the things of earth, the passing of Solitary to Solitary.”

وحدها . وآمن أغسطينوس بوحى هذه النعمة Gratia وعمده القديس أمبروز
في فضح عام ٣٨٧ وهو في الثالثة والثلاثين من عمره .

وفي سنة ٣٨٨ بعد غياب خمسة أعوام في إيطاليا عاد أغسطينوس إلى شمال
أفريقيا ، وبعدها بثلاثة أعوام سيم قسماً وطلب منه أسقف هيو « التبشير بكلمة الإنجيل » .
وفي سنة ٣٩٥ اختير أغسطينوس أسقفاً لمدينة هيو وتبوأ بعدها زعامة الكنيسة
الكاثوليكية في الشمال الإفريقي . وفي عام ٣٩٧ بدأ أغسطينوس في كتابة مؤلفه
« عن العقيدة المسيحية » De Doctrina Christiana الذي انتهى من كتابته في سنة ٤٢٦ .
أما كتاب « مدينة الله » De Civitate Dei فقد بدأ في كتابته سنة ٤١٣ وانتهى منه أيضاً
في سنة ٤٢٦ . ولقد ظهرت أجزاء « مدينة الله » الواحد تلو الآخر خلال ثلاثة
عشر عاماً ، ولعل في هذا ما يبرر ظاهرة التكرار الواضحة في الكتاب وكذا
عدم توافر خيط واضح يسير عليه المؤلف . وإلى جانب هذا أخرج أغسطينوس
في عام ٤٠٠ كتاباً آخر هو « الاعترافات » . وهناك للكاتب القديس أيضاً « تعليقات »
على سفر الخروج والمزامير وإنجيل يوحنا ، وله « مقولات » في الزيجة الصالحة
ومسألة « حرية الإرادة » والقدرية وطبيعة الثالوث وفي « النعمة » Gratia الربانية .
ولم يعرف يراع أغسطينوس الملل فقد ظل يسجل خواطر وفلسفات صاحبه حتى أواخر أيام
حياته في أغسطس ٤٣٠ عندما فاضت روح القديس إلى ربها في مدينة هيو عن
سنة وسبعين عاماً . وبينما كان القديس يحتضر في هيو كانت جماعات القنдал
تحاصر المدينة ، التي صارت حاضرة لهم بعد سقوطها في أيديهم .

لقد كان أغسطينوس شخصية فريدة متعددة المواهب ، له بصيرة نفاذة
تغلغت إلى عمق أعماق النفس البشرية ، ولعل أشهر عبارة أغسطينية أفاض في
الحديث عنها الدارسون والنقاد للتدليل على عمق تفكيره هي : Abyssus
humanae conscientiae « أغوار الضمير الآدمي » التي تنم عن أن العمق الذي وصل إليه
القديس في تجربته الشخصية عمق فلسفي روحي ، كان يملك هو وحده « النعمة »
الربانية للتعبير عن أسرارها في صيغة كانت جديدة على الفكر الإنساني برمته .
واللاتينية التي كتب بها أغسطينوس لاتينية رصينة سحرت خيال كل أساتذة

العصور الوسطى ومعلميها^(١١) : فبطرس أبيلارد فيلسوف القرن الثالث عشر عندما كان ينشد ألحانه الدينية العذبة كان يقتبس من نبع أغسطينوس في مدينة الله^(١٢) . وعندما يتسلق دانتى إلى الفردوس يسير على خطى القديس أغسطينوس .

وأغسطينوس هو رجل الإيمان ومثله في ذلك « أؤمن لكى أتفهم »^(١٣) . وهناك مملكة واحدة بعدها أغسطينوس لسائر المؤمنين هي « ملكوت السموات » التي يجلس على عرشها « الحق الأعلى » ملكا ، قانونها المحبة وحدودها — إن كانت هنالك — الأبدية . ولأغسطينوس تضرع يعرفه كل المصلين في حرقة الإيمان :

Da quod jubes — et jube quod vis

* * *

كان السبب الأساسي الذي دفع أغسطينوس إلى كتابة « مدينة الله » تلك الصدمة التي هزت العالم عندما سقطت روما تحت أقدام القائد المتبربر آلارك في سنة ٤١٠ . وتعجب الناس وظنوا أن نهاية العالم لابد قد اقتربت لأن روما العظيمة عاصمة الإمبراطورية ، حاملة رسالة السلام ، ينبوع القانون ، تلك المدينة التي لم

Confessiones, VIII, viii-xii: "Ego sub quadam fici arbore stravi me nescio quomodo et (١١) dimisi habenas lacrymis, et proruperunt flumina oculorum meorum, acceptabile sacrificium tuum. Et non quidem his verbis, sed in hac sententia multa dixit tibi: "Et tu, Domine, usquequo? Usquequo, Domine, irascaris in finem? Ne memor fueris iniquitatum nostrarum antiquarum." Sentiebam enim eis ne teneri: jactabam voces miserabiles: "Quamdiu? Quamdiu? Cras et cras? Quare non modo? quare non hac hora finis turpitudinis meae?"

Dicebam haec, et fiebam amarissima contritione cordis mei. Et ecce audio vocem de vicina domo cum cantu dicentis et crebro repetentis, quasi pueri an puellae, nescio: Tolle, lege; tolle lege. Statimque mutato vultu, intentissimè cogitare coepi utrum solerent pueri in aliquo genere ludendi cantitare tale aliquid; nec occurrebat omnino, audivisse me uspiam..".

O quanta qualia sunt illa Sabbata, quae semper celebrat superna curia, .. (١٢)

Immo credo ut intelligas. (١٣)

.. : قارن هذا بشعار ديكارت : Cogito ergo sum . .

تتطاول عليها يد طيلة ألف عام قد طرح تحت أقدام القوط المتبربرين . لقد سقطت روما غداة انتصار المسيحية ، وراح الوثنيون يذيعون بأن المسيحية هي المسئولة عن هذا الخراب الذى حل بروما . وطارت الأنبياء المروعة إلى قرطاجة مع الهاريين من وجه البرابرة إلى الشمال الإفريقى وتعالّت أصوات الغضب بأن الآلهة القدامى لا بد قد أهينت من الإله الجديد للمسيحية ، فابتلت روما والرومان بالمتبربرين . وكان على الآباء المسيحيين أن يردوا على هذه الاتهامات التى كان لها عند الكثيرين من المعاصرين ما يبررها من الدلائل المحسوسة . وكانت هذه هى المبررات الأولى التى حفزت أغسطينوس عند كتابة « مدينة الله » . ولكن كتاباً استغرق تأليفه ثلاثة عشر عاماً ، ويقع فى اثنين وعشرين جزءاً كان خليقاً بالضرورة — أن يتجاوز حدود الهدف الذى من أجله قد ابتدأه صاحبه . فلقد ترك القديس أغسطينوس مهمة الرد على الوثنيين وتقديم تفسير تاريخى لما حل بروما من أقدار إلى صديقه أوروزيوس Orosius الراهب الإسباني الذى وصل إلى مدينة هيو سنة ٤١٤ . أى فى نفس العام الذى بدأ فيه القديس كتابة « مدينة الله » . وجاء الفصل الذى كتبه أوروزيوس بعنوان "Historia adversus paganos" ذيلاً لكتاب « مدينة الله » .

لقد شرح القديس أغسطينوس خطة كتابه فقال إنه ينقسم إلى قسمين : الأول ويشمل الأجزاء العشرة الأولى وهو تفنيد لآراء الوثنية القائلة بأن سعادة البشر إنما تكمن فى الإبقاء على عبادة آلهة الوثنيين ، وبأن إلغاء هذه العبادات على يد الإمبراطورين جراتيان وثيودوسيوس هو الذى جرح الخراب والهوان على روما ؛ على يد الجرمان المتبربرين . ويبدع القديس فى حججه بعدم جدوى الآلهة الوثنية فى هذا العالم وبعجزها فى العالم الآخر .

وإذا كان أغسطينوس فى هذا القسم الأول من الكتاب قد أعمل معاول الهدم فى جماعة الوثنيين الأوثان^(١٤) ، فإنه فى القسم الثانى كان ولا بد له أن يقدم شيئاً

(١٤) Tot S. Augustini, De Civitate Dei, in P.L., Vol. 41, L. I., Cap. II, Cols. 15-16 :

bella gesta onscripta esunt, vel ante conditam Romam, vel ab ejus exortu et imperio: legant, et proferant sic ab alienigenis aliquam captam esse civitatem, at hostes qui ceperant, parcerent

بناءً أو إيجابياً . وبالفعل فإذا نجده هنا يعالج القيم التي تنطوي عليها العقيدة المسيحية في أسلوب فلسفي رائع : فهو يتحدث عن أصل المدينتين ، مدينة الأرض ومدينة الله ، ثم يمضي ليناقد الهدف الذي يحدو كلا في طريقها . وقد نزل القديس أغسطينوس عن الفلاسفة الفدائي فكرة المراحل الأربع للمجتمع البشري ، التي تبدأ بالأسرة Domus ، فدوية المدينة Civitas من بعدها ، فالعالم Orbis terrae الذي يشمل المسكونة جمعاء والجنس البشري برمته ، ثم تأتي في النهاية مرحلة الكون Mundus الذي يضم الأرض والسموات ومجراتها والخالق وملائكته وأرواح الراحلين ومجتمع بشر هذه الأرض أيضاً . ومدينة الله — عند القديس أغسطينوس — ليست على شاكلة دوية المدينة ، فهي أميل ما تكون اتجاهاً قبالة المجتمع الأكبر للكون . والحق أنه كان يحلو للمفكرين منذ القدم أن يقربوا مفهوم المجتمع الكوني Mundus للأذهان فأشاروا إليه — من باب المجاز — على أنه الدوية المدينة Civitas . وكانت الحكمة في هذا أن تضفي البشرية لمسات من الدفء والألفة — التي هي من صفات المدينة السياسية — على الكون ، عندما لاح لهم أنه برغم متاهاته يكون وحدة واحدة متكاملة ، ولعلهم في هذا لم يريدوا أن يستشعروا غربة في هذا المجتمع العملاق الذي تصوروا فيه الأرباب تحيا جنباً إلى جنب مع جنس البشر في شركة واحدة أقرب ما تكون إلى فكرة « المواطنة » التقليدية . وكان الفلاسفة الكليبيون^(١٥) Cynics والرواقيون قد مهدوا الطريق لهذه الفكرة بعينها ، فقد تحدثوا عن « المدينة العالمية أو الكونية » Cosmopolis وهي مدينة بلغ اتساعها حدّاً شمل فيه الكون برمته . ونجد هذا التعبير صريحاً في « تأملات »

cis, quos ad decorum suorum templa confugisse compererant; aut aliquem ducem Barbarorum praecepisse, ut irrupto oppido nullus feriretur, qui in illo templo fuisset inventus..”

(١٥) الكليبيون : هم أتباع مدرسة فلسفية أسسها أنتيستينيز Antisthenes — وهو تلميذ وصديق لسقراط — في مدينة أثينا في النصف الثاني من القرن الخامس ق . م . وأنتيستينيز معلم أخلاقي نادى بأن الطريق إلى السعادة يكمن في الفضيلة وفي التحرر من الرغبات والشهوة . وكان البطل هرقل هو النموذج الأفضل في فضيلة « التحمل » ومقابلة التحديات في هذا العالم ، عند هذا الفيلسوف . وقد أسس مدرسته هذه في الجمنازيوم (معهد التربية) بمدينة Gynosarges ومنها اشتق اسم هذه المدرسة . وهناك رأى آخر له وجاهاته بأن اسم المدرسة قد اشتق من كنية « كيون Kuon أي الكلب » التي أطلقت على دايوجينيس رأس هذه المدرسة في عهد لاحق .

ماركوس أوريليوس الإمبراطور الروماني الرواقى الذى أشار إلى « الكون » على أنه « مدينة الله » : فعندما التفت الإمبراطور الفيلسوف إلى « هذه المدينة لكل المدائن » هتف قائلاً : « كل ما يطيب لك ، أيها الكون ، يطيب لى . أنت الأول لكل شىء ، وكل شىء بك ومنك ثم هو إليك ... لقد صاح الشعراء قديماً : " أيتها المدينة الغالية آثينا " ولكنى أهتف الآن " أيتها الحلوة يا مدينة الله الحبيبة " (١٦) .

من هذا يتضح أن عبارة « مدينة الله » كانت قد صادفت القديس أغسطينوس من قبل . وصورة هذه المدينة الإلهية صورة مزدوجة وقد رسمها لنا اثنان من أشهر الأعلام ، والغريب أن كليهما قد أتى من نفس الركن القصى فى شرق حوض البحر الأبيض ، ألا وهما پوزيدونيوس من آياميا (القرن الأول للميلاد) وشاول الطرسوسى (القديس بولس الرسول) .

أما پوزيدونيوس فقد مزج فى فلسفته بين الرواقية والأفلاطونية وقدم للعالم فكرته عن الكون : فالفضاء الخارجى للكون المكون من الأثير - وهو صنو النقاوة - هو مكان حلول الله بل هو الله « الطهر المطلق » . وكلما بعدنا عن هذا الأثير النقى فى كليته تجاه الأرض قلت درجة النقاوة بسبب تداخل مكونات من مادة دونية ، وإذا ما ارتطمنا بالأرض (الدنيا) لمسنا وحل اللانقاوة أو الدنس . والذى يحدث عند وفاة البشر هو أن تفلت الروح - لأنها طاهرة - صعدا قبالة الأثير النقى لتكون فى رحاب الخالق . وعلى هذا فإن مسافة الفضاء الأول - بين الأرض والفضاء المطلق النقاوة - غاصة بهذه الأرواح التى تجاهد صعداً نحو الطهر المطلق . ولقد أتىح لپوزيدونيوس بفعل شفافيته الرواقية أن يستبصر الفلك الملتهب ناراً التى تشير إلى مداخل هذا الكون التى بعدها لا شىء "Flammantia moenia mundi" والحقيقة كلها تكمن داخل هذا الإطار المهول ، فى ذاك الغلاف من الأثير الحمري ، المتناسك بعضه فى البعض بلحمة التعاطف بين مكوناته .

والرجل الثانى الذى رسم صورة لمدينة الله هو معلم المسيحية الأكبر بولس الرسول . وكان بولس يعرف أورشليم المقدسة ، سيدة المدائن ، حق المعرفة ،

كما وأنه كان عميقاً في تفهم الفلسفة اليونانية ، وإنك لتجد في رسائله هنا وهناك لمحات رواقية فهو القائل : « ليس إنى أقول من جهة احتياج : فإنى قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه — أطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دعيتم بها ، بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضاً في المحبة ، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام » . كذلك هام بولس الطرسوسى حباً « بملكوت السموات » التي أعدها الله للصالحين من العباد : « فإن سيرتنا نحن هي ملكوت السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح » . وهذه الملكوت أو المدينة السماوية لا تضم الصالحين الذين « رقدوا في الرب » فحسب ، وإنما ينتمى إلى عضويتها أيضاً الأخيار من الأحياء على هذه الأرض . ومواطنو هذه المدينة — مدينة الله — شركاء في عضوية هذه المملكة مع القديسين أنفسهم . وفي نفس الوقت فإن المؤمنين الأحياء على الأرض غرباء هذا العالم ، وهم على سفر فباله النعيم الأزلى .

ومن هذا المفهوم انطلق فكر القديس أغسطينوس في وصفه لمدينة الله . على أنه يجب أن نميز بين الصورة التي قدمها القديس بولس لهذه المدينة وبين تلك التي رسمها لها الرواقيون وپوزيدونيوس . فعند پوزيدونيوس لا توجد سوى مدينة واحدة تصل بين الأرض والسماء ، ولا يسمح فيها « للدونيات » أو « النواقص » (Stulti) إلا بمكان خفيض لا يرقى أبداً إلى مشارف الأثير الأعلى . على أن هذه المدينة — برغم هذا — تتسع لاحتوى الجنس البشرى جميعاً والأرواح وبعض الآلهة أيضاً .

أما القديس بولس فهو يميز بين مدينتين : السماوية والأرضية . ومن بولس الطرسوسى التقط أغسطينوس الفكرة ففرق بين Civitas Dei وبين Terrena Civitas . ومنذ البداية حدد أغسطينوس أن الذي يميز بين هاتين المدينتين هو « الصلاح » Justitia ؛ لأن مدينة الله وقف على « الصالحين » أحباب الراعى « الصالح » وليس فيها مكان للخراف الضالة . ومفهوم « الصلاح » هو حجر الزاوية الذي استندت عليه الفلسفة جميعاً طوال العصور الوسطى . وكلمة « الصلاح » في اللاتينية هي Justitia ، وهي ترجمة رعناء للكلمة اليونانية Dikaion التي ابتدعها أفلاطون في « جمهوريته » ،

والتي كان يعنى بها « الخير الأعم للجماعة البشرية كلها » . ولكن اللسان اللاتيني نقل هذا المعنى إلى مجرد كلمة « الصلاح » ، وبذلك قُئن المعنى الأخلاقي المجرد وُصِبَ في كوادِر قانونية . وكان القديس أغسطينوس — مثله في هذا مثل القديس بولس — متأثراً بالأفلاطونية إلى حد كبير ، فلا بد وأنه قد قرأ حوار أفلاطون Politicia e peri Dikaioneses « حول الخير العام » أو « الصلاح » في ترجمة لاتينية ، كما وأنه اطلع على تفسيرات الأفلاطونيين المحدثين لكتابات سيدهم الأكبر ، وهناك إشارات متعددة في « مدينة الله » إلى أفلاطون ، فهو يقول في الفصل الرابع من الكتاب الثامن : « من بين تلاميذ سقراط جميعاً هنالك واحد فقط فاق اسمه سيرة الآخرين ، ذلكم هو أفلاطون الذي بلغت معرفته حدود الكمال ، والذي تذوق الحكمة » (١٧) والحق أن فكر أغسطينوس أفلاطوني النزعة ، ولذا فليس مبالغة القول بأن فكر المسيحية اللاتينية على مدار العصور الوسطى كان أفلاطونياً من خلال معلم العصور الوسطى أغسطينوس . لقد حذر أغسطينوس من سراب العالم الفاني ومن ظل الشيء وحث البشرية على السعى حثيثاً قبالة الحق الأعلى والواقع الكامن في الله ، وهذا ترديد لنظرية أفلاطون في « الكهف » . كما وأن أفلاطون قد حدد معالم « المدينة الفاضلة » في « جمهوريته » Republica فأقامها على الحق والفضيلة ، فضيلة « الاستقامة » أو « الصلاح » ، ومن هنا يمكن أن نصفها « بمدينة الله » ؛ ذلك لأن أفلاطون ذاته قد وضعها « في الأعلى .. في السموات » .

والمدينة الفاضلة مثل أعلى ، أنموذج صعب المنال ، ولكن في مقدور البشر وهم يخلقون في بها أن يستثيروا غير ذواتهم فيمحوا عن مدائنهم رذائلها ويلبسزنها حلو رداء مدينة الله ، حتى تضيق الهوة التي تفصل بين الصلاح وغير الصالحين ، وحتى يتأتى للصالحين من البشر العبور إلى طريق الله . وقد تحدث أفلاطون عن « مدينة العالم »

De Civitate Dei, Cols. 227-28 :

(١٧)

“Sed inter discipulos Socratis, non quidem immerito, excellentissima gloria claruit, qui omnino caeteros obscuraret, Plato. Qui cum esset Atheniensis, honesto apud suos loco natus, et ingenio mirabili longe suos condiscipulos anteciret; parum tamen putans perficiende philosophiae sufficere se ipsum ac Socraticam disciplinam, quam longe lateque potuit peregrinatus est, quaquaversum cum alicujus nobilitate scientiae percipendiae fama repiebat.”

المثقلة برذائلها ، ويجرائم الحروب وقتل الأخ لأخيه . ففي هذه المدينة الأرضية كما يقول أغسطينوس قتل قابيل أخاه هابيل واغتال روميلوس شقيقه ريموس^(١٨) . ومرد العيب في مدينة الأرض هذه أن كل واحد لم يؤد ما وكل إليه من واجب حيث هو (حرفياً في محطته التي عين فيها) على الوجه السليم ، وإنما راح يتحرش بأما كن الآخرين وصلاحياتهم ، فاختل التوازن وسقط النظام وأطل القبح بوجه القوضى الدميم ، وحكم المدينة . وتاهت في هذه القوضى الحكمة القائلة « الرجل الصالح في المكان الصالح » (To autou pratein) التقط القديس أغسطينوس هذه الفكرة من أفلاطون « ومسحها » أي ألبسها ثوباً مسيحياً : « فالصلاح » — عند أغسطينوس — يرقى إلى مكان علوى ، وهو لا يقتصر على انلاقات بين البشر وإنما يصبح « نظاماً » يحدد العلاقة المثلى بين البشر والرب . والصلاح يتأتى بالإيمان الذي يجلب على صاحبه . النعمة « gratia » . ولا ينغص على هذا « النظام » إلا الإثم والآثمون ، ولكن حرارة الإيمان ستظل تطاردهم وتهدهم بلظاها الذي لا يبرد ولا يلين . ولفظة Ordo « النظام » لها مكانتها الخاصة في « مدينة الله » ، فهي تطابق الاستقامة والقوام والصلاح جميعاً :

Ordo est parium dispariumque rerum sua cuique loca tribuens dispositio.

De Civitate Dei, L. Quintus Decimus, Cap. IV, V :

(١٨)

“Terrena porro civitas, quae sempiterna non erit (neque enim cum in extremo supplicio damnata fuerit, jam civitas erit), hic habet bonum suum, cujus societate laetatur, qualis esse de talibus rebus laetitia potest. Et quoniam non est tale bonum, ut nullas angustias faciat amatoribus suis, ideo civitas ista adversus se ipsam plerumque dividitur litigando, bellando, atque pugnando, et aut mortiferas, aut certe mortales victorias requirendo .. Primus itaque fuit terrenae civitas conditor fraticida : nam suum fratrem civem civitatis aeternae in hac terra peregrinantem invidentia victus occidit .. Sic enim condita est Roma, quando occisum Remum a fratre Romulo Romana testatur historia : nisi quod isti terrenae civitatis ambo cives erant.. Hi autem Fratres Cain et Abel non habebant ambo inter se similem rerum terrenarum cupiditatem; nec in hoc alter alteri invidit, quod ejus dominatus fieret angustior, qui alterum occidit, si ambo dominarentur (Abel quippe non quaerebat dominationem in ea civitate, quae condebatur a fratre) : sed invidentia illa diabolica, qua invident bonis mali, nulla alia causa, nisi quia illi boni sunt, illi mali...”.

وهو في هذا يقول : « أزيلوا الصلاح والاستقامة وحدثوني عما تبقى لكم في دنياكم . إن المدينة ، والحال هذه ، لن تعدو أن تكون حفنة من اللصوص » . إن مدينة الله تقوم على عمد النظام والإيمان والاستقامة ، تلك العمد التي توثق الأمل في ربط الصالحين على هذه الأرض بالله وملائكته والقديسين في ملكوت السموات . وهذه المدينة ، برغم أنها مدينة الكون ، إلا أنها تلفظ عنها الذين سقطوا من الملائكة فغداوا أبالسة ، وهي لا تعرف الأرواح النجسة ولا معشر الأشرار^(١٩) . ويخطئ من يظن أن هذه المدينة حيز محسوس ؛ فهي من غير المرئي وليس لها صنو من صنع يد البشر « لأنهم يصنعون بالإثم وفي غير استقامة » . وهي ليست بالكنيسة أيضاً ، ففي الكنيسة أعضاء فاسدون ليسوا من « الصلاح » في شيء . ويمضي القديس الفيلسوف فيضرب مثلاً : « الشهوة أقامت مدينة ، والمحبة أرسى أخرى . الأولى جاءت بنياناً لحب الذات وترجمة للبعد عن الله فهي أرضية أرضية ، والأخرى لبناتها محبة الإله وعمدها الارتفاع على الذات وهي علوية سماوية » .

ويخطئ من يعتقد أن القديس أغسطينوس قصد بالمدينة الأرضية الإمبراطورية الرومانية . كلا ثم كلا ، فكما أن المدينة السماوية ليست هي بالكنيسة ، فإن المدينة الأرضية ليست بالشئ المحسوس الذي يمكن مطابقته بمدينة روما مثلاً . ولكن مملكة الأرض هي تضاد المثل الأعلى أو انتفاؤه فهي مدينة « اللاصلاح » الذي يسود العالم كله لا روما فحسب . ولكن هذا لا يعني أن الظلام قد أطبق تماماً إلى حد اليأس على هذه الأرض ، لأن عليها عناصر صلاح تكافح وهي تعبر « قنطرة الحج » قبالة المدينة الفاضلة ، ولذا فإن مواطني المدينة السماوية يمدون يد العون والإلهام لتسديد خطي الصالحين وهم يصارعون الرذائل المتفشية من حولهم . ومن هنا فإن الدولة الأرضية

De Civitate Dei, Liber Vigessimus, Cap. IX, Cols. 672-75 :

(١٩)

“Nam utique isto tempore in regno Dei eruditur scriba ille, qui profert de thesauro suo nova et vetera... Et de Ecclesia collecturi sunt zizania messores illi, quae permisit cum tritico simul crescere usque ad messem : quod exponens ait, Messis est finis saeculi; messores autem Angeli sunt. Sicut ergo colliguntur zizania; et igni comburuntur; sic erit in consummatione saeculi : mittet Filius hominis Angelos suos, et colligent de regno ejus omnia scandala. Numquid de regno illo, ubi nulla sunt scandala ? ..”.

ذات صلة بمدينة الله بفضل الأخيار القلة . سجناء العالم . ألم يقل المرتل صارخاً :
« أطلق عبدك بسلام » .

والسؤال الذى يلح علينا الآن : هل قضى أغسطينوس بهذا على النظم السياسية والاجتماعية جميعاً بحكم الإعدام . لا : فالقديس يميز بين « الصلاح المطلق » و« الصلاح النسبي » : فالمطلق هو اتصال الصالحين برب الصلاح الذى يحتويهم « بالنعمة » ، أما الصلاح النسبي فهو مجزوء لأنه صلاح يكيف نفسه مع طبيعة البشر الآثمة أصلاً ، وهو أفضل ما فى الممكن ، الحسن من الدرجة الثانية . وهذا الصلاح النسبي ينسحب على الدولة كمؤسسة سياسية وعلى الحكومة كنظام اجتماعى وعلى الملكية كتقليد آدمى عتيق وعلى الرق كنظام اقتصادى لا مفر منه . وكل من هذه النظم ما هو إلا صورة من صور السيطرة dominium : فالدولة تمثل سيطرة الحاكم على المحكوم ، والملكية تمثل سيطرة المالك على ما يملك ، والرق يمثل سيطرة السيد على العبد . والمبرر الأوحد الذى يبرر بقاء هذه النظم هو أنها تقوم على صيغة ما تمت إلى الـ Ordo (النظام) بصلة : فالنظام فى وسط الفوضى الضاربة أمر خليك بأن يمتدح . وصلاحيه أى من هذه النظم السابقة من عدمه تتحدد بمدى جهادها فى محاربة الإثم وسعيها لإحتماق الحق . ومن هنا فإنه بمقدور أى من هذه النظم الدنيوية أن يصل إلى حدود الصلاح النسبي . ولقد سمح الله سبحانه وتعالى — وهو العليم بطبائع الجشع والأنانية وحب التملك فى البشر — بالملكية الخاصة إلى حد ، ولكن النهم والتكالب ومحاوله ابتلاع ما للغير من قليل يمحو الصلاح النسبي ليطبق على المدينة ظلام الإثم المطلق . ولقد سمح الخالق بقيام الدول « لعلاج الآفات البشرية وآثامها » Propter remedium peccatorum . وعلى هذا فإن الدولة أرق شأناً من المدينة الأرضية الظالمة ، وهى تقف بين النقيضين : مدينة الله فى القمة ومدينة الأرض فى القاع . وعلى الدولة أن تتحلى بالسلام Pax لكي تقرب من فهم « سلام الله » ، وأن تتمسك بالإيمان لتصل إلحانه إلى آذان السموات .

والسؤال الآخر هو : ماذا كان موقف القديس أغسطينوس من الكنيسة وأين هى من مدينة الله ؟ فى الواقع أنه فى الوقت الذى بدأ فيه القديس كتابة « المدينة » كانت الكنيسة فى الشرق (فى بيزنطة) قد اتخذت طريقاً مختلفاً عن مسار كنيسة الغرب فى

روما . ذلك أن كنيسة بيزنطة قد جعلت من نفسها « كنيسة دولة » تبجل الإمبراطور بل وتقدسها فرفعت قسطنطين إلى رتبة تلاميذ المسيح ، ومنحت خلفاءه حق الرياسة على هذه الكنيسة . ولكن كنيسة روما ظلت مستقلة عن مخالب العلمانية وأمرأه هذا العالم ، بل وظهر من بين أبنائها من تصدوا للجالس على العرش يعنفونه ويأمرونه باتباع قواعد « الصلاح » ، مثلما فعل القديس أمبروز مع الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم . هذا في حين أن البابا كان قد تحين الفرصة بعد أن تبنى الإمبراطور الغربي إلى مدينة رافنا وراح يخلق في العبادة الأرجوانية الإمبراطورية ليخلعها على ذاته .

ويميل غالبية الدارسين لمدينة الله إلى الاعتقاد بأن القديس أغسطينوس قد قصد « بمدينته » كنيسة روما بالذات . فهو بهذا الرائد الأول الذي أرسى قواعد النظرية البابوية على مدار العصور الوسطى . وليس من الصعب أن نجد في البابوية وكنيسة روما في العصور الوسطى تجسيدا لما قاله أغسطينوس عن *Gloriosissima Civitas Dei* ؛ ذلك لأن الكنيسة — على أية حال — قامت على عمد « الصلاح » *Justitia* والتي وفق « ناموس الإنجيل » *Lex Evangelica* ^(٢٠) . أو لم يصرخ «الدبران» (البابا جريجوري السابع) في أخريات أيام حياته — بعد أن غلبه شر هنري الرابع ملك الألمان — يردد نفس العبارة الأغسطينية : “*Dilexi Justitiam*” : « لقد أحببت الحق والصلاح وحسبي

De Civitate Dei, Liber Vigessimus, Cap. IX, Cols. 673-74 :

(٢٠)

“Ergo Ecclesia et nunc est regnum Christi, regnumque coelorum. Regnant itaque cum illo etiam nunc sancti ejus, aliter quidem, quam tunc regnabunt : nec tamen cum illo regnant zizania, quamvis in Ecclesia cum tritico crescant. Regnant enim cum illo qui faciunt quod Apostolus ait, Si resurrexistis cum Christo, quae sursum sunt sapite, ubi Christus est in dextera Dei sedens, quae sursum quaerite, non quae super terram .. Judicium autem datum nullum melius accipiendum videtur, quem id quod dictum est, Quae ligaveritis in terra, ligata erunt et in coelo; et quae solveritis in terra, soluta erunt et in coelo .. Regnant itaque cum Christo nunc primum Ecclesia in vivis et mortuis. Praeterea enim, sicut dicit Apostolus, mortuus est Christus, ut et vivorum et mortuorum dominetur. Sed ideo tantummodo martyrum animas commemoravit, quia ipsi praecipue regnant mortui, qui neque ad mortem pro veritate certaverunt. Sed a parte totum etiam caeteros mortuos intelligimus pertinentes ad Ecclesiam, quod est regnum Christi..”.

هذا . وهذا يجرنا إلى البحث عن مفهوم « الكنيسة » عند أغسطينوس : كان القديس يؤمن إيماناً قاطعاً بالكنيسة الواحدة الوحيدة الرسولية المسكونية « العالمية » فشيئاً بالقمير . وإلى جانب هذا خص بعض الكنائس بالفضل فوصفها بالنجوم "Particulatim per loca singula Ecclesiae" . ومرد الفضل لهذه الكنائس الخاصة هو « رسوليها » أى أنها قد تأسست على أبدي رسل المسيح أنفسهم ، وعلى رأس هذه الكنائس كنيسة روما التى أسسها أمير الحواريين بطرس الرسول ، الذى قال له المسيح : « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيتى » .

وهذه الكنائس أو « الخواص الخمس » هى التى تؤلف فى النهاية الكنيسة المسكونية التى تلتئم عند الحاجة فى المجمع المسكونية ، وهى بجمرة الإيمان المتقدم فى مجامعها الذهبية خليفة بأن تبتلع الانحراف وتذيبه ، وهى أشبه ما تكون هنا « بفلك » سيدنا نوح الذى اصطفاه الله لخلاص العالم من الطوفان ، فهى الوسيط الأوحى بين الله والحلائق . وفى هذه النقطة بالذات يبدو أن أغسطينوس قد قرب المسافة بين « مدينة الله » وبين « الكنيسة المسكونية » ، ولكنه لم يطابقهما تماماً .

والكنيسة هى مجتمع « حجاج » الأرض على درب « مدينة الله » ، ولكنها فى مسيرتها وثيقة الصلة بالدولة وبنظمها فهى لا تستطيع ولا يمكن لها أن تخلع نفسها عن النظم الأرضية . وهى إذ تدين بالصلاح المطلق يحسن بها فى نفس الوقت أن تقر الصلاح النسبى .

وأغسطينوس واضح فى تغليب — فى الفضل — الكنيسة على الدولة ، فهو يلقى بثقله وراء « كاهن الله » Vicarius Christi وينحاز إلى جانب رداء الكهنوت على العبادة الأرجوانية ، ومن هنا كانت أولوية Sacerdotium على Regnum . ولقد اتخذ الحزب البابوى فى صراعه مع الإمبراطورية حجة أغسطينوس هذه سلاحاً قوياً يدللون به على مزاعمهم . هكذا وقفت « مدينة الله » كمؤلف عملاق على مفترق الطرق ، بين القديم الوثنى والجديد المسيحى ، وهى تمهد الطريق للجديد على أنقاض القديم المتساقط .

وبرغم إعجاب أغسطينوس بأفلاطون وتأثره به فى بعض النواحي ، إلا أنه فى

كتابه « مدينة الله » انتقد الفلسفة الأفلاطونية والأكاديمية الآثينية على إطلاقها .
والخلاف بين أغسطينوس والفلاسفة القدامى يتضح إذا ما أدركنا أن الفلسفة الوثنية
لم تهتم إلا بالسعادة في هذا العالم ، في حين أن أغسطينوس كان يتحدث عن السعادة
الأبدية والغبطة في الفردوس وملكوت السموات^(٢١) . والخير المطلق عند أغسطينوس
هو في الحياة الأبدية ، ومن أجل تحصيل هذا الخير يجب التغلب على ضده ،
ولا يتأتى هذا إلا بأن يحيا المرء حياة فاضلة . ولقد تناول القديس الفضائل الأربع
عند الفلاسفة القدامى — وهى الاتزان والتعقل والعدل والتحمل — ففندها جميعاً ،
مبيناً أنها فضائل مائة ما لم يشفعها ويعضدها « الإيمان » والأمل في الحياة الأبدية
والنعيم الأزلى : إنها فضائل مهددة « بالإجهاض » لأنها تخلو من نعمة الغبطة .
ويضرب أغسطينوس مثلاً بفضيلة « التحمل » عند الرواقيين ، الذين يعافون الحياة
ويزهّدونها تقشفاً دون أن يكون لهم قصد واضح اللهم إلا التلذذ في هذا العذاب .
لقد أطلق أغسطينوس على الفضيلة التى من هذا القبيل اسم « رذيلة الانتحار »
لأنها تخلو من عنصر السعادة . كما حمل أغسطينوس على فكرة « المجتمع السعيد »
عند الفلاسفة القدامى ، وتساءل كيف تكون هنالك سعادة وسط تلك الحروب
الضارية بين مدينة وأخرى ، وناهيك عن ويلات الحروب الأهلية . ومع أن القديس
أغسطينوس قد اعترف بأن بعض المدن قد تكره أحياناً على الحروب للدفاع عن
كيانها ، إلا أنه رأى في هذه الحروب — برغم هذا — نوعاً من الكارثة البشرية
فأسماها « الضرورة القاسية » .

De Civitate Dei, Liber Vigessimus Secundus, Cap. XXX, Cola. 801-2 : (٢١)

“Quanta erit illa felicitas, ubi nullum erit malum, nullum latebit bonum, vacabitur Dei
laudibus, qui erit omnia in omnibus ! — Admoneor etiam sancto Cantico, ubi lego, vel audio,
Beati qui habitant in domo tua, Domine, in saecula saeculorum laudabunte. Omnia membra et
viscera incorruptibilis corporis, quae nunc videmus per usus necessitatis varios distributa, quoniam
tunc non erit ipsa necessitas, sed plena, certa, segura, sempiterna felicitas, proficient in laudibus
Dei ..”.

والسلام عند أغسطينوس هو الخير كله ، فهو سعادة الكل دون استثناء في ظل « المحبة » الإلهية والعدالة . والسلام توأم النظام ، وبهما تكتمل طبيعة الأمور . ويرى أغسطينوس أن محاولات البشر لهدم هذا النظام « الطبيعي » القائم على السلام إنما هي محاولات عابثة لأن الطبيعة لا بد وأن تسود وتعيد الأمور إلى أصلها الأول : فالأجساد تموت وتتحلل وتتحول إلى التراب والهواء ، وهي بهذا تعود إلى أصلها الأول ، إلى حالة من النظام الأصلي ، حالة السلام . ويعدد أغسطينوس مراحل وأشكال هذا السلام ، فهناك سلام الجسد ، وسلام الروح ، ثم سلام عند اندماج الجسد بالروح ، وهناك سلام بين الله والمخلوق يتم بنعمة الإيمان ، وهناك سلام بين الإنسان والإنسان يتم بالتوافق المقنن ، ثم هناك سلام الدول الذى تحكمه القوانين العامة . على أن السلام الحقيقى وغاية المطاف هو السلام الكائن فى مدينة الله الذى تعمر به قلوب الخالصاء الذين يعاينون الحق والصلاح . وأما الذين لا ينعمون بهذه النعمة فهذه مسئوليتهم ؛ لأنهم يعصفون بقانون النظام والسلام .

ولما كانت الخليفة كلها من صنع يد الله الخيرة ، فلسوف يأتى اليوم الذى يعود فيه « الخارجون » إلى دائرة النظام والسلام : ذلك أن الخير الأول سوف يتخوى سائر الشرور والأسقام البشرية^(٢٢) .

* * *

(٢٢) فى الواقع أن هذه الفكرة قد أخذها أغسطينوس عن الأفلاطونيين المحدثين Neo-Platonists ، فقد قال بها كل من كلمنت السكندرى وأوريجين وجريجورى من نيسا . والرأى عند هؤلاء أن شر البشرية عرض لأن الإثم ليس له جوهر إيجابى وإنما هو تضاد الخير الأصل أو انتفاؤه ، وعقاب الشر ليس بالردع ، وإنما عقاب الشر شره فهو يحمل معه بذور سقوطه النهائى . حقيقة أن آدم قد سقط فى جنة عدن وأحس بعريه وبثقل سقطته واختطف لنفسه قضية الموت ، ولكن الرحمة العلوية أعدت له سبيلا للخلاص فلم تتركه لفصلته ، و « تجسدت الكلمة وصارت لحما » فى صورة البشر ليعيد الخالق لمخلوقه الصورة الأولى وليفديها بالدم الزكى . وهكذا صار الإنسان يمر بمراحل أربع : . موت الجسد ، وقيامه الموتى ، وتحول الجسد إلى روح ، ثم ذوبان طبيعة البشر التى هى من يد الخالق أصلا فى الخالق ذاته — أى العودة إلى العلة الأولى .

مدينة الله هي فلسفة الإشراق الذي بدد به أغسطينوس فلسفة الظلمات . لقد انكب البابا جريجورى العظيم على دراسة هذا المؤلف الساحر ، وهام حباً بهذه « المدينة » شارل العظيم الذى كان يعتقد أنه مؤسس مدينة الله على الأرض . وتغنى أبيلارد بأناشيد استقامها من بحور المدينة الأغسطينية . وعندما تسلق دانتى العظيم السلم إلى الفردوس خطا على نفس الدرجات التى صعد عليها القديس أغسطينوس^(٢٣) .

In tutte parti impera, e quivi regge, Quivi è la sua città e l'alto seggio :

(٢٣)

O felice colui cui ivi elegge !

(L'Inferno Di Dante).

٨ - القوط الغربيون في إسبانيا

مع أن مملكة القوط الغربيين قد سبقت في قيامها مملكتي القوط الشرقيين والفنندال إلا أنها صمدت أكثر منهما ، فهي قد تأسست في عام ٤٦٦ وقد استمرت حتى عام ٧١١ . ولم ينقذ إيطاليا من أيدي القوط الغربيين سوى موت آلارك .

والمجتمع القوطي الغربي شبيه بمجتمع القوط الشرقيين ومجتمع الفنندال واللومبارد ، في حين أن هذه المجتمعات جميعاً تختلف عن المجتمع الفرنجي والأنجلو سكسوني .

كان القوط الغربيون قد وصلوا غالة تحت قيادة أتولف ، واتخذوا من تولوز عاصمة لهم سنة ٤١٢ . على أن الرومان ظلوا محتفظين بشمال غالة ، فعندما اغتال الأمير يوريك Euric شقيقه ثيودوريك الثاني سنة ٤١٦ كان الحاكم الروماني سياجريوس Syagrius يسيطر على سواسون . وكان يوريك يخطط لإرساء مملكة مستقلة تماماً عن النفوذ الروماني : وفي سنة ٤٦٩ شن حملة على أواسط فرنسا وهاجم مدينة كليرمونت ذاتها . ثم أنزل هزيمة بالأسطول الروماني الذي كان تحت إمرة بازيليسكوس Basiliscus ، وفي سنة ٤٧٠ استولى على مدينة بوج . بعد هذا شن يوريك عدة حملات ضد إقليم أوفرن Auvergne ولكن أكديكيوس Ecdicius وسيدونيوس أبولينارس قاما بالدفاع عن إقليميهما هذا دفاعاً مجيداً . على أنه في سنة ٤٧٥ عندما هدد القوط الشرقيون شمال إيطاليا التفت جوليوس نپوس الإمبراطور الغربي إلى يوريك يطلب منه العون ، وتنازل له عن إقليم أوفرن . ثم اعترف الإمبراطور بفتوحات يوريك في إسبانيا وجنوبي غالة حتى نهر الرون ، وكذا بفتوحاته في أواسط غالة حتى نهر اللوار .

وفي سنة ٤٧٦ قاد يوريك جيشه وزحف على شمال إيطاليا ليتحرش بادواكر الزعيم الجرمانى ، ومع أنه لم يجرؤ على الاعتراض على عزل أدواكر لروميلوس أغسطسولوس ، إلا أنه أوقع أدواكر في حرج بالغ . وقد كافأه الإمبراطور زينون على موقفه هذا بأن عقد معه معاهدة سلمه بمقتضاها المنطقة الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب .

جلبت هذه الانتصارات المتتالية شهرة واسعة ليوريك ، وتوافدت السفارات على عاصمته تولوز من قبل قوط إيطاليا وزعماء القبائل الجرمانية الأخرى ومن بلاد فارس تطلب محالفته ومعونته العسكرية . كذلك قام يوريك بنشر مجموعة من القوانين الرومانية لخدمة ولايات مملكته ، وأبقى على النظم الرومانية القديمة في البلاد .

مات يوريك سنة ٤٨٤ في مدينة آرلس Arles وخلفه ابنه آلارك الثاني الذي كان معاصراً لكلوفس ملك الفرنجة . ولقد أظهر آلارك قصراً في تفهم الظروف السياسية المحيطة بمملكته : ففي سنة ٤٨٦ بعد أن هزم كلوفس الحاكم الروماني في سواسون وهرسياجريوس ، هرب الأخير إلى بلاط آلارك يطلب العون ضد كلوفس ، ولكن آلارك تخلى عنه تماماً فأتاح بذلك الفرصة لكلوفس لأن يضم سواسون إلى مملكته . بل إن الضربة الثانية القوية التي وجهها كلوفس للقوط كانت اعتناقه للكاتوليكية . الأمر الذي أكسبه عطف سكان ولايات غالة جميعاً . وأمام هذا اضطر آلارك إلى أن يغير موقفه من الكاثوليك فأبدى تسامحاً معهم ، ثم إنه أصدر في عام ٥٠٦ مقننة موجزة للقانون الروماني بعنوان Breviarium Alarici لخدمة الولايات الرومانية في غالة .

عقد كلوفس حلفاً مع البرجنديين ضد القوط الغربيين ، واتفق مع الإمبراطور أناستاسيوس على طردهم من غالة . وفي سنة ٥٠٧ قام البرجنديون بغزو أوفرن Auvergne ، في حين أن كلوفس عبر اللوار وزحف على بواتيه . وفي واقعة Campus Vogladensis حلت الهزيمة بالقوط وقتل ملكهم آلارك الثاني . ثم التحمت قوات الحلفاء واستولت على تولوز العاصمة القوطية ومعها الكثر الهائل الذي كان آلارك الأكبر قد اغتنمه من روما في عام ٤١٠ . بعد هذا استولى كلوفس على كل من أنجوليم Angouleme وسينيت Saintes وبوردو Bordeaux وتور Tours ، وفي الوقت نفسه قام ثيودوريك ابنه الأكبر بتخريب ونهب المناطق الزراعية في المملكة القوطية .

خلف آلارك الثاني ابنه آمالارك تحت وصاية وحماية الكونت ثيودس Theudis . وتزوج آمالارك من إحدى بنات كلوفس الفرنجي ، ولكنه طلب منها نبذ الكاثوليكية واعتناق المذهب الأريوسي ، ولما رفضت الاستجابة لمطلبه راح يسيء معاملتها . ولذا

فإن شقيقها كلدبرت ملك باريس أغار في عام ٥٣١ على سبتانيا وهي الولاية الوحيدة التي بقيت من غالة في يد القوط : ثم استولى على عاصمتهم الجديدة ناربون . وحرر كلدبرت شقيقته من طغيان زوجها واستولى على كنوز القصر الملكي أيضاً . وقد فر آمالارك إلى برشلونة عن طريق البحر ، وما إن وصلها حتى قام نفر من أتباعه باغتياله . وبموت آمالارك انقرض فرع آل بالت Balt من الأسرة الحاكمة للقوط الغربيين .

اختير الكونت ثيودس ملكاً في عام ٥٣١ ودام حكمه عشرين عاماً . وفي عهد ثيودس هذا انتقل سلطان القوط الغربيين إلى إسبانيا واتخذ الملك برشلونة عاصمة له . وفي سنة ٥٤١ نجح ثيودس في صد هجوم شنه على سراجوسا الملكان الفرنجيان الأخوان كلدبرت ولوثير . واستولى ثيودس في عام ٥٤٣ على حصن سبتة من أيدي السلطات الرومانية ، ولكنه لم يتمكن من المحافظة عليه وتوفي ثيودس في سنة ٥٤٨ في إشبيلية ، فخلفه ثيودجيزل الذي اغتيل في نفس العام .

اعتلى عرش القوط الغربيين بعد ذلك الملك أجيلا (٥٤٨ - ٥٥٤) الذي ركز اهتمامه على إسبانيا وصرف النظر كلية عن غالة . وللتدليل على سياسته الجديدة نقل عاصمته إلى مريدا على نهر جواديانا (الوادي اليناع) ، ثم راح يتحرش بولاية بايتكا (الأندلس) Baetica . ولكن الكاثوليك من الأهليين ثاروا ضده وأوقعوا به هزيمة عند قرطبة ، كما قتلوا ابنه في ميدان القتال . ولقد اتبع آجيلا سياسة متمزمة مع الكاثوليك ، كما وأنه جرد الكثيرين من نبلاء الأندلس من استقلالهم الذاتي الذي كانوا يتمتعون به . وقد جلبت هذه السياسة على آجيلا مشاكل عديدة ، لعل أهمها ظهور منافس له هو آثانا جلد Athanagild الذي راح يتآمر ضده ويطلب معونة عسكرية من الإمبراطور جستينيان للتمرد عليه . وفي سنة ٥٥٠ أرسل الإمبراطور أسطولا بقيادة ليريوس لتأييد آثانا جلد ، الذي تمكن بهذا من إيقاع الهزيمة بالملك آجيلا سنة ٥٥٤ عند إشبيلية . ثم جلس آثانا جلد على العرش (٥٥٤ - ٥٦٧) .

كان الثمن الذي دفعه آثانا جلد للإمبراطور البيزنطي مقابل المساعدة التي تلقاها باهظة للغاية : فقد تنازل له عن بايتكا وجزء من قرطاجينينا وملقا وقرطاجينة

وقرطبة وإشبيلية . كذلك عين الحاكم البيزنطى حاكماً عسكرياً للإشراف على هذه الممتلكات الإسبانية بلقب *Magister militum Spaniae* . بعد هذا نقل آثانا جلد عاصمته إلى طليطلة في وسط إسبانيا ، مما سهل على رجاله التغلغل في شتى أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية . ولقد شن آثانا جلد حملة على قبائل الباسك ونجح في دفعهم شمالاً إلى نثارو ، وتمكن أيضاً من صد تحركات الفرنجة بإقليم سبانيا . اكتسب آثانا جلد شهرة واسعة ، وكان بلاطه في طليطلة مزدهراً ، وتوافدت عليه السفارات تطلب صداقته . ولقد طلب ملكا الفرنجة سيجبرت صاحب استرازايا وكليرك صاحب باريس الزواج من ابنتي العاهل القوطى . وقد جرت هاتان الأميرتان القوطيتان بروهلدة وجولزونثا شقاقاً وخراباً على البيت الفرنجى المالك .

بعد وفاة آثانا جلد خلفه على العرش أخواه ليوفا وليوفيجلد : الأول حكم من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٥٧٢ ، والثانى ظل يحكم من ٥٦٨ إلى ٥٨٦ . وكان ليوفيجلد يسعى لحكم شبه الجزيرة الإيبيرية كلها دون أن يأخذ في الاعتبار مصالح بيزنطة فيها . وقد أضفى على بلاطه ملامح بلاط الأباطرة ، كما سك عملة ذهبية باسمه . وفي سنة ٥٧٢ استولى على أسيدونيا وقرطبة من أيدي البيزنطيين . ثم هجم على ثيودمير ملك السويث في غاليسيا ، الذى كان قد تحالف مع قبائل كانتابرى في مناطق الجبال جنوبى خليج بسكاي ، ونجح ليوفيجلد في الاستيلاء على مدينتى ليون وزاجورا من أعدائه هؤلاء . . . ولقابلة تحركات الفرنجة منح أحد أبنائه ولاية سبانيا ليتفرغ للدفاع عنها . ولما تأمر ضده نبلاء قرطبة وطليلة صادر أملاكهم وضمها للتاج ، ثم عين ابناً آخر من أبنائه حاكماً لدوقية طليطلة .

كانت سياسة ليوفيجلد تقوم أساساً على الحرب والقوة ، من أجل إخضاع كل شبه الجزيرة للتاج . ولكن الخلافات المذهبية والانقسامات التى ظهرت بين أفراد البيت المالك حالت دون تحقيق هذا الغرض . فلم تكن سياسة الملك تجاه رعاياه الكاثوليك واضحة المعالم : فهو تارة يضطهد أساقفتهم وأخرى يتودد إليهم . وكان ليوفيجلد قد زوج أكبر أبنائه ، من زوجته البيزنطية ، من أنجوندز ابنة الأميرة الإسبانية بروهلدة من زوجها الفرنجى سيجبرت . ولقد حاولت أرملة الملك آثانا جلد حمل أنجوندز على اعتناق المذهب الأريوسى ، ولكنها رفضت ، ولذا أرسل ليوفيجلد

ابنه هرمينجلد وزوجه إلى أشبيلية . وفي أشبيلية تعرف هرمينجلد على لياندر Leander أسقف المدينة الكاثوليكي الذي اشتهر بعلمه وفنه ، والذي أقنع هرمينجلد باعتناق المذهب الكاثوليكي . وهلل أهل الأندلس فرحاً بهذا التحول . ولكن ليوفيجلد فزع من هذه الأنباء وأرسل إلى ابنه يحذره من عاقبة هذه الخطوة ، ولكن هرمينجلد تمرد ضد أبيه وفتح باب المفاوضات مع ملك السويث الكاثوليكي ومع الإمبراطور البيزنطي .

دعا الملك العجوز الأساقفة الكاثوليك إلى مجلس عقده في طليطلة ، سنة ٥٨٠ ، وعرض عليهم كافة أملاكهم التي انتزعت منهم إن هم اعتنقوا الأريوسية ، ورغبهم في ذلك بإعلانه أنه لن يجبرهم على العمد مرة ثانية . وقد قبل البعض عرض الملك ، ولكن الغالبية أحجمت وتمسكت بكاثوليكيتهما . واضطهد الملك هذا الفريق الأخير اضطهاداً شديداً فصادر أملاكهم وأعدم عدداً منهم .

بعد هذا شن ليوفيجلد عدة حملات ضد السويث والباسك ، وقام بتأسيس مدينة فيتوريا لصدهم . وبعد حملة أخرى في عام ٥٨٣ ضد السويث ، ثم ألحق هزيمة بالبيزنطيين في نفس العام . ولما رأى هرمينجلد أن حلفاءه قد هزموا الواحد بعد الآخر ، تفهقر بقواته إلى حدود نهر الوادي الكبير وأشبيلية . ثم سقطت أشبيلية في يد ليوفيجلد بعد حصار دام عامين ، وقام بنى ابنه هرمينجلد إلى بلدة تاراجونا ، حيث عرض عليه العودة إلى المذهب الأريوسي ولما رفض أمر يقتله (٥٨٥) . واستولى ليوفيجلد كذلك على بورتو وبراجا من السويث وبعد وفاة مير Mir ملك السويث ضم مملكته إلى التاج القوطي .

ولكن الفرنجة راحوا يعدون العدة للانتقام من ليوفيجلد : فاقدم رأوا في هرمينجلد شهيداً من شهداء الكاثوليكية ، كما وأنهم لم يغفروا للملك القوطي نفيه للأميرة الفرنجية إنجوندز إلى شمال أفريقيا حيث ماتت لاجئة هنالك . عقد الملك الفرنجي كلدبرت الثاني حلفاً مع جونترام ملك بروجنديا ضد القوط ، ثم أرسل أسطولا لمساعدة السويث في الثورة ضد ليوفيجلد . وقام البرجنديون بغزو سبانيا فتصدى لهم ريكارد Recared ابن الملك ، الذي نجح أيضاً في الاستيلاء على أسطول الفرنجة . وفي سنة ٥٨٦ توفي ليوفيجلد وخلفه على عرش إسبانيا ابنه ريكارد ، الذي أسس مدينة حملت اسمه

هي ريكوبولس في الكاريا Alcaria .

ولعل أهم حدث وقع في عهد ريكارد (٥٨٦ - ٦٠١) هو اعتناق الأمة القوطية الإسبانية ومليكيها المذهب الكاثوليكي وذلك في سنة ٥٨٧ . ويرجع الفضل في هذا إلى جهود الأسقف لياندر الذي كان قد شجع هرمينجلد على دخول الكاثوليكية ، ثم هرب إلى القسطنطينية من وجه ليوفيجلد . وفي بيزنطة التقى لياندر مع القاصد الرسولي (apocrysarius) جريجوري (البابا جريجوري الأول العظيم فيما بعد) . وكان الاثنان يجيدان اللسان اليوناني ، وسرعان ما توطدت صداقة متينة بين هذين الراهبين المرموقين . وقد ظل لياندر في القسطنطينية من ٥٨١ إلى ٥٨٦ ، وعندما وصلته أنباء اعتلاء ريكارد العرش أسرع بالعودة إلى إسبانيا ، ولحق به مازونا Masona أسقف مريداً الذي كان هو أيضاً في المنفى . وبعد اعتلاء ريكارد العرش بشهور عشرة قام بتدشين كاتدرائية طليطلة وفق الطقوس الكاثوليكية وذلك في ١٣ أبريل سنة ٥٨٧ . واعتنق الكثير من الأساقفة الأريوسيين المذهب الكاثوليكي ثم قام جاثوليقيوس (Katholikos) طليطلة بمسح ريكارد بالزيت المقدس في حفل تتويجه ملكاً ، تمشياً مع التقاليد البيزنطية .

وفي سنة ٥٨٩ انعقد المجمع في طليطلة وحضره اثنان وستون من الأساقفة وخمسة من رؤساء الأساقفة ، ورأس الملك ريكارد المجلس ، وكانت الملكة وسائر نبلاء الدولة من بين الحضور . وبعد مناقشات طويلة أعلن المجمع قراره بإدانة الأريوسية ونيل تعاليمها ، ثم سجلت أسماء الأساقفة الأريوسيين الذين دخلوا الكاثوليكية ، وقرر المجلس قبول قرارات المجالس المكسونية في نيقيا والقسطنطينية وأفيسوس وخالقيدونية . ولعل أهم ما يلفت النظر هنا هو أن أعضاء هذا المجمع قد بالغوا في حرصهم على تأكيد ألوهية الابن (المسيح) فأضافوا إلى عقيدة نيقيا وقانون الإيمان النيقو - قسطنطيني عبارة تقول بانبثاق الروح القدس من الابن Filioque وذلك لتأكيد مساواة الابن للأب في الجوهر^(١) . والواقع أن هذه الاضافة.

Isidore de Seville, Historia Gothorum :

(١)

“In ipsis enim regni sui (Recaredi) exordiis Catholicam fidem adeptus totius Gothicae gentis populos inoliti erroris labe deteresa ad cultum rectae fidei revocat. Synodum deinde ad condemnationem arrianac haeresis de diversis Spaniae et Galliae provinciis congregat, cui concilio idem

الإسبانية إلى قانون الإيمان كانت شؤماً على تاريخ الكنيسة العالمية ؛ فهي التي مزقت الوحدة وأججت من نار القطيعة بين الشرق الأرثوذكسي والغرب اللاتيني فيما تلا من تاريخ . ولقد سجل لنا هذه الأحداث الخطيرة المؤرخ المعاصر إزيدور الأشبيلي Isidore of Seville شقيق الأسقف لياندر ، كما وردت أخبار هذا المجمع أيضاً في كتابات جريجورى أسقف تور مؤرخ الفرنجة .

هذا وقد طلب الملك ريكارد من المجلس إدخال طقس بيزنطى فى الكنيسة الإسبانية ألا وهو أن يقوم جمهور المصلين فى الكنائس بتلاوة قانون الإيمان بصوت عال . وقد أصبحت قرارات مجلس طليطلة بمثابة القانون المدنى لدولة إسبانيا . وبعد أربع سنوات من اعتناقه للمذهب الكاثولى كى كتب ريكارد للبابا جريجورى الأول العظيم يبلغه بذلك ، كما أرسل إليه كأساً للتناول المقدس مصنوعة من الذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة ، وطلب إلى البابا أن يتوسط بينه وبين الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) لتسوية الموقف حول المدن الواقعة تحت السيطرة البيزنطية فى إسبانيا . وقد رد البابا جريجورى على ريكارد برسالة حارة تحمل التهئة له لأنه أدخل أمة بأسرها فى حظيرة الإيمان الكاثولى كى القويم ، وأرسل له هدية بالغة القيمة ألا وهى مفتاح صغير مصنوع من القيود التى كانت تغل أيدي القديس بطرس الرسول أيام سجنه فى روما .

مات ريكارد سنة ٦٠١ وخلفه ابنه ليوفا الثانى الذى سار على سياسة أبيه الكاثولى كية : ولكن واحداً من الكونتات اسمه فيتريك Witteric قام بثورة ضده وقتله . وجلس فيتريك على العرش سبع سنوات جاهد خلالها فى سبيل القضاء على الكاثولى كية وإرجاع المذهب الأريوسى من جديد ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، واغتيل فى نهاية الأمر . ثم آل العرش إلى جندمار Gundemar سنة ٦١٠ وحكم لمدة عامين ،

religiosissimus princeps interfuit gestaque ejus praesentia sua et subscriptione firmavit, abdicans cum omnibus suis perfidiam quam hucusque Gothorum populos Arrio docente didiceret, et praedicans trium personarum unitatem in Deum, Filium a Patre consubstantialiter genitum esse, Spiritum sanctum inseparabiliter a Patre Filioque procedere et esse amborum unum spiritum, unde et unum sunt."

فخلفه على العرش الأمير سيزبوت Sisebut الذى اضطهد يهود إسبانيا وأجبر بعضهم على اعتناق المسيحية . وفى سنة ٦٢١ توفى سيزبوت وخلفه على العرش ابنه ريكارد الثانى الذى توفى بعد شهر قلائل من اعتلاء الحكم . ثم آل العرش إلى سونزيلا Swinthila الذى بسط سلطانه على كل إسبانيا بما فيها المعازل البيزنطية وحصون الباسك . وقد أشرك سونزيلا زوجه ثيودورة وولديه معه فى الحكم ، وكان يقصد من وراء هذا الإجراء أن يجعل الحكم وراثياً فى أسرته وقد أدى هذا إلى قيام النبلاء بالثورة ضده لأنهم كانوا حريصين على التقاليد الجرمانية القائمة على مبدأ الانتخاب لا الوراثة فى الملك . ولقد نجح أحد هؤلاء الثوار وهو سيزيناند Sisenand حاكم سبتانيا فى عقد حلف مع الفرنجة سنة ٦٣١ ثم خلع سونزيلا عن العرش وجلس مكانه . جمع الملك الجديد مجلس طليطلة فى نفس العام وأدان سياسة سونزيلا ثم تقرر فى هذا المجلس أن تعاد إلى مجلس الأعيان من العلمانيين والأساقفة حقوقه فى انتخاب الملك كما كانت الحال من قديم . وقرر المجلس أيضاً الاستيلاء على أبناء اليهود الصغار وتربيتهم على القواعد المسيحية . وفى سنة ٦٣٦ مارس مجلس الأعيان سلطته فاختر شنتيلا ملكاً وبعد وفاته اختار ابنه تولجا Tulga . ولما أن لاحظ النبلاء العلمانيون فى المجلس أن زملاءهم من الأكليروس كانوا قد تطرفوا فى مواقفهم الدينية ، تكتلوا فى وجههم واختاروا فى سنة ٦٤٢ واحداً من بينهم هو كندازفنت Chindaswinth ملكاً وطرده تولجا الذى دخل أحدى الأديرة . وحكم من بعد كندازفنت ابنه ريكزفنت Receswinth (٦٥٣ - ٦٧٢) الذى بذل جهوداً كبيرة لمزج القوط بالرومان ، فأصدر فى سنة ٦٥٤ مقتته المعروفة باسم Liber Judiciorum التى سمحت بالتزاوج بين القوط والرومان ، وتنقسم هذه المقتنة إلى ١٢ كتاباً و٥٤ موضوعاً و٥٩٥ مادة ؛ وهى تتضمن الأحكام التى أصدرها الملوك القوط على مدى قرنين من الزمان . وتشبهها بالإمبراطور جستينيان العظيم أصدر هذا الملك القوطى « ذيلاً » لهذه القوانين عرف باسم « المتجددات » . وتنطق هذه القوانين بأثر رجال الدين فيها ، وهى أول محاولة لخلط القانون الجرمانى بالقانون الرومانى ، ووفقاً لها صارت اللاتينية لغة القضاء . وكانت هذه المجموعة من القوانين تلائم أحوال البلاد ونشاطها الزراعى والتجارى : فنجد فيها عقوبات ضد من يقطع أشجار الفاكهة ، وأخرى ضد المتلاعبين بحدود

ملكياتهم الزراعية وقنوات المياه ، وهناك فوق هذا عقوبات ضد أصحاب الكلاب « الضالة » والخنازير « المتشردة » .

بعد وفاة ركزفنت سنة ٦٧٢ انتخب النبلاء قامبا Wamba ملكاً وقد تأمر ضد الملك الحديد دوق سبتانيا بول الذى عقد حلفاً مع الفرنجة ، ولكن قامبا أوقع به الهزيمة واقتاده أسيراً ذليلاً فى موكب انتصاره وهو يدخل طليطلة سنة ٦٧٣ . وتعاقبت سلسلة من الملوك على العرش الإسباني على الوجه الآتى : حكم إرفيج Erwig من ٦٨٠ إلى ٦٨٧ ، ثم خلفه فيتزا Witiza من ٧٠٠ إلى ٧١٠ . وبعد موت فيتزا وقع خلاف بين أعضاء مجلس الأعيان وبين أكيللا Achilla ابن الملك المتوفى : فقد اختار المجلس رودريك دوق بايتيكا للعرش ، فى حين أن فريقاً آخر وقف بجوار أكيللا فى مطالبته بالتاج . ثم استنجد أتباع أكيللا بعرب أفريقيا ضد حزب رودريك (لزريق) . وقبل العرب مساعدة أكيللا ضد رودريك ، وفى ١٩ يوليو ٧١١ تقابل الجيشان العربى بقيادة طارق بن زياد ، والقوطى بقيادة رودريك على شواطئ بحيرة ياندا Janda فى إقليم قادش ، وحلت الهزيمة بالقوط : ثم استولى العرب على أشبيلية وقرطبة وأخيراً دانت لهم طليطلة . وفى العام التالى وصل القائد الأعلى للجيش العربى وهو موسى بن نصير إلى إسبانيا واستأنف الحرب ضد القوط فاستولى على مريدا وطارد رودريك إلى حدود غاليسيا ثم هزمه فى واقعة Segoyuela فى ولاية سالامنكا (سبتمبر ٧١٣) ، ويرجح أن رودريك قتل فى هذه المعركة . وعندما دخل موسى بن نصير طليطلة أعلن تبعية إسبانيا للخليفة الأموى ، ثم أعاد إلى أكيللا مقره وولايته فى طليطلة .

* * *

وقبل أن نطوى صفحة قوط إسبانيا يجب أن نتعرف على شخصية معاصرة مرموقة . ألا وهو ايزيدور الأشبيلي : ولد ايزيدور وشقيقاه لياندر وفولجنتيوس وشقيقته فلورنتينا لنيل روماني اسمه سفريانوس فى ولاية قرطاجة . وبعد وفاته نزلت العائلة إلى أشبيلية حيث سيم الأشقاء الثلاثة أساقفة وأصبحت شقيقتهم رئيسة لأحد الأديرة أيضاً ، وقد كتب لها شقيقها لياندر قانوناً لديرها عرف باسم De Institutione Virginum الإمبراطورية الرومانية .

ولياندر هو صاحب الفضل في تحويل مملكة القوط الغربيين إلى الكاثوليكية على عهد الملك ريكارد كما سبق القول . ولقد كتب عنه شقيقه إيزيدور في كتابه « الرجال الأماجد » De Viribus Illustribus أنه « فصيح اللسان ومبشر من الطراز الأول ومؤلف لأعذب الأناشيد الكنسية » .

أما إيزيدور فقد كرس حياته للعلم ، وطبقت شهرته الآفاق فقد كتب عنه تلميذه بروليو Braulio أسقف سراجوسا بأنه « مبعوث الإله لبعث آداب القدامى من الأكفان ولذا فإنه يستحق قول شيشيرون : « إذ نحن غرباء في أوطاننا بعد أن ضللتنا الطريق جاءت كتبك لتهدينا إلى الطريق » . ولقد بحث إيزيدور في الكرونولوجيا وقوانين الاكليروس ونظم العائلة والدولة وجغرافية البلاد ومواقعها وأسمائها ، ومؤلفاته عديدة منها Prooemia

، De Ortu et Obitu Patrum ، Officia ، Synonyma ، De Natura Rerum ، Contra Judaeos ، De Numeriis ، De Nominibus Legis et Evangeliorum ، De Viribus Illustribus ، De Haeresibus ، Sententiae ، Chronica ، De Origine Gothorum et Regno Suevorum et etiam Vandalorum Historia ، Etymologies ثم Quaestiones .

والكتاب الأخير هو أهم هذه المؤلفات جميعاً ، فهو يبحث في أصول الكلمات ، ولقد نهج فيه إيزيدور منهج كتاب دوائر المعارف القدامى من أمثال قارو وبليني وسيوتونيوس . ويغطي الكتاب نواح متفرقة من فروع المعرفة : في الطب والتاريخ الطبيعي وعلم الأحياء والمعمار والرياضيات وعلم الحيوان والتشريح والفلك والقانون وعلم وظائف الأعضاء والجغرافيا الطبيعية والمعمار والمساحة والتعدين والزراعة والعلوم العسكرية .

٩ - اللومبارد

اللومبارد أصلاً قبيلة جرمانية موطنها مصب نهر الب (باردنجاو) . وكانوا قد استقروا في القرن السادس في بانونيا ، بعد أن قضوا ، بمعونة الآفار ، على قبائل جيبيدي ما بين عامي ٥٦٥ - ٥٦٧ . وقد قدم اللومبارد إلى القائد البيزنطي نارسس ، الذي كلفه الإمبراطور جستنيان بتحطيم مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا ، كتائب قوامها ٥٠٠٠ رجل .

والمجتمع اللومباردي مجتمع رعوي قام على نظام العشيرة ، وفكرة العدالة عندهم تقوم على القصاص والثأر . ولم يحتك اللومبارد أثناء هجراتهم بحضارة راقية وإنما اشتبكوا مع الآفار ، وقد تعرفوا على المسيحية وقت احتكاكهم بالجيبيدي الأريوسيين ، هذا وإن كانت أعداد غفيرة منهم قد ظلت على وثنيها وقت غزوهم لشمال إيطاليا . وقادة الحرب عندهم هم « الأدواق » الذين كانوا وقت غزو إيطاليا يخضعون لإمرة زعيم أو ملك واحد هو البوين Alboin .

قاد البوين شعبه في سنة ٥٦٨ وزحف على شمال إيطاليا ، وكانت في خدمته جماعات من البلغار والسكسون . وقد زحف هؤلاء من أكويليا على رأس الإدرياتيك إلى بادوا ومانتوا وكريمونا وبافيا على طول نهر بو . وقد دام حكم اللومبارد لإيطاليا أكثر من مائتي عام (من ٥٦٨ - ٧٧٤) . وقد دخل اللومبارد في صراع طويل ومرير ضد الدولة البيزنطية في محاولة كل فريق فرض سيطرته على إيطاليا . وبرغم هذا الصراع الطويل بين الطرفين نجد أنه قامت بينهما علاقات تزواج ، وقد وضحت في خلق اللومبارد وأساليب معيشتهم آثار الحضارة البيزنطية نتيجة للاحتكاك بين الجانبين .

ومرجعنا الأساسي عن تاريخ اللومبارد هو كتاب *Historia Longobardorum* لبولس الشماس ، وهو لومباردي الأصل ومن عمد النهضة الكارولنجية^(٢) . وقد استعان الشماس بسجلات قديمة عند كتابة « تاريخه » هذا وكان على إلمام كاف

بالأقاصيص الشعبية وملاحم البطولة اللومباردية . وقد تلقى الشماس تعليمه في باثيا وعاش وقتاً طويلاً في بلاط الملك راتكيز Ratchis ثم انتقل إلى بلاط الدوق اريكيز في بنفنتو . ومن بين مؤلفات الشماس « تاريخ روما » Historia Romana اعتمد فيه على كتابات يوترببيوس . وفي سنة ٧٧٥ دخل الشماس دير مونت كاسينو وارتدى مسوح الرهبان ، وهناك كتب « تعليقا » على القواعد المتبعة في البيوت الديرية البندكتية ، ولقد وصف لنا الكاتب هجوم اللومبارد على دير مونت كاسينو ونهبهم له ، وكيف هرب الرهبان سالمين إلى مدينة روما . وفي سنة ٧٨٢ عندما كان يولس الشماس عالماً مرموقاً بين رجال القلم في غرب أوروبا قام بزيارة مملكة الفرنجة ليستعطف شارل العظيم ليعفو عن شقيق له كان قد شارك في الثورة اللومباردية ضد شارل سنة ٧٧٦ . ولقد استقبله شارل بحفاوة واحترام بالغين ، ومكث بولس في إقليم موزيل بضع سنوات ألف خلالها كتابه بعنوان Gesta Episcoporum Mettensium . ثم عاد بولس إلى مونت كاسينو سنة ٧٨٦ وهناك أخرج كتابه في « تاريخ اللومبارد » Historia Longobardorum الذي سجل فيه الأحداث حتى وفاة الملك ليتوبراند سنة ٧٤٤ . وتلبية لرغبة شارلمان وضع بولس كتاباً في « المواعظ » ليعلم رجال الدين الصغار كل في كنيسة .

بعد أن استولى البوين وشعبه على مدائن فريولي وفيرونا وباثيا استقرت كل قبيلة لمباردية تحت إمرة قائدها في إحدى المدن الإيطالية واستولت على الأراضي المتاخمة لها . ولقد نزعت خمس وثلاثون من القبائل اللومباردية إلى شيء من الاستقلال الذاتي ولم تعترف بسلطان الملك اللومباردي . وقد قام اثنان من قواد اللومبارد في بداية الغزو بحملات على الجنوب الإيطالي : فأسس فاروالد Faroald دوقية سبولتو Spoleto وأسس زوتو Zotto دوقية بنفنتو .

وبعد ثلاثة أعوام ونصف من غزو شمال إيطاليا قامت الملكة روزاموند بتدبير مؤامرة لقتل زوجها الملك البوين : وكان البوين قد هزم جماعة من الجيبيد Gepid في البلقان وقتل ملكهم كونموند Gunimond ثم تزوج ابنته روزاموند . وطبقاً لرواية بولس الشماس اتخذ البوين من جمجمة الملك القتيل كأساً يحتسى فيها الخمر . وفي إحدى الليالي طلب من زوجته ، وهي ابنة كونموند ، أن تشرب الخمر

فى الكأس هذا ، وقد أكرهت على تلبية رغبة زوجها . ولكنها مذ تلك اللحظة البشعة راحت تدبر للانتقام من البوين ، فحرضت عليه هلمكس حامل درع الملك وأخاه بالتبنى . واغتال هلمكس الملك البوين ، وخلفه فى الحكم كلف Cleph الذى اغتيل هو أيضاً فى سنة ٥٧٤ . ونتيجة لهذه الاغتيالات المتتابعة اتفق النبلاء اللومبارد على ألا ينتخبوا ملكاً عليهم ، وظل العرش شاغراً سنوات عشر .

عمل الإمبراطور الرومانى (البيزنطى) على تحرير إيطاليا من اللومبارد ، ففى سنة ٥٧٠ عقد جستين الثانى (٥٦٥ - ٥٧٨) صلحاً مع الآفار ليتفرغ لمقاتلة اللومباردين . وفى سنة ٥٧٥ قامت حملة بقيادة الإكزارخ باديواريوس لتحقيق هذا الغرض ، وقد رست الحملة قرب نابلى حيث اشتبك العدوان اللودوان وهزم البيزنطيون وقتل قائدهم . على أن الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) نجح فى تعيين إكزارخ دائم فى مدينة راقنا وخلع عليه لقب باتريكيوس ليعزز من مركزه فى إيطاليا وبخاصة فى نظر أهل روما . كذلك تقرب موريس من كلدبرت حاكم استرازا وأنقذه ٥٠,٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل مهاجمته للومبارد . وقام الملك الفرنجى بعدة حملات على اللومباردين ما بين عامى ٥٨٤ و ٥٨٨ ولكنها جميعاً لم تصادف نجاحاً يذكر . وكان البيزنطيون قد نجحوا سنة ٥٧٩ فى استرجاع ميناء كلاسيس ، وهو مفتاح راقنا للبحر ، من أيدي دوق سبولتو .

فى سنة ٥٨٤ قرر النبلاء اللومبارد انتخاب ملك لهم ليوحد جهودهم ضد المد البيزنطى ، وقد وقع اختيارهم على أوثارى ابن كلف . وفى عام ٥٩٠ وهو نفس العام الذى تولى فيه جريجورى الأول العظيم العرش البابوى اختير إجيلولف دوق تورين ملكاً على اللومبارد (٥٩٠ - ٦١٦) . وقد تزوج إجيلولف من أميرة كاثوليكية هى ثيودلندة ابنة دوق بشاريا . وفى عهد هذا الملك نشطت هجمات اللومبارد ضد المعازل البيزنطية فى إيطاليا : فهاجم دوق بنفنتو مدينة نابلى ، وقام دوق سبولتو بإغارة على روما ، فى حين أن الملك زحف على رأس جيشه سنة ٥٩٣ على بروجيا وروما . وأمام هذا الخطر الداهم اضطر البابا جريجورى إلى أن يشتري السلام من الملك اللومباردى مقابل جزية سنوية بلغت ٥٠٠ جنيه ذهبي يدفعها البابا كل عام . وفى سنة ٦٠٢ استولى اللومبارد على مدينة بادوا التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين ،

فقطعت بذلك سبل الاتصال بين رافنا - مقر الإكزارخ البيزنطى - وبين استريا ، ثم دانت للومبارد بعد ذلك كل من مانتوا وكريمونا ، وباتت روما فى خطر من جديد . ولكن الملك اجيلولف توفى فى سنة ٦١٦ فأفلتت روما - حين - من خطر محقق .

توالى على العرش اللومباردى بعد هذا الملوک أداوالد (٦١٦ - ٦٢٦) واريوالد (٦٢٦ - ٦٣٦) وروثارى (٦٣٦ - ٦٥٢) . وروثارى كان قبل تتويجه دوقاً على بريشيا Brescia وقد تزوج من الأميرة جندبرجة ابنة ثيودلندة . وفى عهده دارت حرب طاحنة بين اللومبارد والبيزنطيين انتهت بفوز المعسكر اللومباردى فى واقعة مودينا ، وبعدها سقطت جنوة فى أيدي روثارى (٦٥٢) . وفى عهد الملك إريبرت (٦٥٢ - ٦٦١) تحولت المملكة اللومباردية عن المذهب الأريوسى إلى الكاثوليكية ، ووضحت آنثذ علامات الحضارتين اليونانية واللاتينية على المجتمع اللومباردى ، ولعل أبرز ما يدلك على ذلك تلك الحركة التى دأبت على تجديد الدراسات القديمة الحرة فى مدينة ميلان .

وفى عهد الملك جريمولد (٦٦٢ - ٦٧١) أجبرت دوققات سبولتو وفويولى وبنفنتو المستقلة على الخضوع للتاج اللومباردى .

كانت الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع مضطرة إلى الإلقاء بكل ثقلها العسكرى على الجبهة الشرقية فى صراعها المرير ضد الفرس أولاً ثم مع العرب بعد ذلك . ولذا لم تكن السلطات البيزنطية تملك من الوسائل ما يمكنها من حسم الموقف فى إيطاليا مع العدو اللومباردى . وفى عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) توقف وصول الجزية المعتادة من إيطاليا إلى الخزانة الإمبراطورية ، بل إن اللومبارد دبروا مؤامرة اغتالوا فيها اكزارخ رافنا الذى كان يمثل الإمبراطور فى شبه الجزيرة الإيطالية .

أدرك الحزب البابوى فى روما أن صاحب العبادة الأرجوانية على السفور لم يعد قادراً على حماية روما وكنيستها من التحرشات اللومباردية ، ولذا فقد أغفل البابا حقوق حامل التاج وراح يعين المرظفين الإداريين والعسكريين بغية حماية الدوقيات الإيطالية وتنظيم شئونها الدفاعية ضد اللومبارد . وقد ضاعف من هذا الوجوم فى العلاقات بين البلاطين البابوى والبيزنطى تلك السياسة الدينية التى اتبعها كل من هرقل

وابنه قنسطانز الثاني ، وهى الترويج لمبدأ الإرادة الواحدة للمسيح (المونوثيليتية) ،
والتي كانت خروجاً على قواعد الدوغما الكاثوليكية^(٣) .

وعندما أرسل قنسطانز الثاني حملة إلى إيطاليا ضد اللومبارد تصدى لها الملك
جريمولد وأوقع بالبيزنطيين هزيمة نكراء (٦٦٣) . ثم زحفت القوات اللومباردية
لطرده البيزنطيين من الجنوب الإيطالي واستولت بالفعل على تارانزو وبرنديزي
وكلابريا .

ولما شعر قنسطانز أن الشرف البيزنطي قد أهين في إيطاليا قام بزيارة لروما
سنة (٦٦٥) وعمل على تقوية نفوذ رئيس أساقفة رافنا للحد من النفوذ المتزايد
للبابا ، كما جاهد لمنع العرب من غزو جزيرة صقلية . وقد كانت هذه آخر
مرة يظهر فيها إمبراطور بيزنطي في العاصمة القديمة للإمبراطورية . وعندما اغتيل
قنسطانز سنة ٦٦٨ كان العرب يهاجمون صقلية للمرة الثانية .

استأنف الملك اللومباردي بركتارت (٦٧١ - ٦٨٨) الحرب ضد القوات البيزنطية
في إيطاليا ، وفي عام ٦٨٠ وقعت هدنة بين الطرفين على أساس الاعتراف بالوضع
الراهن Status quo في إيطاليا : أى أن تعترف الإمبراطورية البيزنطية بما وقع
من ممتلكات تحت أيدي اللومبارديين ، مقابل ألا يتحرش هؤلاء بما يتبقى لبيزنطة من
ممتلكات في إيطاليا .

ولقد سعى الملك ليتوبراند (٧١٣ - ٧٤٤) إلى الحد من نفوذ البابوية وذلك
بترقية نفوذ رئيس أساقفة ميلان ورافنا . وقد انتهز ليتوبراند فرصة احتدام الجدل
حول الأيقونية واللاأيقونية في بيزنطة وقام بالاستيلاء على بولونا سنة ٧٢٩ ، وفي
سنة ٧٣٢ دخل رافنا ، وفي سنة ٧٣٩ ضرب الحصار حول روما ذاتها . واستنجد
البابا جريجورى الثالث بالسلطات البيزنطية ، ولكنها كانت عاجزة تماماً عن أن تمد يد
العون للبابا . وهنا التففت البابا إلى شارل مارتل ملك الفرنجة القوي يطلب منه
المساعدة ضد اللومبارد . ولكن مارتل كان قد تلقى بعض العون من اللومبارد أثناء حربه
ضد عرب إسبانيا ، ولذا فقد تعمد أن يتجاهل طلب البابا .

حكم اللومبارد بعد ذلك الملك راتكيز (٧٤٤ - ٧٤٩) ثم خلفه على العرش

(٣) راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

استولف (٧٤٩-٧٥٦) الذي نجح سنة ٧٥١ في الاستيلاء على راقنا والإطاحة بالإمارة الكزارخ البيزنطى بصفة قاطعة . وبسقوط راقنا انهار خط الدفاع الشمالى لروما وكانت الأملاك البابوية معرضة لخطر اللومبارد الداهم . أمام هذا الخطر الداهم فتح البابا ستيفن الثالث باب المفاوضات مع بين Pepin ملك الفرنجة ، ووجه الأخير الدعوة للبابا للقيام بزيارة لمملكة الفرنجة . وفى خريف سنة ٧٥٣ وصل إلى روما وفد فرنجى من قبل الملك بين برياسة الدوق أوتشار Autchar وكروديجانج Chrodegang أسقف متر لتوجيه الدعوة الرسمية للبابا لزيارة الملك بين . وقبل البابا الدعوة شاكراً ورحل عن طريق بافيا إلى فرانكيا ، ثم عبر الركب البابوى جبال الألب إلى برجنديا حيث كان فى استقبالهم بعثة شرف يرأسها فولارد مقدم دير سنت دينيس ، وهو الدير الميروفنجى العظيم المجاور لباريس . ووصل بين وولده كارل وكارلومان فى عيد غطاس ٧٥٤ للترحيب بمقدم البابا ، وانحنى بين أرضاً إجلالاً للسيد البابا ثم أمسك « بلجام » الجواد الذى امتطاه البابا علامة على الولاء للسلطان البابوى^١ الروحى . أمضى البابا ستيفن شتاء عام ٧٥٤ فى سنت دينيس ، ولما حل عيد الفصح عقد اجتماعاً مع الملك ونبلاته فى القىلا الملكية فى كيرزى Quierzy حيث طلب من الملك المساعدة العسكرية ضد اللومبارد . وفى منتصف العام نفسه قام البابا بتتويج بين ملكاً على الفرنجة ومسحه بالزيت المقدس ، كما توج معه ولديه كارل وكارلومان ، ثم خلع على الملك الفرنجى لقب باتريكوس .

وبهذا أصبح الملك بين الحامى الرسمى للكرسى البابوى ، وأثبتت رحلة البابا ستيفن إلى مملكة الفرنجة أنها كانت المسار الأخير فى نعش المملكة اللومباردية : ففى سنة ٧٥٤ قاد الملك بين حملة وزحف على لمبارديا بينما كان القادة الفرنجة يحيطون بموكب البابا وهو يعبر ممر سنس من غالة إلى إيطاليا . ألحق بين هزيمة فادحة باستولف واضطره إلى التقهقر إلى بافيا حيث أملى عليه شروط الصلح : بأن يعترف بالتبعية لملك الفرنجة وأن يسلم راقنا وبضع أراض أخرى إلى السيد البابا . وفى سنة ٧٥٦ أرسل بين حملة أخرى ضد اللومبارد^٢ لأن استولف لم يلتزم بشروط الصلح المبرمة من قبل ، وحقت الحملة أهدافها وسلم قائدها الأراضى التابعة للعرش^٣ البابوى إلى البابا ستيفن . وعندما لقي استولف مصرعه أثناء إحدى رحلات الصيد

ساعد كل من البابا ستيفن والمملك الفرنجى فى انتخاب دزىدرىوس دوق توسكانيا ملكاً للومبارد بعد أن تعهد بأن يعيد إلى البابوية كل ما يخصها من أراض فى شمال إيطاليا . وقد توفى البابا ستيفن بعد عام واحد من انتخاب دزىدرىوس ملكاً (٧٥٧) . وذىدرىوس هذا هو آخر الملوك اللومبارد الذى سيشهد نهاية مملكته ، والذى سوف يساق هو وأفراد أسرته جميعاً إلى مدينة لىيج Liège ليدخلوا السجن على يد كارل العظيم أوشرلمان ، كما سنوضح فى الفصل الخاص بشرلمان :

الفصل السادس

روما البابوية

Quod Romana Ecclesia a solo Domino sit fundata,

Quod solus Romanus Pontifex iure dicatur universalis.

يعتز الكرسي البابوي برسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية (ربما في عام ٥٨ م على عهد الإمبراطور كلوديان) التي خاطبهم فيها بقوله : « إن إيمانكم ينادى به في كل العالم . . . إني مشتاق أن أراكم كي أمنحكم هبة روحية لثباتكم . . . أنا متيقن من جهنكم يا إخوتي أنكم مشحونون صلاحاً ومملوون كل علم . . . » .

وهناك اعتقاد بأن كلا من القديس بولس والقديس بطرس قد استشهدا في مدينة روما : فلقد أمضى القديس بولس عامين كاملين في بيت استأجره لنفسه في روما ، كما نطالع في سفر « أعمال الرسل » : « وهكذا أتينا إلى رومية . ومن هناك لما سمع الأخوة بخبرنا خرجوا لاستقبالنا إلى فورن أبيوس والثلاثة الحوانيت . فلما رأهم بولس شكر الله وتشجع . ولما أتينا إلى رومية سلم قائد المائة الأسرى إلى رئيس المعسكر . وأما بولس فأذن له أن يقيم وحده مع العسكري الذي كان يحرسه . وكان يقبل جميع الذين يدخلون إليه كارزا بملكوت الله ومعلماً بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع » . وبعد أن أطلقت السلطات الرومانية سراحه رحل القديس بولس يواصل حملاته التبشيرية بين الأمميين ، ويقال إنه وصل حتى إسبانيا . وبعد ذلك عاد إلى الشرق ، ثم قام بزيارة روما مرة أخرى حيث أمرت السلطات الرومانية بوضعه في السجن ، وقد قطعت رأسه في عهد الطاغية نيرون (٥٤ - ٦٨) .

وقبل هذه الفترة بقليل كان القديس بطرس أيضاً قد وصل إلى روما حيث

استشهد . وبطرس - من وجهة النظر الكاثوليكية - هو أول الأساقفة في روما (من عام ؟ إلى عام ٦٧ م) ، ثم سلم الأسقفية من بعده إلى لينوس (من ٦٧ - ٧٩) ، الذى خلفه آنا كليتوس (٧٩ - ٩٠) ثم كلمنس الأول (٩٠ - ٩٩) الذى وجه رسالة إلى أهل كورنتوس على نفس المنوال الذى اتبعه كل من بولس وبطرس ، يحثهم فيها على التمسك بقوامة الإيمان ويطالب رجال الأكليروس بالسير على هدى الرسل .

وعلى هذا فالصفة الأولى التى تتمسك بها كنيسة روما هى صفة الرسولية ، أى أن مؤسسها واحد من رسل المسيح الإثني عشر وهو بطرس الرسول . ولكن بطرس - من وجهة النظر الرومانية - ليس برسول عادى فهو أمير الرسل أو رأس الحواريين ويدلون على ذلك بحجج كثيرة : فهو « يصطاد الناس » بأمر المسيح^(١) ، وهو « يدفع الجباية أو الجزية » عن سيده وعنه^(٢) ، وبطرس هو أول من قام المسيح بغسل رجليه وقت العشاء الأخير^(٣) . وبعد القيامة ظهر المسيح بوجه خاص لسمعان بطرس^(٤) . وكان المسيح قد أنبأ بطرس بأنه سينال إكليل الشهادة^(٥) ، وقد أوصاه بأن « يثبت إيمان إخوته »^(٦) . وأهم من هذا وذاك فى نظر كنيسة روما ذاك الحوار الذى دار بين المسيح وبطرس : « ولا جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس أنى أنا ابن الإنسان . فقالوا . قوم يوحنا المعمدان . وآخرون إيليا . وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء . قال لهم وأنتم من تقولون إنى أنا : فأجاب سمعان بطرس

(١) « فقال يسوع لسمعان لا تخف . ' من الآن تكون تصطاد الناس : « لوه : ١٠ .

(٢) « ولكن لثلا نعثهم اذهب إلى البحر وألق صنارة والسمكة التى تطلع أولاً خذها ومضى فتحت فاهها تجدد إستاراً فخذها وأعطهم عني وعنك » : مت ١٧ : ٢٦ .

(٣) « قام عن العشاء وخلع ثيابه فأخذ منشفة واتزر بها . ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزراً بها . فجاء إلى سمعان بطرس فقال له ذاك يا سيد أنت تغسل رجلى : « يو ١٣ : ٦

(٤) « لو : ٢٤ : ٣٤ . (٥) « يو : ٢١ : ١٩ .

(٦) « ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبت إخوتك » : لو ٢٢ : ٣٢ .

وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي . فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان ابن يونا . إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات . وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات^(٧) . كذلك كلف المسيح تلميذه بطرس بأن « يرعى غنمه » أى أنه سامه راعياً عاماً لكل الرعية^(٨) .

وبعد القيامة نجد أن بطرس يضطلع برياسة الكنيسة ويطلب إلى إخوته الرسل اختيار واحد بدلا من يهوذا الأسخريوطى الخائن ليكمل عددهم^(٩) . وعندما يعدد الإنجيليون رسل المسيح يذكرون بطرس أول ما يذكرون ، ويخصونه بالأولوية لا فى العدد وإنما فى الرتبة ؛ لأنهم لا يرتبون بقية التلاميذ ترتيباً عددياً بل يكتفون بذكر أسمائهم فحسب^(١٠) . وبطرس هو أول من بشر بالإنجيل ، يوم « حلول الروح القدس » قائلا : « أيها الرجال اليهود والساكنون فى اورشليم أجمعون . ليكن هذا

(٧) مت ١٦ : ١٣ - ٢٠ .

(٨) « يا سمعان بن يونا أتحنى أكثر من هؤلاء . قال له يا رب أنت تعلم أنى أحبك .

قال له ارفع خرافى . . . ارفع غنمى . . . ارفع غنمى » . يو ٢١ : ١٥ - ١٧ .

(٩) « وفى تلك الأيام قام بطرس فى وسط التلاميذ . . . فقال أيها الرجال الإخوة كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقال به بضم داود عن يهوذا الذى صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع . إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب فى هذه الخدمة . فإن هذا اقتضى حقاً من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها . وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان اورشليم حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم حقل دما أى حقل دم . . . فأقاموا اثنين يوسف الذى يدعى بارسابا الملقب يوستس ومتياس . . . ثم ألقوا قرعهم فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الأحد عشر رسولاً . أعمال الرسل ١ : ١٥ .

(١٠) « ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف . وأما أسماء الاثني عشر رسولاً فهى هذه .

الأول سمعان الذى يقال له بطرس واندراوس أخوه . يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه . فيلبس وبرثلماوس . توما وبنى العشار . يعقوب بن حلفى ولباوس الملقب تداس . سمعان القانونى ويهوذا الأسخريوطى الذى أسلمه . »

مت ١٠ : ١ - ٤ .

معلوماً عندكم وأصغوا إلى كلامي . لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون لأنها الساعة الثالثة من النهار . . . أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال . يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون . هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي آثمة صلبتموه فقتلتموه ^(١١) . ولما احتدم الخلاف حول مسألة « اختتان الأعمى » قبل دخول المسيحية كان بطرس أول المتكلمين وعلى نفس النهج الذى رسمه في هذا الأمر سلك بقية الرسل ^(١٢) . ومن بين الأسماء التى أعطيت للقديس بطرس اسم « قيافا » ومعناه « الصخرة الروحية » التى شبه بها القديس بولس المسيح ذاته ^(١٣) .

ويرى الكاثوليك من كل هذه الشواهد السابقة أن السيد المسيح أراد بتعيينه بطرس أميراً للرسل ورأساً على الكنيسة العالمية أن يصون وحدتها وأن يقيمها على إيمان شبيه بإيمان « الصخرة الروحية » ، ذاك الإيمان الذى تفرد به سمعان بطرس . ولما كانت الكنيسة جسداً واحداً فإن الحزب البابوى لا يتصور أبداً أن يكون لهذا الجسم أكثر من رأس واحد وهو بطرس الرسول أو خليفته وهو البابا أسقف روما . والقديس جيروم يؤكد « أن الكنيسة تأسست على بطرس وأن المسيح اختاره من بين الاثنى عشر رأساً أعلى عليها منعاً للشقاق » ^(١٤) . ويردد هذا رأى أيضاً القديس كيريان فى قوله « معمودية واحدة ، روح مقدس واحد ، كنيسة واحدة تأسست

(١١) أع ٢ : ١٤ - ٢٣ .

(١٢) « فبعد ما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بسمى اسم الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون . والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً . ولم يميز بيننا وبينهم بشئ إذ طهر بالإيمان قلوبهم - » أع ١٥ : ٦ - ١٠ .

(١٣) « لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح » . كور ١٠ / ٤ .

S. Hieronymus, Adv. Jovin. 1, n. 26 :

(١٤)

“Super Petrum fundatur Ecclesia; .. propterea inter duodecim unus eligitur, ut capite constituto schismatis tollatur occasio.”

على بطرس ابتغاء الوحدة وضماناً لصيانة هذه الكنيسة»^(١٥) .

ومن هذا المنطلق راح كتاب الكنيسة اللاتينية منذ وقت مبكر يزعمون بأن الأسقف روما الإمارة على الكنيسة العالمية « في المحبة أى المسيحية » ؛ لأن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس . وهذا ما يؤكد القديس اجناتيوس الذى توفى سنة ١٠٧م^(١٦) . والقديس ترتوليان يصف البابا زفرينوس Zephyrinus (١٩٨ - ٢١٧) على أنه « الأسقف الأعظم ، أسقف الأساقفة الذى يملك حق الغفران عن الخطايا »^(١٧) . أما القديس أريناىوس فإنه يعترف صراحة بأن أسقف روما يملك حق الإمارة على سائر الكنائس لأنه خليفة القديس بطرس ، ولذا فإنه يتحتم على كل الكنائس - فى رأيه - أن تكون « فى الشركة » مع كنيسة روما لأنها « هى التى تحفظ التراث الرسولى وتصونه على صواب »^(١٨) . وأما القديس كيريان فإنه يرى أن « من يقاوم الكنيسة أو يتنكر لكرسى القديس بطرس الذى هو حجر الزاوية للكنيسة لا يحق له أن ينتمى إلى عضوية الكنيسة »^(١٩) .

S. Cyprian, Epist. 70 ad Januar. et alios :

(١٥)

“Quando et baptisma unum sit, et Spiritus S. unus, et una Ecclesia a Christo Domino super Petrum origine unitatis et ratione fundata.”

Epist. ad Rom. “proka themene tes agapes.”

(١٦)

De Pudicitia, c. 1. “Audio esse edictum propositum et quidem peremptorium :

(١٧)

Pontifex maximus, i.e. episcopus episcoporum, edicit : Ego et moechiae et fornicationis delicta poenitentia functis dimitto.”

“Hac ordinatione et successione, ea, quae est ab Apostolis in ecclesia traditio et veritatis praeconatio, pervenit usque ad nos. Et est plenissima haec ostensio, unam et eandem vivificatricem fidem esse, quae in ecclesia ab Apostolis usque nunc sit conservata et tradita in veritate.”

(١٨)

De unitat. Eccl., n. 4: “...Haec erant utique et caeteri apostoli, quod fuit Petrus, pari consortio praediti et honoris et potestatis, sed exordium ab unitate profisciscitur .. Hanc ecclesiae unitatem, qui non tenet, tenere se fidem credit ? Qui ecclesiae renititur et resistit, qui cathedram Petri, super quem fundata est ecclesia, deserit, in ecclesia se esse confidit ?”

(١٩)

ولقد اعترف الآباء المجتمعون في المجمع المسكوني الأول في نيقيا برياسة أسقف روما على سائر أساقفة إيطاليا (والغرب ؟) وذلك وفق القانون السادس من قوانين هذا المجمع :

« فلتحفظ السنن القديمة التي في مصر وليبيا وبنطابوليس ؛ في أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها ، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضاً » . وقد التقطت الدوائر اللاتينية هذا القانون وصدرته بعبارة دخيلة ليست من وقائع مجمع نيقيا في شيء ، وهذه العبارة تقول : « لقد كان لكنيسة روما دواماً الإيمارة على الكنائس »^(٢٠) . وهذا القول لا أساس له من الصحة التاريخية ، ولكن أحداً من الآباء في المجمع التالية لم يتعرض له بالتنفيذ ، كما وأن البابوات ظلوا يمارسون صلاحيات هذه الرياسة بالقول وفي الفعل دون أن يجدوا حرجاً في ذلك .

وقد وقع البابا ليوريوس (٣٥٢-٣٦٦) في خلاف شديد مع أباطرة بيزنطة بسبب سياستهم في تأييد المذهب الآريوسي ضد الأرثوذكسية ، وانتهى الصراع بنفي البابا وبتعيين واحد من أنصار الإمبراطور هوفيلكس . ولما احتج أسقف ميلان - وهي العاصمة الجديدة للنصف الغربي للإمبراطورية - على سياسة الإمبراطور الآريوسية ، نفي هو الآخر وعين الإمبراطور مكانه آريوسيا ضالماً هو أوكزنتيوس . وأخذ نفوذ روما يتضاءل في حين أن أسقفية ميلان غدت صاحبة الكلمة بعد أن صار لها الإشراف على أساقفة شمال إيطاليا جميعاً . أما روما فلم يعد لأسقفها من نفوذ سوى على الكنائس الواقعة في إبيارشيته كوحدة إدارية . وكان الواقع يشير إلى أن أسقفية ميلان سوف تبتلع حقوق أسقف روما بتأييد من الإمبراطور ، ولكن ما إن ما انتهت فترة أسقفية أوكزنتيوس (٣٥٥ - ٣٧٤) حتى خلفه على كرسي الأسقفية في ميلان رجل كان من أقوى المدافعين عن كنيسة روما والبابوية ؛ ذلكم هو القديس أمبروز (٣٧٤ - ٣٩٧) الذي ساهم بقوة حجته في إرجاع ما كان لروما وكنيستها من هيبة ونفوذ .

(٢٠) Mansi, Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio, Vol. II, Col. 895 : "Romana

"Ecclesia semper habuit primatum."

وفي القرن الرابع أصبح البابا يهيمن على سائر كنائس وسط وجنوبي إيطاليا والجزر التي بلغ عددها مائتين ، وصار للبابا الحق في تكريس أساقفتها جميعاً . ولقد قام البابا داماسوس (٣٦٦ - ٣٨٤) بتكريس ٦٢ أسقفاً علامة على خضوعهم لكرسي روما . أما خلفه سيريكْيوس (٣٨٤ - ٣٩٨) فقد تحدث في إحدى رسائله (سنة ٣٨٥) عن « حق أسقف روما في الإشراف على بقية الكنائس بوصفه الراعي لقطيع القديس بطرس وخليفته »^(٢١) . ولقد قام البابا أنوسنت الأول (٤٠١ - ٤١٧) بسيامة ٥٤ من الأساقفة . أما البابا ليو الأول العظيم (٤٤٠ - ٤٦١) فقد كرس ١٨٥ أسقفاً ! وليو الأول هذا هو الذي أفاض في تأكيد إمارة روما على الكنيسة العالمية ، فهو يقول في إحدى مواعظه إنه على الرغم من أن كل راع مسئول عن رعيته فإن أسقف روما بوصفه الراعي الأكبر يشرف على هؤلاء الرعاة ، « فهذا من صميم اختصاصنا في كل أنحاء المسكونة انطلاقاً من المسئولية والصلاحيات التي فوضها المسيح لبطرس أمير الرسل »^(٢٢) . ولقد اتضح موقف ليو أيضاً في مجمع خلقيدونية المسكوني (٤٥١) : فقد اعترض على القانون الثامن والعشرين من قوانين هذا المجمع لأنه أعطى أسقفية بيزنطة المركز الثاني بعد أسقفية روما . وفي الجلسة الختامية لهذا المجمع أبرز المندوب البابوي الأب باسكازنيوس وثيقة قرأ منها القانون السادس

Ex ep. ad Himerium Episc. Tarraconensem :

(٢١)

“ ... Consulationi tuae responsum competens non negamus, quia officii nostri consideratione non est nobis dissimulare, non est tacere libertas, quibus maior cunctis Christianae religionis zelus incumbit. Portamus onera omnium, qui gravantur; quin immo haec portat in nobis beatus apostolus Petrus, qui nos in omnibus, ut confidimus, administrationis suae protegit et tuetur heredes.”

Sermo V: “Quamvis enim singuli quique pastores speciali sollicitudine gregibus (٢٢)

suis praesint, sciantque se pro commissis sibi ovibus reddituros esse rationem; nobis tamen cum omnibus cura communis est, neque cujusquam administratio non nostri laboris est portio; ut dum ad beati Apostoli Petri sedem ex toto orbe Concurritur et illa universalis ecclesiae a Domino eidem commendata dilectio etiam ex nostra dispensatione deprecatur, tanto amplius nobis instare oneris sentiamus, quanto cunctis majora debemus.”

لمجمع نيقيا في صيغته اللاتينية التي كانت تعبر عن مبدأ إمارة كنيسة روما . وكان في مقدور الآباء المجتمعين أن يناقشوا هذه الصيغة اللاتينية الدخيلة - كما سبق أن أوضحنا - ولكنهم لم يفعلوا . ثم كتب البابا إلى الإمبراطور مرقيان يعاتبه على موقفه ويعنف أسقف بيزنطة « بسبب طموحه الزائد » ، وهو فوق هذا يذكر الإمبراطور بالأصل الرسولي لكنيسة روما وينفي عن كنيسة بيزنطة صفة الأسقفية « لأنها ليست رسولية » . وليو في الواقع هو أول البابوات الذين أصرروا على التحلى بلقب « نائب القديس بطرس وخليفته » ، وهو بهذا الحكم الأول والأخير في شئون الكنيسة العالمية وصاحب حق الحل والربط .

هذا وقد كان على الأساقفة الذين يعينهم البابا أن يجتمعوا كل عام في روما في عيد تتويج البابا Natale Papae ، علامة على الولاء والتبعية للجالس على عرش القديس بطرس . وهم يلجأون إلى البابا ليلتمسوا منه التوجيه والنصح في المسائل الهامة كما أنهم يتخذون من طقوس كنيسة روما وأحكامها نموذجاً يسرون على هديه في كنائس أبارشياتهم .

وكان يشرف على إدارة أمور الكنيسة في روما سبعة من الدياكنة (Diakonos) أو الشمامسة ، وهم يمثلون الطبقة البيروقراطية في الكنيسة اللاتينية . وكانوا يتدرجون في مختلف الوظائف الأكليروسية ، وغالباً ما كان البابا يختار من بينهم . وعلى هذا فإن الأرشيدياكون (كبير الشمامسة) كان أهم شخصية بعد البابا ، ومن احتل هذا المنصب كان يترقب دائماً لحظة الجلوس على العرش البابوي . وكان البابا ينظر في الشكاوى من الأساقفة إما بنفسه وإما عن طريق نوابه الملقين « بالقاصدين الرسولين » . ومن حق البابا أن يقلل الأسقف الذي تثبت إدانته وذلك بالإضافة إلى حقه الأصلي في « الربط والحل » بوصفه خليفة القديس بطرس .

أما الأبرشيات الإيطالية الأخرى الواقعة خارج نفوذ البابا فقد كانت من اختصاص أساقفة كل من ميلان وأقويليا وراقنا . وبرغم هذا نجد أن بعض البابوات كثيراً ما تدخلوا في شئون هذه الأسقفيات . ومع أنه لم يكن من حق البابا أن يتدخل في انتخابات أساقفة هذه الأبرشيات ، إلا أنه كان لزاماً على هؤلاء الأساقفة - حينهم المجالس التي يعقدها البابوات في روما ، ومن ثم الالتزام بالقرارات والقوانين .

الكنسية التي تتخذ فيها . وكان هذا يعنى أن تحديد أركان القوامه والصالح في الكنائس قد صار وقفاً على السيد البابا ومجلس كرادلته أو الكيوريا Curia .

ولقد وجدت البابوية في شخص ليو الأول العظيم رجلاً قوياً وقوة دافعة ، فرفع من هيبة الكرسي البطرسي ونفوذه وسار على خطاه خلفائه على مدار العصور الوسطى . ولم يكن ليو روماني المولد ولكنه كان من بين الأكليروس الروماني منذ سن مبكرة ، وأصبح واحداً من الدياكنة السبعة فكبيراً لهم . وفي سنة ٤٣٠ كان اسم ليو يدوي عالياً بين المدارس اللاهوتية المتناحرة إلى حد أن القديس كيرلس السكندري قد استعان به ليؤيده في صراعه ضد نسطور وهرطقته . كذلك أثار ليو حماس البابا سلسين الأول (٤٢٢ - ٤٣٢) في تضيق الخناق على نسطور ، فتحمس في الدفاع عن السيدة العذراء وعن « الكلمة التي صارت جسداً » ، وهذا ما اتفق عليه في مجمع أفيسوس سنة ٤٣١ (٢٣) . ولقد تنبه البلاط الإمبراطوري إلى هذا الشاب النابغ ليو فعين سفيراً إمبراطورياً في غالة . وعند وفاة البابا سكستوس الثالث في أغسطس ٤٤٠ اختير ليو للعرش البابوي .

وقد تفرد ليو بلسان لاتيني رائع فهو آخر البابوات الذين كانت لاتينيتهم على الرصانة والأناقة الكلاسيكية ، ولغته تتم عن قوة شخصية صاحبها ، كما وأنه كان لاهوتياً ضالماً . ويعد عصر ليو بداية العصر الذهبي في تاريخ البابوية الوسيطة . ولقد كانت مقولة ليو بعنوان Tomus فصل القول في إدانة النسطورية ومن بعدها على المونوفيزيتية . وليو هو الذي أطلق على مجمع أفيسوس الثاني (٤٤٩) الذي هلك له السكندريون اسم « مجمع اللصوص » (٢٤) Latrocinium .

ولقد عاصر البابا ليوا الأحداث المهولة التي صاحبت غزو آتيللا ملك الهون لإيطاليا ، وكذلك غزوة جتريك ملك القنдал لروما . وتصوره الأساطير منقذاً لروما من الهوان على يد الهون : فقد أوفده شعب المدينة على رأس سفارة لمقابلة آتيللا على نهر

Anathematismi Gyrilli contra Nestorium : "Si quis non confitetur, Deum esse (٢٣) veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem : peperit enim secundum carnem factum Dei Verbum, anathema Sit.."

(٢٤) راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

Mincio ، وعندما دخل معسكر الملك المتبربر كانت تحوم فوق رأسه هالات القديسين بطرس وبولس ، الأمر الذى أدخل الرعب فى قلب الزعيم الهونى وجعله يعدل عن غزو روما . كذلك نجح البابا فى إقناع جتزرريك ملك القنдал بالاكْتفاء بما كان قد سلبه من ذهب وفضة وبأن يعود من حيث أتى . ولقد وجد البابوات خلفاء ليوفى سيرته ومواقفه البطولية وفى رسائله ومواعظه برهاناً جديداً أضافوه إلى حججهم للتدليل على حقوقهم ولتأييد طموحهم فى صراعهم مع السلطات الدنيوية أو العلمانية .

والبابا الثانى الذى ساهم فى إرساء قواعد النظرية البطرسية هو جيلازيوس الأول (٤٩٢ - ٤٩٦) . وجيلازيوس أفريقى الأصل ، ولقد ارتقى العرش البابوى حينما كان ثيودوريك ملك القوط يدك شمال إيطاليا لينتزع روما من يد أودواكر . وفى هذا الجو المضطرب المتهب بالخطر كتب جيلازيوس إلى الإمبراطور أناستاسيوس الأول يبين له أن الله قد قسم سلطان هذا العالم بين اثنين : البابا والإمبراطور ، وأن العبء الملقى على كاهل البابا أثقل بكثير من العبء الذى وكل به الله إلى أمير الدنيا ، لأنه يتحتم على البابا أن يقدم « كشف حساب » فى الآخرة عن كافة الناس أميرهم وفقيرهم على حد سواء^(٢٥) . كذلك أكد جيلازيوس سلطان روما على سائر الكنائس « لأنها صخرة بطرس الرسول التى لا دنس فيها ولا عيب »^(٢٦) .

أما البابا جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) فهو مؤسس العصور الوسطى.

(٢٥) P.L., Vol. 59, Cols. 41-47 : "Gelasius episcopus ad Anastasium Augustum ..

Duo quippe sunt, imperator Auguste, quibus principaliter mundus hic regitur : auctoritas sacra pontificum, et regalis potestas. In quibus tanto gravius est pondus sacerdotum, quanto etiam pro ipsis regibus Domino in divino reddituri sunt examine rationem. Nosti enim, fili clementissime, quod licet praesideas humano generi dignitate, rerum tamen praesulibus divinarum devotus colla submittis, atque ab eis causas tuae salutis expetis, inque sumendis coelestibus sacramentis, eisque disponendis, subdi te debere cognoscis religionis ordine potius quam praesesse. Nosti itaque inter haec, ex illorum te pendere iudicio, non illos ad tuam velle redigi voluntatem.."

(٢٦) Ibid.: "Est ergo prima Petri Apostoli sedes, Romana Ecclesia, non habens maculum, neque rugam, nec aliquid huiusmodi."

بحق . وهو نبيل روماني الأصل^(٢٧) ، ولد في الوقت الذي كانت فيه جحافل جستينيان العظيم تقاتل القوط للقضاء عليهم وإلراجاع إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية . وشهد جريجوري في طفولته المدينة الخالدة تخضع للحصار بعد الحصار ، وقاسى مع الأهليين من المجاعات التي تعرض لها الجميع ومن الأوبئة التي اجتاحت العاصمة القديمة . وكان جريجوري طفلاً في السادسة عندما زحف توتيل ملك القوط (سنة ٥٤٦) على روما وقد جنّ جنونه فعمل على إزالة روما من الوجود فأخلاها من الأهليين وتركها نهياً لوحوش الكمپانا ستة أسابيع كاملة . وفي سن الرابعة عشرة شهد جريجوري خروج آخر القوط من إيطاليا . وبعدها بأربعة عشر عاماً (سنة ٥٦٨) شهد قبائل اللومبارد المتبربرة وهي تتدفق من وراء جبال الألب لتكتسح شمال إيطاليا . وكان جريجوري يشغل وقتها منصب البرايتورية في روما ؛ أي أنه كان مسئولاً عن شئون المدينة المالية وعن الشرطة والقضاء ، إلى جانب مشكلات التموين . وعندما بلغ جريجوري الخامسة والثلاثين اتخذ قراراً خطيراً : فباع ضياعه الواسعة وأسس بثمان سبعة أديار رهبانية وارتدى مسوح الرهبان ودخل الدير ممثلاً لنظام القديس بندكت . وفي سنة ٥٧٩ رجمه البابا بيلاجيوس الثاني شماساً ثم أوفده « قاصداً رسولياً » apocrisarius إلى القسطنطينية . ومكث جريجوري في العاصمة البيزنطية سبع سنين ، وهناك تعرف على لياندر الأسقف الإسباني المرموق ، وتوطدت بين الاثنين أواصر الصداقة المتينة . وفي سنة ٥٩٠ اختير جريجوري للعرش البابوي .

ومنذ اللحظة الأولى لتوليهِ العرش البابوي قام جريجوري بحركة تطهير في البيت اللاتيراني (Lateran) ؛ فطرد رئيس الدياكنة بتهمة الاختلاس وأندز الدياكنة السبع بالتزام حدودهم وبالانصراف إلى خدمة الكنيسة وفقراء الرعية ، كما أنه طرد العلمانيين من البلاط البابوي . وحول جريجوري أروقة اللاتيران إلى هياكل انقطاع للصلاة ، فصار القصر شبيهاً بالأديرة الصامتة . وحرم البابا الانجسار بالمناصب الكنسية (السيمونية) ، بل إنه ألغى رسوم سيامة رجال الإكليروس وإصدار الترخيصات الكنسية ، وصارت جميعها تعطى بالهجان . ولم يكن جريجوري دارساً عميقاً ، و برغم

Liber Pontificalis (ed. L. Duchesne), Vol. I, P. 312 : "Gregorius, natione (٢٧)

Romanus, ex patre Gordiano..".

هذا فهو صاحب الفضل الأول في تبسيط العقيدة لأهل العصور الوسطى على مدى ألف عام كاملة . ولقد غدا هذا « النبيل الزاهد » محط الأساطير المتأخرة في تصويرها لقديسى العصور الوسطى « المظلمة » . ولغة جريجورى العظيم هى لغة الفولكلور سكريتا (Vulgata Scripta) التى يرى فيها النقاد دليلاً على الضعف الذى أصاب الحياة الأدبية فى غرب أوروبا ، ولكن هذا الرجل هو الذى بشر عالم الظلام الدامس الغارق فى التبرير ببلاغة من طراز جديد ألا وهى الإيمان والبساطة . وجريجورى ليس من الطرز الفكرية العملاقة المتمثلة فى كبريان أو أمبروز أو أغسطينوس ، ولكنه يفضلهم جميعاً وهو يعظ « بالكلمة » من فوق المنبر، وهو أيضاً نموذج للنسكية والفضائل الحلوة . وجريجورى بعد هذا سيد أخلاقي العصور الوسطى وتنطق بذلك « موراليا » Moralia ويؤكد لها سلوكه المثالى . وإلى جانب « الموراليا » كتب جريجورى عدة مؤلفات أخرى أهمها Regula Pastoralis ، الذى ترجم إلى اليونانية والأنجلو-سكسونية ، وله تعليقات رائعة على بعض فصول الكتاب المقدس^(٢٨) . ولعل أهم عمل قام به جريجورى العظيم هو تحويل إنجلترا الأنجلوسكسونية من الوثنية إلى المسيحية . وهناك رواية ماثورة تقول بأن البابا كان قد رأى بعض الأسرى الإنجليز فى أسواق النخاسة فى روما ، وكان من بينهم بعض الأطفال الإنجليز ، ولما سأل عنهم قالوا له إنهم إنجليز على الوثنية ، فحزن حزناً شديداً وجعل همه فى إدخال المسيحية إلى هذه الجزيرة المتبربرة . ففى العام الخامس من جلوسه على العرش البابوى كلف جريجورى المسئول عن الولايات البابوية فى غالة بشراء الصبية الإنجليز من أسواق العبيد وإرسالهم إلى روما ، حيث أدخلهم الأديرة وعلمهم أصول المسيحية ثم أرسلهم ليقوموا بالتبشير فى بلادهم . ثم اختار البابا رئيسه السابق فى الدير وهو أغسطينوس لرأس الإرسالية التبشيرية إلى إنجلترا^(٢٩) . وعند وصوله إلى غالة سمع أغسطينوس ورجال بعثته روايات كثيرة عن وحشية

Liber Pontificalis, II, loc. cit.: "Hic exposuit omelias Evangeliorum numero XL, (٢٨)

Job, Ezechielum, Pastoralement et Dialogorum et multa alia quae enumerare non possumus."

Ibid.: "Eodem tempore beatissimus Gregorius misit servos Dei Mellitum, Augus- (٢٩)

tinum et Johannem et alios plures cum eis monachos timentes Deum; misit eos in praedicationem ad gentem Angulorum ut eos convert ad Dominum Jesum Christum..".

الإنجليز ، فدخل الرعب قلوبهم وعادوا من حيث أتوا . ولكن جريجورى العظيم
حث رجال هذه البعثة على « التسليح بالإيمان » ومواصلة الرحلة ، وسامهم رسائل
إلى أساقفة غالة وملك أسترازا وبرجنديا لتسهيل مهمتهم التبشيرية^(٣٠) . وقد ساعد
هذا فى تخفيف آلام الرحلة على أغسطينوس ، خاصة وأن ملك الفرنجة قد زوده
ببعض المترجمين . وأخيراً رست البعثة الأغسطينية عند مدينة Ebbsfleet فى ولاية
Kent وذلك قرابة عيد الفصح لعام ٥٩٧ . وكانت زوجة ملك كنت أميرة
فرنجية على المذهب الكاثوليكي ، ولذلك فقد أحسن الملك اثلبرت Ethelbert استقبال
أغسطينوس واستمع إلى مواظمة التبشيرية بأذن صاغية^(٣١) . وعندما حل عيد
الميلاد لنفس العام كانت صلوات أغسطينوس والمعجزات الروحية التى تمت على
أيدى جماعته قد أتت أكلها فاعتق بضعة آلاف من إنجليز كنت المسيحية على
المذهب الكاثوليكي . وفى عام ٦٠١ أرسل البابا إلى أغسطينوس عباءة الأسقفية
Pallium ، وهذا تقليد جديد يعبر به البابا عن إعزاز خاص لبعض الأساقفة
المخلصين فى تأدية رسالتهم . ونع هذا الإنعام البابوى وصلت أوامر جريجورى بتنظيم
الكنيسة الإنجليزية فى منطقتين : واحدة تتمركز ابيارشيتها فى لندن والأخرى فى
يورك . وقد اختار أغسطينوس مدينة كنتربرى Canterbury ، وهى عاصمة كنت ،
مقرّاً لكرسيه اللندنى ، واحتفظ طيلة حياته بحق الإشراف على القسمين . ويرجع
الفضل فى تحرير الكنيسة الإنجليزية من سلطة الدولة إلى جهود البابا جريجورى
الذى جعل تبعية الكنيسة المباشرة للكرسى الرسولى فى روما فقط .

بعد وفاة أغسطينوس سنة ٦٠٤ خلفه أحد رهبانه واسمه لورنس رئيساً
لأساقفة كنتربرى . على أنه بوفاة الملك اثلبرت انقسمت مملكته إلى سبع ممالك
مستقلة ، وأصبحت جهود روما التبشيرية بنكسة خطيرة : فقد ارتد ابن اثلبرت

G.H. Trevelyan in his "History of England", p. 58 puts it like this : "Augustine (٣٠)
was no more than the worthy instrument of Gregory the Great. The impulse for the conversion
of the "Angles" into "angels" came from Gregory in person."

Ibid., p. 33 : "St. Augustine and his monks were bringing back with them the (٣١)
Latin alphabet and the custom of written record."

ونخلفه إلى الوثنية . وفعل ابنا ملك اسكس Essex نفس الشيء في نفس العام (٦١٦) . وسرت الوثنية تبتلع جهود أغسطينوس وفريقه من الرهبان سريان النار في الهشيم ، وفزع أسقفا لندن وردشستر وهربا إلى غالة . وكاد رئيس الأساقفة في كمبري أن يهرب هو أيضاً إلى القارة ، ولكن الرواية تقول إن القديس بطرس ظهر له أثناء الليل وعنفه على « ضعف إيمانه » بل إنه جلدته بسوطه حتى توقظ فيه ضربات أمير الرسل حرارة الإيمان ومغالبة اليأس . وفي صبيحة اليوم التالي قصد رئيس الأساقفة إلى مقام سيده الوثني الملك ايدابولد Eadbald وكشف له عن آثار ضربات القديس بطرس ، وكانت هذه المعجزة كافية لأن يقبل ايدابولد العماد وأن يظل بقية حياته على ولاء للمسيحية . وحدث أن تزوج ادوين Edwin ملك نورثمبريا Northumbria الوثني من شقيقة لملك كنت ، وذلك في عام ٦٢٤ ، وكان ادوين هذا أقوى ملوك الممالك الإنجليزية السبع . ولقد صحب الأميرة التي زفت إلى نورثمبريا أحد الرهبان الرومان واسمه باولينوس الذي صار أسقفاً لإبيارشية يورك . ولقد أحسن الملك أدوين استقباله ، ولكن شعب كنيسة يورك وأسقفها الجديد في بداية الأمر لم يكن ليعدو الملكة وبعض وصيفاتها فحسب . ولما أن أحرز أدوين انتصاراً عسكرياً رائعاً على أعدائه أدخل باولينوس في روعه أن هذا النصر قد جاء ثمرة لتضرعات كنيسة يورك لله ، ولذا فإنه في عيد ميلاده سنة ٦٢٥ قبل الملك المعمودية هو وعدد كبير من نبلائه وكبار الكهنة الوثنيين في مملكته . وازدهرت أحوال الكنيسة التي أرسى قواعدها باولينوس وفريقه في مملكة نورثمبريا لمدة ثمانية أعوام .

وفي سنة ٦٣٥ عقد ملك شمالي ويلز حلفاً مع ملك ميرشيا Mercia ضد أدوين ملك نورثمبريا . والغريب في أمر هذا الحلف أن الأول كان بريطانياً مسيحياً ، في حين أن الثاني كان سكسونياً وعلى الوثنية . وهجم الحليفان على عدوهم المشترك في واقعة Hatfield Chase وأوقعا به هزيمة نكراء : فأبى جيشه وسقط هو في الميدان على مقربة من مدينة دونكستر Doncaster . هربت أرملة أدوين وأطفالها والأسقف باولينوس إلى بلاط شقيق الملكة في كنت ؛ بينما وقعت نورثمبريا فريسة لنهب الحزب المنتصر . وهكذا في ضربة قدر واحدة طمست جهود باولينوس في

أسقفية يورك المزدهرة . على أن المسيحية سوف تعود ثانية إلى يورك ، ولكن هذه المرة على أيدي مبشرين من الشمال البريطاني من أتباع القديس يونا Iona ، وليس من قبل روما^(٣٢) .

* * *

لعل خير ما يدل على الفضل الذي أسداه البابا جريجورى العظيم لإنجلترا والإنگليز بل وللتاريخ هو بيده الوقور The Venerable Bede ، ذاك الإنجليزى الذى ولد بعد سبعين عاماً من وفاة جريجورى العظيم . وبيده عالم فريد وعبرى أصيل ، ونحن مدينون له فى التاريخ لإنجلترا فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ العصور الوسطى . ولد بيده فى مدينة وارموث أوجاررو Jarrow سنة ٦٧٣ . ولقد توفى والداه وهو بعد طفل صغير ، فقضى حياته فى دير القديسين بطرس وبولس الذى أسسه القديس بينت بسكوب St. Benet Biscop . وانخرط بيده فى سلك الرهبانية ، وفى سنة ٦٩٢ رسم شماساً ، وفى سنة ٧٠٣ سيم قساً ، وتوفى سنة ٧٣٥ بعد حياة حافلة بالصلوات والدراسة . وقد شملت كتابات بيده كل فروع المعرفة المعروفة عند أهل العلم فى العصور المظلمة ، ويرى فيه الإنجليز « أب التاريخ

In the "Dream of the Rood", the Christian poet, probably a Northumbrian of (٣٢) the Eighth century, has blended the ethical ideas of Mediterranean Christianity with the heroic legend of the gallant thegns of the North :

"Stripped himself then the young hero,
that was God Almighty,
strong and brave :
he mounted the high cross
courageously in the sight of many,
when he wanted to set mankind free.
I trembled when the hero embraced me. *
I dared not bend to the earth.

(Trevelyan, p. 67).

الإنجليزى « (٣٣) . ويراع بيده هو الذى حفظ لنا كل ما وقعت عليه يدا هذا الراهب من تراث القدامى والآباء الباكين : فهو يكتب عن الشعر وحساب الوقت والفلسفة واللاهوت والتراتيم . ولعل أهم أعماله جميعاً كتابه بعنوان « التاريخ الكنسى للشعب الإنجليزى » الذى تميز بالإنصاف فى معالجة المادة التاريخية وبرشاقة فى الأسلوب مما يجعل بيده أعظم مؤرخى عصره على الإطلاق . ومؤلفه هذا هو العمل الأوحد الذى نعتز عليه على طول المسافة بين « مدينة الله » ونهضة القرن الثانى عشر .

* * *

لا نبالغ فى القول إن نحن أكدنا هنا أن جهود البابوات الثلاث ليو الأول العظيم وجيلازيوس وجريجورى هى التى جعلت البابوية بحق الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية . لقد سار الجالسون على كرسى القديس بطرس فى روما على خطاهم ، وبإلهام من سير هؤلاء العمد الثلاثة أبرزت البابوية لعالم العصور الوسطى « هبة قنسطنطين » المزيفة ، وأقدم ليو الثالث على نقل التاج من على رأس الجالس على عرش بيزنطة إلى رأس شلمان ، وأصدر هلدبراند مراسيمه الشهيرة باسم Dictatus Papae التى أذل بها الإمبراطور الرومانى المقدس . وعلى ثقل النظرية البطرسية وهبة قنسطنطين وبطولات هؤلاء البابوات جميعاً راح الحزب البابوى يصف الجالس على عرش كنيسة روما بالآتى :

“Sacerdos magnus, Summus Pontifex. Tu princeps episcoporum, tu haeres Apostolorum, tu primatu Abel, gubernato Noe, Patriarchatu Abraham, ordine Melchisedech, dignitate Aaron, auctoritate Moyses, judicatu Samuel, potestate Petrus, unctione Christus.” (٣٤)

Trevelyan, op. cit., p. 63 : “We moderns value him most as the “father of English history.” (٣٣)

St. Bernard de Clairvaux, De Consideratione, lib. II, Cap. viii, 15, Col. 1032, (٣٤)
in Opera Omnia, J. Mabillon's edition.

الفصل السابع

الميروغنجيون والكارولنجيون

كارل العظيم (شلمان) والنهضة الكارولنجية

“Sit dominus aut pater, sit rex et sacerdos, sit omnium Christianorum
moderantissimus gubernator.”

توفي الملك كلوفس - مؤسس مملكة الفرنجة الميروغنجية - في عام ٥١١ م ، بعد أن سيطر على كل أجزاء غالة تقريباً فيما عدا برجنديا وبروفانس وسبتانيا . وكان كلوفس يعتمد في تصريف أمور دولته على الأساقفة ، وينظر إليه على أنه المؤسس الأول للدولة الفرنسية^(١) .

ولقد اعتبر الميروغنجيون بلاد غالة إرثهم الطبيعي ، فراح الأبناء يقتسمون ملك الآباء في أقدار متساوية . ولذا فإنه بعد وفاة كلوفس اقتسم أبنائه ثيودوريك (ثرى) وكلوديمير وشلدبرت وكلوتار أراضي المملكة ، واتخذوا عواصمهم في كل من ريمز وأورليانز وباريس وسواسون ، ودار الصراع بين الإخوة الأربعة كل يريد توسيع رقعة مملكته الصغيرة على حساب الآخر . وعند وفاة كلوديمير في عام ٥٢٤ قام أخواه شلدبرت وكلوتار بقتل أطفاله ليقسما أملاك أخيهما المتوفى فيما بينهما . وعند وفاة ثيودوريك في عام ٥٣٤ خلفه في الحكم ابنه القوي ثيودبرت الذي ظل يحكم حتى عام ٥٤٨ وعند وفاته خلفه ابنه ثيودبالد الذي قتل في عام ٥٥٥ . أما شلدبرت فقد توفي عام ٥٥٨ ، وهكذا لم يبق من أبناء كلوفس سوى كلوتار الأول ، الذي صارت له السيادة على كل أراضي المملكة الميروغنجية . ولا تمرد كرامنوس Chramnus على أبيه كلوتار وهرب إلى حليفه كنوبير Chnober كونت بريتاني ، هجم عليه أبوه وقضى على فتنته ، ثم قيده

Cambridge Medieval History, Vol. II, p. 116. seq.

(١)

وزوجه وأطفاله داخل أحد الأكواخ وأشعل فيها النيران^(٢) . على أن هذه الفعلة الشائنة أشعلت ناراً في قلب الأب كلوتار وبات يتلوى بالشعور بالذنب ووخز الضمير .

وكان قد برر قتله لابنه على هذه الشاكلة بما وقع بين النبي داود وابنه بشالوم ، ولكن ضميره بات ينغص عليه حياته ، ولم يهدئ من روعه الندم والتوبة على ضريح القديس مارتن في بلدة تور . ووقع الرجل صريع مرض الهم والشعور بالذنب وتوفي محسوراً حزيناً في قصره في كومبين Compiègne وكانت آخر كلماته : ” ماذا تظنون في ملك السموات الذي يلقي بملوك الأرض على هذه الشاكلة ؟ “ .

ولقد قام أبناؤه الباقيون بدفنه في حقل رائع في بازيليك سانت ميدار St. Medard في سواسون في عام ٥٦١^(٣) .

ومع أن مملكة الفرنجة آنذاك كانت مقسمة إلى أربعة أجزاء ، إلا أنه كان ينظر

P.L., Vol. 71, Gregorii Tournensis Episcopi Opera Omnia, Historia Francorum, (٢) Liber Quartus, XX, Cols. 285-86 : “Chlothacharius autem rex, contra Chramnum frendens, cum exercitu adversus eum in Britanniam dirigit .. Ea quoque nocte Chonober comes Britannorum dicit ad Chramnum : Injustum censeo te contra patrem tuum debere egredi .. Ibatque Chlothacharius rex tanquam novus David contra Absalonem filium pugnaturus, plangens atque dicens : Respice, Domine, de coelo, et judica causam meam, quia injuste a filio injurias patior. Respice, et judica juste; illudque impone judicium, quod quondam inter Absalonem et patrem ejus David posuisti. Confligentibus igitur pariter, Britannorum comes terga vertit, ibique et cecidit. Denique Chramnus fugam iniit, naves in mari paratas habens : sed dum uxorem et filias suas liberare voluit, ab exercitu patris oppressus, captus atque ligatus est. Quod cum Chlothachario regi nuntiatum fuisset, jussit eum cum uxore et filiabus igni consumi : inculsique in tugurio cujusdam pauperculi, Chramnus super scamnum extensus orario suggillatus est; et sic postea super eos incensa casula cum uxore /et filiabus interiit.”

Ibid., “Rex vero Chlothacharius anno quinquagesimo primo regni sui, cum (٣) multis muneribus liminia beati Martini expetiit, et adveniens Turonis ad sepulcrum antedicti antistitis, cunctas actiones quas fortasse negligenter egerat replicans, et orans cum grandi gemitu, ut pro suis culpis beatus confessor Domini misericordiam exoraret, et ea quae irrationabiliter commiserat, suo obtentu dilueret. Exin regressus, quinquagesimo primo regni sui anno, dum in Cotia silva venationem exerceret, a febre corripitur, et exinde Compendium villam rediit : in qua cum graviter vexaretur a febre, aiebat : Vaa ! Quid putatis, qualis est ille Rex coelestis, qui sic tam magnos reges interficit ! In hoc enim taedio positus, spiritum exhalavit.”

إليها برغم هذا على أنها وحدة متكاملة باسم مملكة الفرنجة Regnum Francorum : فلقد أكمل أبناء كلوفس المهمة التي بدأها أبوهم فأخضعوا مملكة برجنديا ، وكان سجسموند ملك برجنديا قد استرجع دير أجاونوم Agaunum من الفرنجة ، كما عقد مجلسا في إپاوني Epaône في عام ٥١٧ حيث تقرر اتخاذ إجراءات صارمة ضد الهرطقة الأريوسية . ولكن هذه الجهود لم تنج سجسموند من أبناء كلوفس الذين هجموا عليه في عام ٥٢٣ وأوقعوا به هزيمة ساحقة وأخذوه أسيراً وسلموه وزوجه وأطفاله إل كلودومير الذي ألقى بهم جميعاً في بئر في سانت برائي لا كولوب St. Pervy-la-Colombe على مقربة من مدينة أورليانز . ولكن جودمار شقيق سجسموند استجمع قوته وانتقم لأخيه بأن قتل كلودومير في ٢٥ يونية سنة ٥٢٤ عند مدينة فيزيرونس واستعاد مملكة برجنديا وظل يحكمها حتى عام ٥٣٤ . ولكن شلدبرت وكلوتار وثيودبرت هجموا مرة أخرى على برجنديا وقسموها فيما بينهم . لقد ظلت مملكة برجنديا مستقلة قرابة القرن ، وأنتجت مؤرخا مرموقا هو ماريوس من اثنتيكوم وشاعراً مجيداً هو آفيتوس . وحتى يومنا هذا ما زال البرجنديون يحتفظون بصفات خاصة بهم تميزهم عن بقية جنس الفرنجة ، وليس من الصعب اليوم أن نتبين في سكان الساعون والرون سمات خاقية واجتماعية ترجع إلى أجدادهم البرجنديين الأول ، الذين كان يبلغ طول الواحد منهم سبعة أقدام أو يزيد ، وهم معروفون بالعمل الدائب وحب المتعة والحرر في آن واحد ، ولهم شهرة ذائعة في فظاظة اللسان والسوقية .

كذلك ضم أبناء كلوفس إقليم بروفانس والمدائن الواقعة شمال ديرانس التي كانت تحت سيطرة القوط الشرقيين . وكان فييجيس قد منح هذه الأراضي لأبناء كلوفس مقابل حيادهم في الصراع الذي نشب بينه وبين جستنيان العظيم .

وهكذا دانت كل أراضي غالة لبيت كلوفس فيما عدا ولاية سبتانيا التي ظلت في يد القوط الغربيين حتى عهد بين Pepin الذي نجح في ضمها إلى مملكة الفرنجة .

وفي خلال القرن السادس عندما غزا الأنجلو-سكسون جزيرة بريطانيا فر بعض السكان الأصليين من الكلت من جزيرتهم وحلوا في شبه جزيرة ارموريكان حيث أعطوا هذه البقعة اسمهم ألا وهي بريتاني Brittany ، وكان ذلك على حساب ملوك الفرنجة بطبيعة الحال . واختفت من بريتاني اللغة اللاتينية وحلت محلها اللغة الكلتية ،

وسرعان ما ظهرت أسماء للقديسين الكات من قبيل القديس بريوك St. Briec والقديس تيوتال St. Tutwal والقديس مالو St. Malo والقديس جوديكايل St. Judicaël^(٤) .

وانقسم أهل بريتاني إلى ثلاثة أقسام هي برو - واروك Bro-Waroch نسبة إلى اسم زعيمهم ، وكورنوفي Cornovii نسبة إلى كورنوفول ثم دومنيونيه Domnonée نسبة إلى ديقون . وقد اعترف زعماء بريتاني بسيادة الملوك الفرنجة عليهم ولكنهم لم يقبلوا تدخل هؤلاء الملوك في اختيارهم زعماء للكات على بريتاني ، وبذا كانوا شبه مستقلين عن مملكة الفرنجة .

بعد هذا شهدت مملكة الفرنجة انقساماً خطيراً بين أبناء الملك كلوتار الأول وهم شريبيرت Charibert وسيجبرت Sigebert وشلبريك Chilperic . وكان شريبيرت ملك باريس أول من اختفى من مسرح الصراع فقد توفي في عام ٥٦٧ .

دار الصراع الآن بين الأخوين سجبيرت ملك متر وشلبريك ملك سواسون ، واستغل جونترام ملك اورليانز وبرجنديا هذا الصراع بين الأخوين ، وراح يؤيد هذا تارة وذاك تارة أخرى ليفت في عضد الاثنين . ولقد زاد من ضراوة الصراع بين الأخوين الحقد الدفين بين زوجتيهما . وكان سيجبرت قد تزوج من الأميرة برونهلد (برونهوت) ابنة أثناجلد ملك القوط الغربيين بعد أن تخلت عن المذهب الأريوسي واعتنقت الكاثوليكية . وقد تم هذا الزواج في مدينة متر في أبهة زائدة . وقد ألقى الشاعر الشاب فورتيناتوس قصيدة عصماء بهذه المناسبة . ولم يكن هنالك من بين الحاضرين من يفهم هذا الشعر الرصين سوى العروس برونهلد التي كانت على درجة وافرة من الثقافة اللاتينية . ولقد أضفت هذه الأميرة المهيبة على بلاط سيجبرت هالة من الوقار والعلم سرعان ما أشعلت نار الحقد والغيرة في قلب شلبريك .

وكان شلبريك شخصاً منحلاً ، فلقد تزوج من امرأة تافهة هي اودوفيرا ثم طلقها ليعاشر إحدى الخاديات وهي فريديجوند . وبعد أن علم بالزواج الموفق الذي حصل عليه أخوه طلب يد شقيقتها جولسونزا من أبيها أثناجلد . وزفت جولسونزا إلى بلاط سواسون ، وفي أول الأمر « أحبها زوجها حباً كبيراً بسبب ثروتها » ، ولكنه سرعان

ما هجرها ورجع إلى خليلته القديمة . وذات صباح فوجئ أهل القصر بالملكة جولسونزا ترقد قتيلاً في فراشها . وبعد قليل من هذا الحادث تزوج الملك خادمتها وخليلته فرديجوند ، ثم أمر بإعدام زوجه الأولى أودوفيرا . ثم دار الصراع بين فرديجوند وبرونهلد ، الأمر الذي أدى إلى قيام الحرب بين الأخوين سيجبرت وشلبريك . انتصر سيجبرت على شلبريك واستولى على معظم ممتلكاته وأودعه السجن في مدينة تورناى على أنه عند مدينة قترى على مقربة من آراس انقض عليه اثنان من عبيد فرديجوند وقطعا عنقه بالخناجر المسمومة . واسترد شلبريك مملكته ووضع برونهلد في السجن . ولكنها نجحت في الهروب ووصلت أوسترازا حيث أعلن ابنها شلدبرت الثاني ملكاً .

كان شلبريك ملكاً مستبدًا وأرهب شعبه بالضرائب المجحفة . كما صادر أملاك الأغنياء منهم ، وكان لا يخفى حقه على الكنائس التي كانت خزائنها مليئة بالذهب . ولذلك فقد استولى على الكثير من أموال الكنائس وراح يبيع مناصب الأسقفية بالمال . وكان شلبريك يكره فكرة الثالوث في المسيحية فأصدر قراراً بعدم ذكر اسم الأب أو الابن أو الروح القدس في الصلوات .

وكان لا يحترم عهداً ولا ميثاقاً ، إلى حد أن جرينجورى أسقف تور شبهه بنيرون الطاغية وبهيرودوس زمانه . ولقد شن شلبريك حرباً قاسية ضد برونهلد وولدها شلدبرت ، وانتزع منهما بواتيه وتور . وذات يوم عند عودته من رحلة صيد في Chelles اقترب منه رجل وطعنه فأرداه (سنة ٥٨٤) ، ولم يعثر على القاتل^(٥) .

كان شلبريك قد نجح في تشديد قبضته على الفرنجة الغربيين في المناطق التي ضمت حديثاً للملكة الميروفنجية والتي عرفت باسم نوستريا Neustria وهي اصطلاح مشتق من كلمة Niust أى « الحديد » أو « الحديد » . وفي نفس الوقت نجحت الملكة برونهلد في السيطرة على مناطق أوسترازا وذلك باسم ابنها الملك شلدبرت الثاني (٥٧٥ - ٥٩٦) .

P.L., Vol. 71, col. 412 : "His itaque cum hac praeda pergentibus, Chilpericus, (٥)

Nero nostri temporis et Herodes, ad villam Calensem, quae distat ab urbe Parisiaca quasi centum stadiis, accedit, ibique venationes exercet. Quadam vero die regressus de venatione, jam subobscura nocte, dum de equo susciperetur, et unam manum super scapulam pueri retineret, adveniens quidam cum cultro percutit sub ascellam, iteratoque ictu ventrem ejus perforat; statimque profluente copia sanguinis tam per os quam per aditum vulneris, iniquum fudit spiritum."

ولكن رجالات المملكة وقفوا ضد الملكة برونهلد وعاونهم في تمردهم ضدها نبلاء نوستريا . ولكن الملكة نجحت في إحباط المؤامرة وعقدت حلفا مع جونترام ملك برجنديا الذى تبنى ابنها شلدبرت واعترف به ملكا (عام ٥٧٧) . وتخلصت برونهلد من أعدائها من النبلاء بالاغتيال . ولما استقدم النبلاء مطالباً للعرش واسمه جندوبالد هجمت برونهلد ورجالها عليه في مدينة Comminges وقتلوه (٥٨٥) . وبعد ذلك بعامين قتلت زعماء التمرد في قلب كنيسة فردان . وعند وفاة جونترام ملك برجنديا استولت على مملكته لحساب ابنها الذى كان جونترام قد تبناه .

ولما توفي شلدبرت ظلت الملكة الأم تمارس سلطاتها حتى بعد أن اقتسم ابنا شلدبرت وهما ثيودبرت وثيودوريك المملكة ، الأول على أوسترازيا والثانى على برجنديا .

ولكن حفيدها ثيودوبرت سرعان ما ثار ضد هذه المرأة المتجبرة ، فهربت إلى برجنديا حيث حكمت على الباتريكيان إجيلا Egila بالإعدام ونفت ديديه Didier أسقف فين Vienne عن المملكة ثم قامت بجمع الضرائب دون أن ينبس واحد بينت شفة . ثم راحت تحرض حفيدها ثيودوريك ضد حفيدها وعدوها ثيودوبرت ، ودارت الحرب بين الأخوين فهزم ملك استرازيا على ضفاف الموسل Moselle على مقربة من بلدة تول ، ثم أخذ أسيراً وأعدم في زولپك Zulpich . وفجأة توفي حفيدها وحليفها ثيودوريك (عام ٦١٣) وهو في السابعة والعشرين من عمره . وسعت برونهلد إلى أن تختار ابنه الأكبر سيجبرت الثانى للعرش ، مخالفة في هذا التقاليد الفرنجية التى كانت تقضى بتقسيم المملكة بين جميع الأبناء . ولكن القوات الاوسترازية هبت لتقاوم هذه الملكة المستبدة ، ولجأ ارنولف أسقف متر وپين Pepin وزير البلاط إلى كلوثير الثانى ملك نوستريا للمساعدة ضد برونهلد . ودارت الدائرة على برونهلد ، ف وقعت أسيرة في أيدي أعدائها على ضفاف بحيرة نيوشاتل Neuchatel . وقتل جميع أبناء أحفادها الباقين واختفوا من التاريخ . أما برونهلد ذاتها فقد وضعت على ظهر جمل وعذبت ثلاثة أيام ، ثم قيدوها بشعر رأسها ، وأوثقوا ذراعها وقدمها بذيل حصان جامع وألبوا ظهره بالسياط فزقها قطعاً . وكان ذلك في عام ٦١٤ .

كانت برونهلد — من وجهة نظر العصر الذى عاشت فيه وهو عصر العنف — سيدة متدينة فاضلة : فلقد بنت الكنائس والأديرة وكانت تعطف على رجال الدين ،

كذلك كانت حاكما ممتازاً . ولقد اهتمت اهتماماً زائداً ببناء القلاع والحصون والطرق ، وما زال بعضها يحمل اسمها حتى اليوم *Chausées de Brunehaute* . ولئن كانت برونهلد قد تميزت بالتهور والقسوة ، فإن هذا الحكم ينطبق تماماً على كافة معاصريها . ولا يجب أن نحكم على شخصيتها إلا على ضوء أخلاق العصر الذي عاشت فيه .

أصبح كلوتير الثاني بعد أن تخلص من برونهلد ملكاً على كل من أوسترازيا وبرجنديا ونوستريا (من ٦١٣ - ٦٢٨) . على أن السلطة الحقيقية لم تكن في يد الملك وإنما انتقلت بالفعل إلى أيدي وزراء البلاط *Mayors of the Palace* في هذه الأقطار الثلاثة . ولقد أصبح هذا المنصب يعطى لصاحبه مدى الحياة فازدادت أهميته .

ولقد دخل كلوتير الثاني في حرب ضد السلاف : ذلك أن أحد زعماء الفرنجة واسمه ساموقد لجأ إلى معسكرهم وجند عدداً من قبائلهم وسار على رأسهم لمحاربة بني جلده من الجرمان وأحرز عليهم بعض الانتصارات . وفي عام ٦٢٢ نصب كلوتير ابنه داجوبرت ملكاً على استرازيا . وكان وزير قصره أو بلاطه اللورد *Pippin* صاحب إقطاعتي لاندن وهرزال ، ومن الأخيرة اشتق اسم شهرته *بين* من هرزال . كذلك كان للملك مستشار مرموق هو أرنولف أسقف مترالذي كان صديقاً حميماً لـ *بين* . وكان هذا الأسقف متزوجاً إذ كان زواج رجال الأكليروس أمراً شائعاً في ذلك الوقت ، ولقد زوج ابنه *Ansegisil* من *Begga* ابنة *بين* . ومن هذا الزواج انبثق الفرع الفرنجي الشهير بالكارولين نسبة إلى كارل العظيم أو شلمان .

توفي كلوتير الثاني في عام ٦٢٨ وخلفه ابنه داجوبرت ملكاً على الفرنجة جميعاً ، وقد أشرك معه أخاه شريبيرت في الحكم بأن أعطاه مملكة أقطانيا ، ولكن شريبيرت توفي في عام ٦٣٠ . أمضى كلوتير معظم سني حكمه في الغرب في مملكة نوستريا التي لم يكن في بلاطها وزراء أقوياء ينازعونه سلطاته . أما في مملكة استرازيا فقد اعتزل وزير البلاط الأسقف أرنولف في عام ٦٢٩ حياة الحكم والشئون العلمانية وقضى بقية عمره مترهباً في جبال الفوج ، حيث أكسبته حياته الزاهدة هناك لقب القديس . وآلت أمور الحكم في مملكة استرازيا إلى أنزيجزل ابن أرنولف وإلى *بين* . وفي عام ٦٣٢ نصب داجوبرت ابنه سجبيرت الثالث ملكاً على استرازيا . وفي عام ٦٣٨ توفي داجوبرت تاركاً سجبيرت الثالث ملكاً على استرازيا وشلدفيج الثاني ملكاً على برجنديا . وفي العام التالي توفي وزير البلاط *بين* واحتل ابنه جرهمالد منصب الوزير دون أن يكلفه الإمبراطورية الرومانية

أحد به . ولذلك فقد تدمر نبلاء استرازيا ولكن جرموالد سحق ثورتهم ، وجعل من هذا المنصب الخطير وظيفة وراثية في أسرته . وكان سيجبرت ملكا هزيلا في أيدي جرموالد القوي . ولذا فإنه يعتبر أول « الملوك الدمى » أو العاطلين Les rois fainéants توفي سيجبرت الثالث في عام ٦٤٦ ، فقبض وزير بلاطه جرموالد على ولي العهد دجوبرت الثاني ونفاه إلى إيرلندا . ثم نصب ابنه شلدبرت ملكاً على استرازيا . ولكن النبلاء هبوا ضد الوزير وابنه وقتلوهما . ثم خضعت ممالك الفرنجة جميعاً للملك شلدفيج الثاني ملك نوستريا الذي توفي في نفس العام .

ومنذ هذا التاريخ لم تعد للملوك الفرنجة أهمية تذكر وإنما يهتم الدارسون فقط بوزراء البلاط الذين كانوا بمثابة الملوك الحقيقيين . اختار النبلاء إبروين Ebroin وزيراً للبلاط في مملكة نوستريا ، الذي استخدم وسائل العنف لتحقيق مآربه الخاصة ، ولم يتورع عن قتل كل معارضيه في نزواته الاستبدادية على حساب الملك ، وكان من بين ضحاياه القديس ليجير St. Leger أسقف أوتون .

وبعد أن سيطر تماماً على نوستريا هاجم أوسترازيا التي كانت في واقع الأمر في يد وزير بلاطها بين من هرزال (الأصغر) . وانتصر إبروين على بين ، ولكنه اغتيل بعد عام واحد من هذا الانتصار ، وبذلك ضاعت جهوده التي بذلها من أجل إعلاء شأن نوستريا . واصل بين الحرب مع نوستريا وفي عام ٦٨٧ سحقت قواته جيش ونوستريا تماماً في واقعة تستري Testry وأصبح بين الرجل الأول في مملكتي استرازيا ونوستريا . ويعتبر عام ٦٨٧ عاماً فاصلاً في تاريخ الفرنجة ففيه تحددت السيادة لاسترازيا واستقرت مقاليد السلطة في بيت بين .

استن بين (٦٨٧ - ٧١٤) سياسة اهتدى بها كل خلفائه من بعده ألا وهي إخضاع الشعوب المجاورة لحدود مملكة الفرنجة من فريزيين وثورنجيين وبقاريين وألماني وأقطانيين لسلطانه . وعند وفاة بين كان له خلفان : ابن غير شرعي هو شارل مارتل وحفيد هو ثيدوالد الذي كان في الخامسة من عمره . وكان بين قد عين خلفاً له في منصبه هذا الطفل الصغير ثيدوالد . هذا وقد قامت زوج بين ، بلكتروديس ، بالوصاية على حفيدها ، ثم ألقت بشارل في السجن . غير أن نبلاء نوستريا ثاروا ضدها وغزوا

استرازايا بمعونة الفريزيين ، وهزمت بلكتروديس واضطرت إلى الاستجابة لمطالب نبلاء نوستريا . وفي خلال ذلك تمكن شارل من الحرب من السجن واعترف به الاسترازيون وزيراً للبلاط . كان عهد شارل مليئاً بالحروب ، فلقد أجبر النوستريين على الاعتراف به وزيراً للبلاط . كما قام بعدة حملات ضد الفريزيين في أعوام ٧١٩ ، ٧٢٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ؛ وضد السكسون في أعوام ٧١٨ . ٧٢٠ ، ٧٣٨ . وضد البافاريين في أعوام ٧٢٥ ، ٧٢٨ ؛ وضد الألمانى أيضاً . وكانت سياسية شارل تهدف إلى إخضاع كل هذه الشعوب وتوحيدها تحت لواء الحكومة المركزية الواحدة .

في عام ٧١١ فتح العرب إسبانيا وتمكنوا في أقل من تسعة أعوام من السيطرة على كل شبه جزيرة أيبيريا ، وفي عام ٧٢٠ عبروا جبال البرانس وتوغلوا داخل بلاد الغال . وقد تصدى للعرب الدوق يود Eudes صاحب أقطانيا ، ثم عقد معهم صلحاً وزوج ابنته لعثمان أحد قواد الجيش العربى . وكان يود يسعى إلى الاستقلال عن سيطرة شارل مارتل ، ولكن شارل أوقع به هزيمة نكراء في عام ٧٣١ . ثم تمرد القائد العربى عثمان ضد عبد الرحمن أمير إسبانيا ، ولكن الثورة قد سحقته وقتل عثمان . ورفض عبد الرحمن تجديد الحلف الذى كان عثمان قد أبرمه مع الدوق يود . وهنا أثر الدوق أن يلتقى بنفسه تحت رحمة شارل مارتل طالباً العفو . ثم جمع شارل مارتل رجاله ومضى ليقابل العرب ، وانتصر عليهم في واقعة پواتييه (أوتور أحياناً) وذلك في عام ٧٣٢ ، وقتل عبد الرحمن في هذه الواقعة التى تعرف أيضاً باسم « بلاط الشهداء » .

وفي العام التالى لواقعة تور قام شارل مارتل بقمع ثورتين اندلعتا في برجنديا وأقطانيا . وبذلك ساد الهدوء والسلام في كل أرجاء مملكة شارل مارتل المتسعة .

وفي عام ٧٤١ قسم شارل الحكم بين ولديه كارل وپين : وتلقى الأول الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة ، والثانى حصل على الجزء الغربى . وتوفى شارل مارتل في نفس العام . هذا ، ولم يكن هنالك جالس على عرش الفرنجة في السنوات الأربع الأخيرة من حكم شارل مارتل ، لأن الملك ثيودوريك الرابع كان قد توفى في عام ٧٣٧ ولم يعين مارتل خلفاً له على العرش الميروفنجى ، ولم يشعر أحد بحاجة إلى آخر من هذه الدمى الميروفنجية .

ولقد شهد عصر شارل مارتل محنة خطيرة تهددت كنيسة الفرنجة ، وذلك بسبب

الصراع بين طائفتين من المبشرين : الرهبان الأيرلنديون من ناحية والمبشرون من قبل الكرسي البابوي من ناحية أخرى . وهذا يدعونا إلى استعراض النشاط الكنسي في أيرلندة في إيجاز : يرجع دخول المسيحية في أيرلندة إلى وقت القديس باترك (توفي حوالي سنة ٤٩٣) : وسرعان ما تحولت الجزيرة إلى الدين المسيحي واشتهر أهلها بالتقوى حتى أطلق عليها « جزيرة القديسين » . وكانت الكنيسة الأيرلندية مستقلة عن كنيسة روما ، وكانت تخالفها أيضاً في الطقوس الكنسية وتاريخ عيد الفصح ورداء الكهنوت والتنظيم الكنسي . وكانت الروح الغالبة على الكنيسة الأيرلندية هي روح الزهد والتمشف . وقد انتشرت البيوتات الديرانية في معظم أنحاء الجزيرة . وكان رهبان أيرلندة شديدي الغيرة على كنيستهم وعقدوا العزم على نشر المسيحية في طابعها الأيرلندي في كل أنحاء القارة . وكان هؤلاء الرهبان المبشرون يرون أن رسالتهم الحقيقية تكمن في الترحال خارج بلادهم « حججاً لنشر اسم المسيح » Peregrinare Pro Christo على حد تعبيرهم . وكان هؤلاء النساك الأيرلنديون لا يرتادون المدن وإنما يفضلون الإقامة في البراري . وأول رحلة لهم كانت إلى اسكتلندة : فلقد وصل القديس كولبا واثنا عشر من أتباعه إلى اسكتلندة في عام ٥٦٣ وحصلوا على جزيرة يونا . ومن هذه الجزيرة بدأت مهمة كولبا التبشيرية بين السكوت والأنجلو سكسون أيضاً . وبعد قليل انتقل المبشرون الأيرلنديون إلى منطقة لندزفان على الساحل الشرقي لإنجلترا ومارسوا نشاطهم التبشيري بين الإنجليز من هناك . كذلك بعث الأيرلنديون بإرساليات تبشيرية إلى القارة ، وكان أول هؤلاء المبشرين القديس كولبانوس ورفاقه الاثنى عشر وذلك في عام ٥٩٠ على وجه التقريب . وقد حل القديس على ملك برجنديا جونترام الذي رحب بمقدمه في حماس زائد . اشتهر كولبانوس بالتقوى والزهد ، وكان قاسياً ضد الشر والأشرار وكثيراً ما قرع الملوك وكبار النبلاء على الفساد الذي تردت فيه حياتهم . وبرغم تشدده الزائد الذي وصل إلى حدود التزمّت صادم كولبانوس نجاحاً عظيماً . وتوافدت على مقره جماهير غفيرة تطلب المعونة للروح في عصر مليء بالعنف والآثام ، ولكن الرجل انسحب إلى جبال الفوج حيث أقام أربعة أديرة أشهرها بيت لوكلز Luxeuil ، وما لبث القديس أن اصطدم بالملكة الجبارة برونهيك بسبب قسوتها فأمرت بنفيه . سافر القديس إلى نوستريا حيث استقبله ملكها كلوتير الثاني بالترحاب .

وبعد قليل قصد إلى استرازا فكلفه ملكها ثيودبرت الثانى بالتبشير بين قبائل الألمانى على بحيرة كونستانس . وأضى كولبانوس بعض الوقت فى برجنز Bregenz ومنها قصد إلى إيطاليا حيث أسس دير بوبيو Bobbio وتوفى فيه فى عام ٦١٥ . وأكمل المهمة من بعده تليذه القديس جالوس St. Gallus الذى سافر إلى سويسرا وأسس الدير الشهير الذى يحمل اسمه ، والذى أصبح مركز الإشعاع الرهبانى فى قلب أوربا ، والذى غدا مدرسة كبرى لتدريب المبشرين على الاضطلاع بإرسالياتهم . وتخرج من هذا البيت عديدون من المبشرين الأيرلنديين الذين كان لهم الفضل الأول فى نشر المسيحية بين القبائل الجرمانية التى كانت لا تزال على الوثنية . ومن بين أعلام هذه المدرسة القديس كيليان St. Kilian الذى استقر هو واثنى عشر من تلاميذه فى مدينة فرزبورج فى فرنكونيا فى عام ٦٨٠ ؛ والقديس الوقيوس St. Eloi الذى مارس مع الاثنى عشر من تلاميذه أيضا نشاطه فى بلجيكا فى نفس الوقت ؛ والقديس روبرت الذى كان يبشر هو وتلاميذه فى بشاريا فى عام ٧٠٠ تقريباً ؛ والقديس وليبرورد St. Willibrord الذى كان يبشر وصحبه فى فريزيا فى عام ٦٩٠ ؛ هذا فى حين أن سيجبرت قد أسس دير دسنتس Disentis فى الألب العليا . ولقد أتت هذه الجهود أكلها فانتشرت المسيحية فى كل تلك الجهات ونمت المدن من حول هذه الأديرة ، ودب فيها النشاط التجارى والعلمى .

على أن هؤلاء الرهبان الأيرلنديين - برغم ما صادفوه من نجاح مرموق - لم ينتصروا فى النهاية بل خسروا المعركة التبشيرية . ويرجع ذلك إلى روح الزهد المتطرفة التى كانت تسيطر على حياتهم ، كما وأنهم كانوا يسعون إلى تحويل مملكة الفرنجة إلى شىء أشبه بمملكة الأديرة والرهبان ، ولم يكن الفرنجة بالشعب الذى يستسيغ هذه النزعة النسكية المثالية . كذلك يؤخذ عليهم سوء الإدارة والتنظيم ؛ فلم ينجحوا فى توحيد كنائسهم تحت رأس واحد وحكومة كنسية متمركزة . ولعل من أهم العوامل التى قد أجهضت هذه الجهود الأيرلندية المضنية خلافهم الطقوسى مع كنيسة روما ، وهى الكنيسة الأم للكنيسة الفرنجية . ولقد أدركت البابوية خطورة الموقف وساورتها الشكوك فى أن الرهبان الأيرلنديين قد يؤسسون كنيسة فرنجية قومية مستقلة عن النفوذ البابوى . ولذلك فقد عمدت البابوية إلى محاربة النشاط الأيرلندى فى القارة وفى مملكة الفرنجة بصفة خاصة .

ونجح البابا حيث فشلت مدرسة كولبا . واضطر الرهبان الأيرلنديون أمام الجيوش المتتابعة من المبشرين الرومان إلى التقهقر والتواري ، وعلى التدريج فقدوا شعبيتهم وأصيبوا بالشلل - وبينما كان نجم كولبا آخذاً في الأفول كانت صبيحات القديس بونيفاس تتعالى لحساب الجالس على عرش القديس بطرس .

ومن بين العوامل الأساسية التي أسهمت في إنجاح مهمة بونيفاس ذاك التأييد الكبير الذي لقيه القديس من جانب شارل مارتل ، الذي مد له يد العون وبسط على مهمته ما يكفل لها الحماية . وليس سرّاً أن النجاح الذي أحرزه بونيفاس في نشاطه التبشيري لم يكن رومانياً بحتاً ، إذ كان سيف شارل مارتل يوقع الرعب في قلوب الناس قبل أن يتقدم بونيفاس ليلقى بتعاليم المسيحية على الطراز البابوي في هذه القلوب الملتاعة . وفي مقابل هذا العون الكبير الذي قدمه شارل مارتل لكنيسة روما ، تعمدت البابوية أن تغمض عينها عن كل سوءات مارتل وآثامه التي لا تحصى : فهو ابن غير شرعي ، وهو سيموني من الطراز الأول يبيع المناصب الأسقفية لمن يدفع لشرائها المبلغ الأكثر دسماً وهو بعد هذا يستولى على إقطاعيات من أراضى الكنيسة يهبها « أرزاقاً » Beneficium للفرسان الذين يحاربون في صفه ضد أعدائه ؛ كما أنه كثيراً ما قام بخلع الأساقفة عن أبرشياتهم ونقل أراضيهم إلى فرسانه لأنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لدفع الرواتب الباهظة لهؤلاء الفرسان المشاغبين . وكلما كانت الكنيسة الفرنجية تعلي صوتهما محتجة عليه كان شارل مارتل يرهبهم بحجة أنه يدافع عن كيانهم وكيان المسيحية ذاتها ضد الوثنيين الجرمان وضد عرب إسبانيا . وكان هذا كفيلاً بأن يخرس ألسنة الأساقفة الذين زالت عروشهم .

قبل أن يتوفى شال مارتل (في عام ٧٤١) نصب ولديه في الحكم فجعل كرلمان وزيراً للبلاط في مملكة استرازا ، وعين بين المعروف « بالقصير » Le Bref وزيراً للبلاط في نورستريا . وأمضى الأخوان الأعوام السبعة الأولى في حروب دائمة ضد الأقطانيين والألماني والبافاريتين والسلافي والسكسون ، وقد نجحوا في إخضاع هذه الشعوب جميعاً لسلطان مملكة الفرنجة . ولكي يضيفي الأخوان على حكمهما لمسة من الشرعية اختارا واحداً من البيت الميروثنجي هو شلدريك الثالث وعينه ملكاً ، ولكنه كان مجرد شبح يحمل التاج ، وقد قدر له أن يمضي من سجلات التاريخ على أنه آخر الملوك

الميروثينجيين أو آخر « الماوك المعطلين » . وفي عام ٧٤٧ تنازل كرلمان عن سلطته لأخيه بين القصير وعينه وصيًا على أبنائه ، وقصد كرلمان إلى قمم جبل سوراكت على مقربة من روما وارتدى مسوح الرهبان . ووفدت على مقامه جماعات غفيرة من الناس لتحمل في هذا الزاهد من بيت القديس آرنولف . وبعد ذلك بقليل انتقل كرلمان إلى ديرمونت كاسينو . Monte Casino .

لما انفرد بين القصير بإمرة البلاط الفرنجي كله راح يفكر في وضع التاج على رأسه ، فأرسل سفارة إلى روما تطلب من البابا زكريا الإجابة عن السؤال الآتي : أيهما يحق له أن يكون ملكا هذا الذي يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة أم ذلك الذي بيده كل السلطات فيما عدا اللقب ؟ ولما كان البابا زكريا في حاجة ملحة إلى حليف قوى ينصره على أعدائه اللومبارد ، فقد أجاب بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الذي ينبغي أن يتوج ملكا . وعليه فقد عقد مجلس كبير في مدينة سواسون Soissons في عام ٧٥١ ، واقتيد الملك الميروثينجي شلدريك الثالث إلى هناك واجتز شعره وألبس رداء الرهبانية ويعث به إلى أحد الأديرة النائية . ثم قام القديس بونيفاس بإعلان بين القصير ملكاً على الفرنجة ومسحه بالزيت المقدس . وهذا تقليد جديد على المجتمع الجرمانى تعمدت الكنيسة إدخاله في طقوس تتويج ملك الفرنجة لتشعره بفضلها عليه ولتوثق العلاقة بينها وبينه حليفاً ضد كل أعدائها ، وهو في نفس الوقت تقليد يسبغ على صاحبه شرعية من « فوق » أي من السماء .

كان اللومبارد — كما سبق أن بينا — قد دخلوا إيطاليا في عام ٥٦٨ ، وبعد سنين قلائل نجحوا في السيطرة على السهل الشمالى ودوقيتى سبولتو وبنفتو . ولكن البيت اللومباردى الحاكم لم ينجح في الحفاظ على التاج بالتوارث ، فمن بين الواحد والعشرين ملكا لومباردياً الذين حكموا قرنين من الزمان كان ثمانية منهم من عائلات مختلفة . ولكن هؤلاء الماوك جميعاً كانوا يرمون إلى توحيد إيطاليا كلها تحت حكمهم ، غير أنه لسوء حظ إيطاليا لم يفلح هؤلاء الملوك في جهودهم . وكانت الإمبراطورية البيزنطية تسيطر على إكزارخية Exarchate رافنا ، في حين أن الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة والإقليم المحيط بروما كان واقعاً تحت سلطان البابا . وبمرور الوقت طلق اللومبارد المذهب الأريوسى واعتنقوا المذهب الكاثوليكي ، ويرجع الفضل في ذلك إلى ثيودلندة الأميرة

الباقارية الكاثوليكية التي تزوجها الملك اللومباردى اوتارى (٥٨٤ - ٥٩٠) والتي تزوجت بعد وفاته من خلفه اجيلولف (٥٩٠ - ٦١٦) ، التي جاهدت جهاداً حسناً في سبيل الكاثوليكية . وعلى عهد الملك روتارى (٦٣٦ - ٦٥٢) كانت الأريوسية قد زالت تماماً من المجتمع اللومباردى . وقد كان هذا التحول العقائدى سبباً في سرعة الاندماج بين اللومبارد والإيطاليين ، وظهر ذلك بوضوح في القرن السابع . وقد شجع هذا الملك ليتوبراند (٧١٣ - ٧٤٤) على المضي في خطته لتوحيد كل إيطاليا تحت إمرته على حساب النفوذ البيزنطى في الجزيرة من ناحية والنفوذ البابوى من ناحية أخرى . وكان الحلاف الذى دب بين البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) من ناحية وبين الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١) بسبب سياسة الإمبراطور اللايقونية حافزاً للملك ليتوبراند لأن ينفذ خطته في توحيد إيطاليا . فقام في عام ٧٢٧ بالهجوم على اكزارخية رافنا ودانت له معظم أراضيها ، كما ضم المنطقة المعروفة بالتابولس Pentapolis « المدائن الخمس » ، وبعدها راح يفكر في غزو روما . ولكن قوات الإمبراطورية البيزنطية سارعت لتحيط خطة ليتوبراند ، واستعادت رافنا منه ، كما قام بالثورة ضده دوقا سبولتو وبنفنتو وانضمت قواتهما إلى الجيش البابوى . ثم عقد ليتوبراند حلفاً مع اكزارخية رافنا ضد البابا على أن تعطى روما للإكزارخ وتسلم دوقيتا بنفنتو وسبولتو لليتوبراند . ونجح ليتوبراند في تحقيق مخططه ، ثم زحف على مدينة روما لا ليغزوها وإنما ليعرض الصلح على البابا . ويرجع هذا التغير المفاجئ في سياسة ليتوبراند إلى أنه بات يخشى ازدياد نفوذ الإمبراطورية البيزنطية من جديد في شبه الجزيرة الإيطالية . وتم الصلح بين الأطراف الثلاثة المتناحرة : إمبراطور بيزنطة والبابا والملك اللومباردى ، على أن يخضع البابا للإمبراطور وأن تعود رافنا للإكزارخ البيزنطى .

أما البابا جريجورى الثالث فكان ساخطاً على الإمبراطور البيزنطى والكنيسة الشرقية بسبب العنف الذى اضطهد به العاهل الأيسورى أتباع الأيقونية في الإمبراطورية . ولذا فقد أعد الإمبراطور أسطولا لغزو إيطاليا وإخضاعها للتاج وأيضاً للقبض على البابا وإيداعه السجن في القسطنطينية . ولكن عاصفة حطمت الأسطول ، وبذلك تحطمت آمال الأباطرة الأيسوريين في إرجاع إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية . وهناك وثيقتان

هامتان تعبران عن روح الكراهية التي باتت تحكم العلاقات بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية منذ ذلك التاريخ : فقد كتب البابا جريجورى الثانى إلى الإمبراطور البيزنطى يتحداه ويهدده ويتهمة بالكفر . وهو أيضاً يلوح له بالحقيقة المرة وهى أن الإمبراطور لن يجرؤ على الاقتراب من روما لأن غرب أوروبا كله سوف يهب للدفاع عنها ضد بيزنطة . أما جريجورى الثالث فقد عقد مجاساً فى روما فى عام ٧٣١ وأصدر فيه قراراً بالحرمان ضد محطى الأيقونات .

وفى عام ٧٣٨ تمرد دوق سپولتو ضد الملك ليتوبراند ولكنه هزم وفر يطلب الحماية عند البابا جريجورى الثالث . طلب الملك إلى البابا أن يسلم إليه الدوق المتمرد ولكن البابا رفض مطلبه ، فتام ليتوبراند بغزو الأراضى البابوية وهدد روما نفسها . أمام هذا أرسل جريجورى الثالث مفاتيح قبر القديس بطرس إلى شارل مارتل ملك الفرنجة وأنعم عليه بلقب باتريكيان ، طالباً منه أن يخف لنجدته من عدوه اللومباردى . وتفيض رسائل جريجورى الثالث بالسباب ضد اللومبارد ومليكهم . ولكن مارتل كان على علاقات طيبة مع ليتوبراند ، كما أن مشاكله الخاصة فى مملكته لم تسمح له بالمغامرة فى إيطاليا ، ولذا فقد رفض أن يقدم المساعدة للبابا . وتوفى كل من شارل مارتل عاهل الفرنجة والبابا جريجورى الثالث وليو الثالث الإمبراطور البيزنطى فى عام واحد هو سنة ٧٤١ . وقد أبرم البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢) صلحاً لمدة عشرين عاماً مع الملك ليتوبراند ، الذى أعاد للبابوية كل ما اقتطعه منها من أراض ، كما قدم هدايا ثمينة للبابا .

توفى ليتوبراند فى عام ٧٤٤ وخلفه على عرش اللومبارد ابن أخيه هلدبراند الذى خلع عن العرش فى نفس العام بسبب ضعفه ، وحل محله راكيس Ratchis دوق فريولى ملكاً على اللومبارد (٧٤٤ - ٧٤٩) . واحترم راكيس المعاهدة المبرمة مع البابوية وبيزنطة حتى عام ٧٤٩ حين هاجم بروغيا Perugia التابعة للإمبراطورية البيزنطية . ولكن البابا زكريا قام بزيارته وأقنعه بضرورة الحفاظ على السلام فى إيطاليا . ولقد اقتنع راكيس بوجهة نظر البابا وأوقف الحرب ضد بيزنطة ثم قرر أن يدخل الديزانية ، تاركاً الملك لأخيه استولف (٧٤٩ - ٧٥٦) . لم يكن استولف على شاكلة أخيه ، وقرر استئناف الحرب ضد بيزنطة والبابوية ، وقام بالهجوم على رافنا ،

ثم استولى على بنفنتو ، وبعدها زحف قبالة روما ليخضعها للتاج اللومباردى . وفى طريقه أرسل إلى البابا ستيقن الثالث (٧٥٢-٧٥٧) سفارة تطالبه بالاعتراف بسيادة ملك لومبارديا عليه . ولم تكن قرارات الحرمان ، ذاك السلاح البابوى العنيد ، ذات فعالية ضد استولف المتجبر العنيد ، فالتفت البابا إلى ملك الفرنجة بين القصير لينقذه من مخالب العدو . ورحل البابا عن روما إلى مملكة الفرنجة فى عام ٧٥٣ ليبسط قضيته أمام العاهل الفرنجى القوى . ولقد استقبله بين استقبالا حافلا واستمع إلى شكواه وطيب من خاطره . ثم عقد بين مجلسا فى سيرزى سير أويز Céirsy-sur-Oise فى إبريل لعام ٧٥٤ وفيه قرر أن يعيد للبابوية أملاك القديس بطرس المعروفة باسم « الباتريمونيوم » Patrimonium التى كان اللومبارد قد استولوا عليها . كذلك تعهد بين بحماية البابا وشعب روما وأبروشيتها . ولقد بقى البابا بضعة أشهر ضيفاً على ملك الفرنجة حيث ساهم فى حسم كثير من القضايا مثل طبيعة العلاقات بين الأحرار والعبيد فى المملكة ، ومسائل المعمودية والزيجة وسلطات رجال الإكليروس . ولعل أهم عمل قام به البابا أثناء إقامته فى مملكة الفرنجة هو أنه أعاد مسح وتتويج بين ملكا على الفرنجة فى كنيسة سانت دينيس ، كما أنعم عليه بلقب باتريكيان .

ولم يكن هنالك ما يبرر إعادة هذه المراسيم التى كان بونيفاس قد اضطلع بها من قبل . ولكن هذه لم تكن مجرد مراسيم عادية وإنما قصد بها تأكيد شرعية حكم بين لمملكة الفرنجة بواسطة الرأس الأكبر للكنيسة اللاتينية ذاته . وبالتالى إضفاء صفة الحكم الإلهى المقدس على حامل التاج . والدليل على ذلك أن البابا قام أيضا بتتويج برترادا Bertrada زوج بين وولديه كارل وكرلمان ، ثم مسحهما بالزيت المقدس . وقد طلب من النبلاء فى هذا الحفل الكبير أن يقسموا يميناً بالولاء لبين وألا يختاروا ملوكا إلا من هذا البيت . وعلى هذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية مقدسة فى هذه الأسرة الفرنجية الجديدة . ولئن كان بين قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة ، فإن مكاسب البابوية من ورائها كانت بغير حدود ، فإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من بجانب ملك الفرنجة ، أمكن للجالس على العرش البابوى فيما تلا من تاريخ أن يدعى لنفسه السلطان فى تعيين وخلع الملوك ، مستنداً فى هذا الادعاء على هذه السابفة مع بين القصير .

في أثناء ذلك انقضت الجيوش الفرنجية من فوق جبال الألب على إيطاليا ، واضطر استولف إلى التحصن في مدينة بافيا . ولا رأى أنه لم يكن ندًا لبين عرض عليه الصلح وقبل الملك الفرنجي ذلك . وكانت شروط الصلح تنص على أن يعيد استولف للبابا الأملاك التي كان قد استولى عليها منها ، وأن يؤدي يمين الولاء عن مملكته لبين . ثم عاد بين بعد توقيع هذا الصلح إلى غالة . ولكن استولف لم يكن ينوي احترام شروط الصلح ، فلم يعد أرضاً للبابا بل قام في عام ٧٥٥ - ٧٥٦ بمهاجمة روما ومحاصرتها .

أرسل البابا ستيغن رسالة إلى بين على لسان القديس بطرس ذاته يطلب منه فيها حماية كنيسة الله بحماية استقلال روما وحريتها . عبر بين جبال الألب مرة أخرى وأجبر استولف على رفع الحصار عن ريم والتقهقر إلى بافيا . وعقد صلح جديد بين الطرفين على أن يقدم استولف جزية ورهائن لملك الفرنجة وأن يعيد للبابوية أملاكها . وقد وصل سفراء الإمبراطور البيزنطي عند عقد هذا الصلح ليطالبوا بإعادة إكزارخية راثنا للإمبراطورية . ولكن بين صاح في سفراء بيزنطة بأنه لم يدخل الحرب لحساب أحد وإنما قد حمل السيف لخلاص روحه ولإرضاء القديس بطرس ، ومن ثم فإنه سيهب الأراضي التي وقعت في يده لهذا القديس . أما الإمبراطور البيزنطي - في رأى بين - فإنه لا يستحق أملاكاً في إيطاليا بسبب عجزه في الدفاع عن البابا من ناحية ولأنه مهرطق من الناحية الأخرى . وهكذا آلت إلى البابوية إكزارخية راثنا والبنتابولس ودوقية روما . ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمني لبابوية العصور الوسطى .

. أمضى بين بقية سني حكمه في الحروب ضد جيرانه عرب إسبانيا ودوق أقطانيا . وقد تمكن بين من أن ينتزع سبتمانيا وناربون من أيدي العرب ، وبذلك مد حدود مملكته إلى جبال البرانس . وفي عام ٧٦٠ قام ويشر Waifer دوق أقطانيا بالثورة ضد بين واستمر الصراع بينه وبين الملك الفرنجي أعواماً سبعة . وفي نهاية الأمر انتصر بين على .. نخصمه الإقطاني ، وقد قام بعض أتباع الدوق باغتياله ثم خضعوا لبين (٧٦٨) . وكانت هذه الولايات في جنوب غالة ضرورية لكن تكتمل خريطة المملكة (فرنسا) بحدودها الطبيعية .. وقد وزع بين أراضي أقطانيا بين عدد من ضباطه

ومنح كلا منهم لقب « كونت » .

كذلك ثار تاسيلو Tassilo دوق بشاريا ضد بين في عام ٧٦٣ ، كما تحرش السكسون بأراضي الحدود الشرقية ، ولكن بين نجح في إحباط هذه المحاولات جميعاً . وكان بين أقوى شخصية في غرب أوروبا في عصره ، ووفدت على بلاطه السفارات من مختلف أنحاء العالم : من بلاط بيزنطة لطلب يد ابنته لولي العهد البيزنطي ، ومن بلاط بغداد لضمان تأييد بين للخلافة العباسية في مشروعاتها ضد عبد الرحمن الأموي في الأندلس . وقد توفي بين في ٢٤ سبتمبر عام ٧٦٨ بعد أن قسم المملكة بين ولديه كرلمان على النصف الجنوبي ، وكارل على نصفها الشمالي .

لم يكن الأخوان كرلمان وكارل على وفاق ، ولولا جهود الملكة الأم برتا لقامت الحرب بين ابنيها بعد وفاة أبيهما مباشرة . وقد انتهز هنولد والد ويفر الدوق : الأقطاني الفرصة وخرج من الدير الذي كان قد اختبأ فيه ليقود ثورة ضد كارل . واستنجد كارل بأخيه كرلمان ولكن الأخير رفض مساعدته . وبرغم هذا فقد انتصر كارل على خصمه الأقطاني ، وأودع هنولد أحد الأديرة مرة أخرى ثم وزع أراضي أقطانيا على كونتات من الشمال . بعد هذا سعى كارل إلى تحصين نفسه ضد كرلمان فتزوج من ديزيديراتا Desiderata ابنة دزيريوس ملك اللومبارد وشقيقة جربرجا زوج كرلمان . كذلك عقد كارل حلفاً مع تاسيلو دوق بشاريا ليستخدمه ضد كرلمان .

وكان البابا قد عارض زواج كارل من ديزيديراتا لأن أي تقارب بين البلاط الفرنجي والبلاط اللومباردي كان خليفاً بأن يهدد نفوذ البابوية في إيطاليا . على أن مخاوف البابا سرعان ما زالت ذلك لأن كارل طرد ديزيديراتا إلى بلاط أبيها لأنها كانت عاقراً على حد قول كارل ذاته . وأراد كرلمان أن ينتقم لشقيقة زوجه من الإهانة التي ألحقها بها كارل ولكنه توفي فجأة في عام ٧٧١ . فرت جربرجا وطفلها إلى بلاط أبيها ملك اللومبارد ، بينما قصد نبلاء وأساقفة مملكة كرلمان إلى بلاط كارل واعترفوا به ملكاً عليهم ، وهكذا دانت كل المملكة الفرنجية لكارل وحده .

في خلال ذلك الوقت كان دزيريوس (٧٥٦ - ٧٧٤) . قد رفع مظامة ابنته مطلقة كارل إلى البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥) طالباً منه أن يعترف بحفيده ابن كرلمان ملكاً على الفرنجة خلفاً لأبيه المتوفى . ولكن البابا رفض وراح يطالب دزيريوس .

بأن يرد للبابوية أراضي فاينزا وايمولا وفرازا وانكونا واوزيمو ، بحجة أن هذه الأراضي جميعاً كانت ضمن الأراضي التي كان الملك بين قد تعهد بردها للبابوية .

ظن دزديرىوس أن الملك كارل منصرف كاية لمشاكل مملكته وقرر تقليم أظافر البابا هادريان ، فقام بغزو البنتابولس وأعد العدة لحصار روما . استنجد البابا بكارل ، ولما كان الملك الفرنجى فى حربه ضد السكسون فقد أرسل أوامره إلى ديزديرىوس أن يسلم الأراضي التابعة للقديس بطرس إلى البابوية ، ولما رفض دزديرىوس الاستجابة لهذه الأوامر قام كارل بغزولومبارديا فى عام ٧٧٣ وحاصر الملك اللومباردى فى مدينة بافيا ، ثم أمضى كارل عيد الفصح لعام ٧٧٤ فى مدينة روما . وبعد قليل استسلم دزديرىوس فأرسل إلى فرنسا حيث أودع أحد الأديرة . أما ابنه أدلخس Adclchis فقد هرب إلى القسطنطينية حيث توّ بعد بضع سنوات .

هكذا انتهت مملكة اللومبارد ، وأعلن كارل نفسه ملكاً عليها وتلقب بلقب .

Carolus, gratia Dei rex Francorum et Longobardorum atque patricius Romanorum

وفى عام ٧٨٠ عين كارل عشرين كونتا فرنجياً لحكم المملكة تحت إمرة ابنه بين الذى توجه ملكاً على اللومبارد . وقد تسلم البابا اكزارخية راثنا والبنتابولس ودوقية روما وبعض المدن فى توسكانيا .

وفى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى ظهرت الوثيقة الشهيرة باسم « هبة قنستنتين » Donatio Constantini . ويحتمل أن هذه الوثيقة كانت موجودة فى غرب أوربا قبل ذلك ولكنها استخدمت فى الربع الأخير من القرن الثامن بصفة قاطعة كبرهان لإقناع كارل ملك الفرنجة بأن ما يسديه للبابوية من خدمات فى إيطاليا بإزجاعه « الأملاك البطرسية » إليها إنما هو تجديد لما فعله قنستنتين العظيم من قبل مع البابا سلفستر . وهذه الوثيقة مزيفة تماماً ، ولا نعرف كاتبها ولكن أغلب الظن أنها كتبت فى روما بيد مسئول فى البلاط البابوى أو ربما بيد البابا ذاته . ويرجع الفضل فى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوربا بل وفى بيزنطة على أنها أصيلة ، إلى العالم لورنتيوس ثاللا فى القرن الخامس عشر . وهذه الوثيقة الخطيرة تروى أن قنستنتين كان مصاباً بمرض عضال هو الجذام وأن كهنة الأوثان قد جمعوا له

عددًا كبيراً من الأطفال الرضع لينحروهم ويغتسل قنسطنطين بدمهم لكي يبرأ ، وأمر الإمبراطور بإعداد هذه « المذبحة » وراحت أمهات الأطفال الأبرياء يولولن على صغارهن الذين أعدوا للذبح . على أن قنسطنطين أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء وأعادهم إلى أمهاتهم . وفي هذه الليلة زاره في المنام القديسان بطرس وبولس وأرشدها إلى نجباً البابا سلفستر وبشراه بأن شفاه من هذا المرض ورجسه سوف يتم على يد هذا البابا . وقد عمد البابا الإمبراطور وطهره من رجس هذا المرض الخبيث بماء المعمودية . ولما أن برأ قنسطنطين من دائه أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له فقرر الانسحاب من مدينة روما وإقامة عاصمته في القسطنطينية ، لترك مدينة روما تحت سلطان البابا فقط . كما منح قنسطنطين للبابا سلفستر حكم إيطاليا والغرب كله .

وأنعم قنسطنطين على البابا ورجال الإكليروس كذلك بعدد من الامتيازات التي كانت وقفاً على شخص الإمبراطور والسيناتو وبذلك صار شرف أسقفية روما نداءً لشرف الإمبراطورية ذاتها : من ذلك أن يقيم البابا في قصر اللاتيران وأن يرتدى التاج والعباءة الأرجوانية ويحمل الصولجان ويقوم على خدمته هيئة من المستشارين في البلاط البابوي . كذلك صار من حق رجال الإكليروس أن يمتطوا الجياد البيضاء ويتمتعوا بمحاضات السيناتوريين والباتريكيان^(٦) . وهذه « المزيفة » هي واحدة من اللبئات الهامة إلى جانب النظرية البطرسية التي قامت عليها ادعاءات البابوية في السلطانين الروحي والزماني على مدار العصور الوسطى .

وإذا كان كارل في قضائه على مملكة اللومبارد قد أسدى خدمة جليلة للبابوية

(٦) أنظر النص الكامل لهذه الوثيقة المزيفة والمعنونة Edictum Constantini في حاشية الكتاب :

“Et sicut imperialis militia ornatur ita et clerum Sanctae Romanae ecclesiae ornari decernimus.. Unde ut pontificalis apex non vilescat sed magis quam terreni imperii dignitas, et gloria et potentia coretur; ecce tam palatium nostrum quanque Romanam urbem et omnes Italiae et occidentaliu regionu provincias, loca et civitates, praefato beatissimo papae Sylvestro universali papae contradimus atque relinquimus .. Ubi enim principatus sacerdotum et Christianae religionis caput ab imperatore coelesti constitutum est, iustum non est ut illic imperator terrenus habeat potestatem.”

فإنه بحروبه ضد السكسون قد كسر شوكة الوثنية ورفع لواء الكاثوليكية عالياً في هذه
المجاهل الضاربة في التبريز . ولقد استمرت حروبه ضد السكسون من عام ٧٧٢ حتى عام
[٨٠٤ . وعلى عهد كارل كان الجرمان يمثلون قسمين متميزين : فكانت الشعوب المقيمة
في المناطق غربي الراين تدين بالمسيحية وقد أخذت تتعرف على أساليب الحضارة ،
أما القبائل الهائمة شرقي الراين فقد كانت على الوثنية والتبرير . وكان من الأهمية بمكان
لكيان الجرمان أن يوحد هذان القسمان ، وهذا ما قام به كارل ، ومن ثم فقد كتب
للألمانيا سجلها الماجد في التاريخ . قام كارل بأول معاركه ضد السكسون في عام ٧٧٢
وأخضع قبائل الانجربان Engrians واستولى على مركزهم الحصين في ارزبورج حيث
شيد كنيسة ، ثم أقسم له زعمائها يمين الولاء وقدموا له الرهائن . وبعد أن أقام كارل
حاميات لحراسة ارزبورج عاد إلى الغرب .

على أن السكسون قد انتهزوا فرصة انشغال كارل في حروبه ضد اللومبارد فقاموا
بالثورة واستولوا على ارزبورج وطردوا منها الحماية الفرنجية وضربوا القرى والحصون
حتى حدود الراين ونهبوا دير فرتزلار كما حطموا كل الكنائس التي صادفوها في طريقهم
واضطر كارل إلى قتال السكسون من جديد فهجم عليهم في عام ٧٧٥ وأوقع الهزيمة
بالوستفاليين والايستفاليين والانجربان ، وأدى زعماء هذه المناطق يمين الولاء من جديد
للعاهل الفرنجي . وبرغم هذا نجد السكسون يقومون بالثورة مرة أخرى في عام ٧٧٦
حينما كان كارل يعمل على إخضاع دوق فريولى وبنقنتو في إيطاليا ؛ ولذا فقد سارع
كارل بالهجوم على الثوار وأخذهم على غرة واضطروهم إلى التسليم له واعتناق المسيحية .
على أن زعيما وستفاليا هو فِدوكند Widukind رفض أن يستسلم لكارل وفر إلى الشمال .
أراد كارل أن يدخل الرهبة في قلوب السكسون وأن يظهر لهم قوته فعقد مجلساً
(دياط Diet) في بلدة بادربورن في ربيع عام ٧٧٧ حضره نبلاء الفرنجة والسكسون ،
حيث أعلن الزعماء السكسونيون الدين كانوا قد اعتنقوا المسيحية . ولاءهم لكارل وللكنيسة .
وبينما كان كارل في بادربورن قصد إليه سفراء من قبل بعض الزعماء العرب في أسبانيا
يعرضون عليه ولاءهم مقابل أن يساعدهم ضد عبد الرحمن الأموي . وكان هذا العرض من
العوامل التي شجعت كارل على القيام بحربه الإسبانية ضد العرب في عام ٧٧٨ . قسم
كارل بجيشه إلى قسمين التقيا أمام سراجوسا ، ومع أنه لم ينجح في الاستيلاء على هذه

المدينة إلا أن ظهوره بكتائبه في إسبانيا قد قوى من شوكة حلفائه شيوخ برشلونة وجيرونة وهويسكة ، الذين أدوا له يمين الولاء والطاعة . وعند عبوره ورجاله بجال البرانس عائداً إلى غالة هاجمت قبائل الباسك Basques مؤخرة جيشه ، مع أن هذه القبائل كانت تتظاهر بالصدقة للملك الفرنجة . وقد وقع كثير من فرسان كارل ضحايا لغدر الباسك ومن بينهم كونت مرموق من بريتانى ذاع صيته في الشجاعة هو رولاند . وحول رولاند هذا ذاعت ملاحم أدبية رائعة تمجد بطولته وحبه لسيده « إمبراطور الله » في حربه ضد أعداء الفرنجة . وقد كتبت « أنشودة رولاند » Chanson de Roland هذه في شعر رائع باتت تتغنى به بلدان غرب أوربا ، وكانت ملحمة رولاند هذه عاملاً هاماً من عوامل « الاستنفار » Excitatorium في الحرب المقدسة التي تبتها بيوتات دير كلوني والبابوية في حركة الاسترداد الإسبانية ثم في الحرب الصليبية^(٧) .

ثارت سكسونيا بينما كان كارل يحارب في إسبانيا ، وألهب الزعيم فيدوكند مشاعر بني جلدته ضد الفرنجة وكنائسهم . واضطر كارل إلى قيادة حملة أخرى ضد سكسونيا ، ولكن فيدوكند أفلت من يديه . قسم كارل أراضي سكسونيا إلى أقسام أشبه ما تكون بنظام الأبرشيات الكنسية في مملكة الفرنجة ، ثم عين عليها قسيسين ورهباناً وأوصاهم بالاختلاط بالشعب لتبصيرهم بروح الدين المسيحى ، الذى فرضه كارل على شعوب

La Chanson de Roland :

(٧)

E l France dulce, cun hoi remendras guaste

De bons vassals, cunfundue e defaite !

Li emperere en avrat grant damage."

A icest mot sur sun cheval se pasmet. . .

Dist Oliver : "Or vos oi jo parler.

Jo ne vos vei, veied vus Damedeu !

Ferut vos ai, car le me pardunez !"

Rollant repunt : "Jo n'ai nient de mel.

Jol vos parduins ici e devant Deu."

A icel mot l'un a l'autre ad clinet.

Par tel amur as les vus deseured.

سكسونيا هذه المرة بجحد السيف . وحرصاً على أعناقهم توافد الناس في جماعات غفيرة يلقون بأنفسهم في مياه الأنهار وقد غاص القسيسون الفرنجة في المياه حتى ركبهم ليقوموا بطقوس العماد لهذه الأعداد الضخمة من الداخلين إلى الكاثوليكية .

ثم أصدر كارل في عام ٧٨٠ مرسوماً يحدد السياسة التي استنها في حكم هذه الأراضي المفتوحة . وقد أعطى القانون صلاحيات واسعة للكنيسة وأنعم عليها بحصانات وضمانات مختلفة ، لأنها كانت ساعده الأيمن في نشر النفوذ الفرنجي بين هذه الشعوب المغلوبة . وذلك بالأسلوب الديني . ووفق هذا القانون تمتعت الكنيسة بحق حماية من يلجأ إليها من المجرمين ومنحه « اللجوء » . ونص القانون على معاقبة من يلحق ضرراً بالكنيسة أو بنشاطها بعقوبة الموت ، واندرج تحت طائلة هذه العقوبة أيضاً تقديم الأضحيات الآدمية وقتل القسيسين ورفض العماد وحرق جثث الموتى وإغفال مراسيم الصوم . كذلك تقرر أن يكون الأحد يوماً للرب ، وألزمت الرعية بدفع العشور للكنيسة .

مرة أخرى ظهر فيدوكند في عام ٧٨٢ وتنكر السكسون للقسم الذي كانوا قد أدوه لكارل وعملوا على طرد الفرنجة من بلادهم . أرسل كارل جيشاً لقمع هذه الثورة ولكن بعض الزعماء السكسون غرروا بقيادة هذا الجيش وأوقعوه في كمين عند جبال سونتل على مقربة من أونزابروك حيث قضى عليه تماماً . وغضب كارل وقاد جيشاً قوياً

* كانت مراسيم العماد تجرى على المنوال الساذج الذي نسقه في الآتي :

Q. Forsachistu diobolae ?

A. Ec Forsacho diobdae.

Q. End allum diobologeldae ?

A. End ec Forsacho allum diobolgelde.

Q. Gelobistu in got alamchtigan Fadaer ?

A. Ec gelobo ..

Q. Gelobistu in Crist godes suno ?

A. Ec gelobo ..

Q. Gelobistu in halogan gast ?

A. Ec gelobo ..

الإمبراطورية الرومانية

وعسكر برجالهم عند فردان وأرسل ينذر الزعماء السكسون ويطالبهم بتسليم كل من تسببوا في إبادة جيشه . وقدم له الزعماء أربعة آلاف وخمسمائة من الرجال ، وأمر كارل بإعدامهم جميعاً . ولقد جن جنون السكسون بسبب هذه المذبحة ودار القتال عنيفاً بينهم وبين العدو الفرنجي . هلك الآلاف من شعوب السكسون في هذه الحرب القاسية ووقع آلاف آخرون في الأسر ، وقد قام كارل بتوطيتهم في غالة . ولا دارت الدائرة على الزعيم قدوكند ورأى أنه يحارب حرباً لا محالة خاسرة سلم نفسه لكارل طالباً العفو . وقد أنزله الملك الفرنجي في آتيني Attigny في غالة حيث قبل المعمودية . واختفى قدوكند من صفحات التاريخ ليظل في فترة متأخرة بطلاً أسطورياً . وكانت آخر ثورات سكسونيا في عام ٨٠٤ عندما تمردت على كارل جماعة نورد البنجيان Nordalbingians وهي إحدى القبائل القاطنة شمالاً همبورج . وقد قمع كارل هذه الثورة مثلما قمع سابقتها ، ثم رحل عشرة آلاف من بنينا بعد أن صادر أملاكهم ووزعها على أفصاله من كونتات ورجال دين ورؤساء أديرة . وهكذا تمت السيطرة على سكسونيا بعد جهد شاق طويل . ودخلت المسيحية هذه البلاد بحد السيف وهي وسيلة عنيفة ولا أخلاقية ، ولكن الغريب في الأمر أنه بعد مضي قرن ونصف من الزمان كانت سكسونيا قد تشربت تماماً بتعاليم المسيحية وغدا شعبها أكثر شعوب الجرمان قاطبة تمسكاً بالمسيحية وغيره عليها . ولقد ظهرت في منتصف القرن التاسع ملحمة شعبية دينية بعنوان « هلياند » Heliand تفصح معانيها عن تفهم واع للمبادئ المسيحية عند السكسون وتعبر عن « غيرة مسيحية » زائدة لدى دلتا الشعب .

وقد أقام كارل عدة أسقفيات في سكسونيا : في كل من مدن Minden وبادر بورن Paderborn وفردان Verden وبرمن Bremen واوزنابروك Osnabrueck وهالبرشتات Halberstadt ، ومونستر Münster وهامبورج . وقد قدر لهذه المراكز أن تزدهر وتثري في النواحي الحضارية المختلفة وانتشرت من حولها المدن والكنائس فكانت عاملاً من عوامل الإنعاش الاقتصادي للمجتمع الوسيط .

أما عن دوقية بفاريا فكانت أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة بين نهر Inn ونهر ليخ Lech . وكانت تحكمها أسرة نبيلة بالتوارث : وكان لها تنظيمها الكنسي المستقل الذي كان على رأسه رئيس أساقفة سالزبورج ، وكانت لها قوانينها الخاصة وموظفوها المستقلون . حقيقة أن دوق بفاريا كان يدين بالولاء للملك الفرنجة ، ولكن هذا الولاء كان اسمياً لأنه كان مستقلاً بمجالسه وشئون دوقيته السياسية والكنسية . ولقد حاول الدوق تاسيلو Tassilo أكثر من مرة أن ينفذ عن كاهله هذه التبعية الاسمية للملك الفرنجة ولكن محاولاته باءت بالفشل . وكانت زوج تاسيلو ابنة للملك اللومباردي دزيرديوس ، ولذا فقد كان من طبيعة الأمور أن تخرض زوجها الدوق ضد عدو والدها كارل الفرنجي . وفي عام ٧٨٢ استدعاه كارل إلى مدينة ورمز حيث جدد أداء يمين الولاء والطاعة له أمام المجلس . وبعد ذلك بخمسة أعوام عندما استشعر كارل أن تاسيلو يخطط للقيام بالثورة بادر الملك الفرنجي بإرسال جيشه لإرهابه . واضطر تاسيلو إلى أن يسلم دوقيته لكارل على أن يتلقاها منه إقطاعاً فيصبح وفق التقاليد الإقطاعية « رجل الملك » . وبرغم هذا فإنه بعد أقل من عام وجد إليه كارل تهمة عدم الولاء له وحكم عليه بالإعدام . وبعد توصلات كثيرة عدل كارل عن حكمه على الدوق ، ولكنه أجبره وجميع أفراد أسرته على دخول أحد الأديرة . وبذلك ضمت بفاريا إلى مملكة الفرنجة ، فقسمها كارل إلى كونتيات أقطعها لأتباعه .

أما الآفار ، وهم من أصل تركي ، فكانوا قد استقروا في أواسط الدانوب وأسسوا مملكة كبرى امتدت على طول الأراضي التي تكون في عصرنا الحديث الجزء الشرقي للمجر . وأخضع الآفار قبائل كثيرة من السلاف لسيطرتهم ، وكانوا يرهبون جيرانهم بإغاراتهم المتكررة التي اتسمت بالسرعة والعنف . وفي عام ٧٨٨ أغاروا على بفاريا فقرر كارل أن يحاربهم ، فقاد جيشاً فرنجياً يؤازره جيش آخر من اللومبارد بقيادة ابنه بين . غير أن ثورة مفاجئة في سكسونيا اضطرت كارل إلى وقف القتال ، ثم استأنف

حربه ضد الآفار بعد أن قمع ثورة السكسون . على أن هذه الحرب لم تحسم نهائياً إلا في عام ٧٩٦ عندما استولى بين على قصر خان الآفار وعلى كنوزه . وقد أجبر الخان (أو الخاقان) على الخضوع لكارل . وبعد هذا الإذلال لم تعد لمملكة الآفار قوتها السابقة وباتت عاجزة عن الدفاع عن كيائها فوقعت نهياً للعناصر السلافية والماغيارية . وقد احتل السلاف المنطقة الواقعة بين نهري إلب ونيمن Niemen ، تلك المنطقة التي كانت تحت قبضة القوط والبرجنديين واللومبارد قبل هجراتهم جنوباً على أراضي الإمبراطورية الرومانية . ولعل أهم ما يستلفت النظر في تاريخ الجرمان في العصور الوسطى هو أنه بعد أن كونوا لهم ممالك قوية راحوا يعملون على إعادة فتح هذه الأراضي من جديد ، واتجهت حركتهم التوسعية الآن على الجبهة الشرقية بعد أن دانت لهم الأراضي الإمبراطورية كلها في الغرب . ومن هنا سعى الجرمان نحو فتح الأراضي التي استقر فيها السلاف بها، فاستعمارها وجرمنة هذه العناصر أيضاً . وكان كارل أول من أقدم على هذه الخطوة ، فقاد حملة في عام ٧٨٩ غربى نهر الأودر حيث دانت له جماعات الأبوتراب Abotrite والفلتزييس Wiltzes . وقد تمرد الفلتزييس ضد كارل في عام ٨١٢ ولكنه أخمد ثورتهم دون عناء كبير .

كذلك كانت بوهيميا تخضع لعنصر سلافي من التشيك ، فأرسل كارل حملة ضدهم في عام ٨٠٥ وأجبرهم على دفع جزية له وعلى الاعتراف بسلطانه عليهم . وإلى جانب كل هذا نجح كارل في بناء أسطول بحري استول به على جزر سردينيا وكورسيكا وجزر البليار . وفي عام ٧٩٥ نظم كارل الأراضي التي نجح في غزوها في أسبانيا إلى وحدة عرفت بالمارك أقام عليها حاكماً بلقب مارك جراف أى الكونت الحامى للحدود . ومن هذا المارك بدأت عمليات التوسع جنوباً حتى وصلت حدود شلمان (كارل) إلى نهر الأبرو في عام ٨١٢ .

من هذا العرض الموجز لحروب شلمان يتضح أن سنى حكمه جميعاً كانت مليئة بالحروب في جبهات متعددة . وقد كان النجاح حليف شارل العظيم (كارل - شلمان)

في كل الحروب التي قد خاضها واتسعت حدود مملكته إلى حد أنها أعادت للأذهان ذكريات الإمبراطورية الرومانية ذاتها . ومن هذا الشعور تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية في الغرب التي كانت قد سقطت في عام ٤٧٦ على يد أودواكر القوطي .

والحق أن فكرة الإمبراطورية كانت قد طمست في أذهان سكان الولايات بعد الغزوات المتبربرة ، التي قطعت هذه الولايات عن الحكومة المركزية والتي أقام الزعماء البرابرة فيها حكومات أو ملكيات مستقلة تماماً عن التاج الإمبراطوري في روما الجديدة (القسطنطينية) . ولكن كنيسة روما القديمة وعلى رأسها البابا كانت تقف شامخة تدلل بكيانها وهيبتها على فكرة الوحدة الضائعة ، ولقد أيدها في هذا العقيدة الرسولية الواحدة والطقوس المتماثلة والتنظيم الكنسي الواحد . كذلك كان لأسقف روما اليد الطولى في تنصير معظم شعوب الغرب المتبربر ، فصار للبابوية هالة الحاكم الروحي الأول على كل كنائس الغرب ونظرت شعوب غرب أوربا إليه على أنه وكنيسته يمثلان الرابطة التي تشد جميع المسيحيين تحت لواء كاثوليكي واحد ، خاصة بعد أن استؤصبت شأفة الأريوسية من بين الكنائس الجرمانية المختلفة . وعلى هذا صارت كنيسة روما بمثابة الإمبراطورية الروحية الشاملة ، ولكن البابوات لم ينسوا أن الإمبراطورية البيزنطية الشرعية كانت قائمة وفي ثقل على ضفاف البسفور في بيزنطة ، تلك الإمبراطورية التي كان لا بد لها أن تدوم ما دامت هنالك حياة على وجه المسكونة . ولذا كان لازماً على البابا أن ينظر إلى الجالس على عرش قنسطنطين على أنه الرأس الأول وكان خليقاً به أن يخضع له . ولكن البابوات قد ساءهم موقف أباطرة بيزنطة وكنيستهم في أيا صوفيا : فلقد أهين بابوات كثيرون ونكل بهم ونفوا عن كرسي القديس بطرس بسبب استبداد الجالس على عرش قنسطنطين ، كما وأن الهرطقات التي لم تنته في الكنيسة الشرقية كانت مبعث آلام مبرحة لخليفة القديس بطرس . كذلك لم تجد صرخات البايوية آذاناً صاغية في القسطنطينية عندما كان اللومبارد والعرب يهددون مدينة روما ذاتها .

والحق أن الإمبراطور في بيزنطة كان دائماً منصرفاً إلى التهديدات التي لم تنقطع

على حدود إمبراطوريته الشرقية ، ومن ثم كان عاجزاً العجز كله عن أن يمد يد العون للبابا ولمدينة روما . كذلك اعتاد الإمبراطور منذ عصر قنستنتين العظيم أن يضطلع بمهمة حامى الكنيسة والحكم الأول فى مسائل الهرطقة ، وكان أسقف بيزنطة يخضع لمشورته إن لم يكن لإمرته ، بل كان من حق البازيليوس Basileus أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش أيا صوفيا من يشاء أيضاً . وكان طبيعياً أن تستنكر البابوية هذا التدخل العلمانى البغيض فى شئون كان يرى البابا دوماً أنها من صميم اختصاصاته كحامل مفاتيح القديس بطرس وكصاحب الحق الأوحد فى الحل والربط على الأرض وكذلك فى السماء . ولا احتدم الجدل حول الأيقونية واللاأيقونية فى بيزنطة وقرر الأباطرة الأيسوريون تحطيم أيقونات القديس بطرس ذاته فى مدينة روما ، فزع البابا وأيقن أن الجالس على عرش قنستنتين قد تردى فى الكفر ، فكتب إليه صراحة بحقيقة مشاعره وأنذره بأنه إن هو اقترب من مدينة روما فإن شعوب الغرب قاطبة ستحمل سيوفها للدفاع عن السيد البابا وعن أيقونات أمير الرسل .

ولعل أهم حقيقة يجب مراعاتها فى هذا الصدد هى أنه فى القرون الأولى للعصر المسيحى كانت مراكز الفكر والتعمق اللاهوتى جميعاً تقع فى النصف الشرقى للإمبراطورية على حين أن تلك المراكز فى القرن الثامن قد توارت واختفت تماماً ، وهكذا بعد أن كان الغذاء الروحى يفد من الشرق لم يعد هنالك شىء يذكر يأتى من هنالك ، اللهم إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف على الأب والابن والروح القدس . ومحاولات لتدنيس الصور المقدسة . للقديسين والقديسات . وكان الغرب قد أنجب عمداً باتوا يغذونه غذاء روحياً ، وصار بمقدور كنيسة روما أن تفاخر بأمبروز وأغسطينوس وجريجورى العظيم وكولومبا وبونيفاس وكلهم من القديسين .

كذلك قامت فى غرب أوربا مراكز ثقافية هائلة باتت مناراً للفكر واللاهوت والعلوم المختلفة ، ولم يعد هنالك مبرر للنظر إلى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، تلك المدائن التى ضاعت من الإمبراطورية تماماً . وراح الرومان ينظرون إلى مدارس باريس وتور

وريمزوكنتربرى ويورك وميتروكولون ليتلتوا منها المفاهيم الكاثوليكية . من هنا راح البابا يفكر جاداً في التمرد على الإمبراطور « الشرقى » ويبحث عن بديل يشد أزره في الغرب . وقد وجدت البابوية ضالتها في الجالس على عرش ملكة الفرنجة ، ذاك الحليف المخلص الذى نجاها من مخالب اللومبارد والذى نشر الكاثوليكية بحمد السيف بين الجرمان الوثنيين والعناصر السلافية .

كذلك كان في روما حزب قوى راح يفكر في إعادة المجد القديم إلى روما الخالدة رأس العالم . على أن أعضاء الحزب كانوا ساخطين على البابا بسبب استبداده وتسلطه على شعب المدينة ، ولذلك فلنهم في عام ٧٩٨ قاموا بالثورة ضد البابا ليو الثالث فأمسكوا به وضربوه ثم طردوه عن المدينة متهمين إياه بالغش .

هرب البابا إلى حليفه شلمان وقابله في مدينة بادربورن وتوسل إليه أن يعيده إلى عرشه وأن يبسط عليه الحماية . ولم يتوان شلمان في تقديم العون للبابا . فأرسله معزراً مكرمًا في حماية ضباطه إلى مدينة روما ، وبعد قليل وصل شلمان ذاته إلى المدينة ليحسم الموقف . وفي روما عقد شلمان محكمته وظهر ليو وخصومه أمام قضاة العاهل الفرنجى وأقسم اليابا أنه برىء من الجرائم والانتهاكات الموجهة إليه من قبل أعدائه الخاقدين المتآمرين . وقضى شلمان ببراءة ليو الثالث وأعادته إلى عرش البابوية^(٨) . وحلت ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠ م وامتلات كنيسة القديس بطرس بالمصلين وبضباط شلمان المدججين بسيوفهم . وبينما كان شلمان يركع للصلاة أبرز البابا ليو الثالث تاجاً ووضع على رأس

M.G.H.SS., Annales Regni Francorum :

(٨)

"Post septem vero dies Rex, concione vocata, cur Romam venisset omnibus patefecit, et exinde cotidie ad quae venerat facienda operam dedit. Inter quae vel maximum, vel difficillimum erat, quod primum inchoatum est, de discutiendis quae Pontifici objecta sunt criminibus. Qui tamen postquam nullus probator criminum esse voluit, coram omni populo in basilica beati Petri apostoli. evangelium portans ambonem conscendit, invocatoque sanctae Trinitatis nomine, jurejurandose ab objectis criminibus purgavit."

العاهل الفرنجى ثم انحنى له على عادة القدامى ، وهنا صاح جميع الحاضرين :
 “Carolo augusto, a Deo coronato, magno et pacifico imperatori Romanorum,
 vita et victoria.”

وهكذا أصبح شارلمان إمبراطوراً رومانياً^(٩) . ويحدثنا إينهارد Einhard صاحب كتاب Vita Caroli Magni أن سيده قد أعلن فيما بعد أنه لم يكن على علم بنوايا البابا في أمر تتويجه إمبراطوراً وإنما هو قد أخذ في هذا الأمر على غرة ، بل يضيف نفس المؤرخ قائلاً بأنه « لو كان شارلمان قد علم مسبقاً بما كان سوف يتم لما كان قد ذهب للصلاة برغم ما لهذا العيد وللصلاة فيه من مقام » في نفس شارلمان^(١٠) . وهذه الرواية محيرة للغاية : فنحن من ناحية لا ندري كيف صاحت الآلاف من المصلين باللاتينية في وقت واحد ، هاتفة بحياة شارلمان أغسطسا لله في آن واحد وبعبارة واحدة توحى بأنهم كانوا قد دربوا على ترديدها قبل دخول الكنيسة . كما وأن هنالك شواهد على أنه في نفس الوقت الذي اندفعت فيه تلك المتافات من الحناجر كان بعض رجال الحرس الشرلمانى الكبير يعملون سيوفهم في رقاب بعض الساخطين من الرومان خارج بوابات كنيسة القديس بطرس . ومن ناحية أخرى لا نرى مبرراً يدعو إينهارد إلى اختراع هذه الرواية ، فلا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة . وتزداد حيرتنا عندما نعلم أن شارلمان كان راغباً الرغبة كلها في أن يزدان رأسه بتاج أغسطس ، وبأنه كان يفكر بالفعل في حمل التاج واللقب الرومانيين ، فقبل هذه الحادثة الخطيرة بوقت وجيز كان شارلمان قد أرسل سفراءه إلى بلاط القسطنطينية ليطلب يد الإمبراطورة الأرملة ايريني الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر قنسطنطين . وليس بمستبعد أنه قد طرح على ايريني مسألة الاعتراف به إمبراطوراً على الغرب إلى جانب الإمبراطور الشرقى مثلما كانت الحال قديماً حينما

(٩) Ibid.: “Ipsa die sacratissima natalis Domini cum Rex ad missam ante confes-
 sionem beati Petri apostoli ab oratione surget, Leo papa coronam capiti eius imposuit, et a
 cuncto Romanorum populo adclamatum est : “Karlo Augusto a Deo coronato, magno et paci-
 ficio Imperatori Romanorum, vita et victoria.” Et post laudes ab Apostolico more antiquorum
 principum adoratum est, atque ablato patricii nomine, Imperator et Augustus appellatus est.”

(١٠) Einhard, Vite Karoli Magni, in S.R.G., in usum scholarum.

كان للإمبراطورية سيدان واحد في روما القديمة وآخر في روما الجديدة .
 على أننا فوق كل هذا نجد فيما كتبه الإنجليزى المعاصر ألكوين Alcuin وهو من
 رجال بلاط شرلمان المقربين ما يلتقى بعض الضوء على هذا الموقف ، فهو يقول مخاطباً
 سيده شرلمان على أنه « سيدنا داود » : « عزيزنا الغالى داود — إن هذا العالم تحكمه
 قوى ثلاث : البابوية خليفة القديس بطرس التى أنقذتها أنت بنعمك وحسن صنيعك .
 والإمبراطورية فى روما الثانية التى صارت أمورها تدعو إلى الخزي والعار.. ثم هنالك
 القوة الثالثة وهى ملكك أنت الذى عينك له المسيح لحماية شعبه ، وهى أفضل هذه القوى
 جميعاً لأنه بك أنت فقط تتم الحماية للكنيسة ، وبك أنت تنعم الرعية جميعاً بالعدالة
 : فأنت الرحيم والمنصف للمظلوم والمعزى للفقير » (١١) .

هذا عن موقف شرلمان : أما عن الأسباب التى دفعت بالبابا ليو الثالث إلى
 الإقدام على هذه الخطوة الخطيرة ألا هى نقل التاج إلى رأس زعيم فرنجى متبرير من
 على رأس صاحب التاج الشرعى خليفة قنسطنطين العظيم فهى أسباب كثيرة . واهل أول
 هذه الأسباب أنه لم يعد سراً أن حامل التاج الشرعى كان طفلاً عاجزاً سملت عيناه على
 يد أمه ايرينى ذاتها التى جلست على العرش تحكم بمفردها ، وهذه سابقة خطيرة
 لأن الغرب لم يألف أن يرى امرأة فى عبادة أرجوانية وتحمل لقب بازيلئوس

(١١) P.L., Vol. C, cols. 301-3 : "Gratias agimus celentissimae bonitati vestrae, dulcissime David... Nam tres personae in mundo altissimae hucusque fuerunt : (id est), apostolica sublimitas, quae beati Petri principis apostolorum sedem vicario munere regere solet. Quid vero in eo actum sit, qui rector praefatae sedis fuerat, mihi veneranda banitas vestra innotescere curavit. Alia est imperialis dignitas, et Secundae Romae saecularis potentia. Quam impie gubernator imperii illius depositus sit, non ad alienis, sed a propriis et concivibus, ubique fama narrante, crebrescit. Tertia est regalis dignitas, in qua vos Domini nostri Jesu Christi dispensatio rectorem populi Christiani disposuit : caeteris praefatis dignitatibus potentia excellentiorem, sapientia altiori, regni dignitate sublimiorem. Ecce in te tota salus Ecclesiarum Christi inclinata recumbit. Tu vindex scelerum, tu rector errantium, tu consolator incoerentium, tu exaltatio bonorum."

لابازيليسا^(١٢). ولم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تقر إيريني على جريمتها البشعة التي ارتكبتها ضد ابنها القاصر ، ومن ثم فإن إيريني بفعاليتها النكراء هذه قد مهدت لكل من البابا وحليفه المتبربر القيام بهذه الدراما الفريدة في رحاب القديس بطرس في روما . ومع أن إيريني كانت قد أعادت عبادة الأيقونات إلا أن الأسرة التي كانت تنتمي إليها وهي الأسرة الأيسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على مقدسات الآباء الصالحين وتراث الكنيسة الرسولية .

كذلك كان البابا ليو الثالث مدركاً لحقيقة أن الإمبراطور الشرقي - يوم أن كان رجلاً لا امرأة - كان عاجزاً كل العجز عن حماية البابا من مخالب اللومبارد ، بل إن وقتاً قد جاء حينها عقدت بيزنطة وإكزارخيتها في راقنا حلفاً ضد البابوية ذاتها مع العدو اللومباردي . وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوي أنه طالما أن الإمبراطور عاجز عن الدفاع عن رعاياه في روما فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع حمايتهم . ألم يكن الواجب الأول للمقدس على الإمبراطور هو حماية كنيسة الإمبراطورية وتوسيع سلطان نفوذها وتثبيت هيبتها والدفاع عن قوامه إيمانها ؟ أو ألم يفشل الإمبراطور الشرقي في كل هذا جميعاً ؟ ثم ألم يضطاع شلمان بكل هذه المهام التي كان خليفاً بالإمبراطور الشرقي أن يقوم بها ؟ على ثقل كل هذه الحجج والأسانيد كانت لدى ليو الثالث من الجرأة والإقدام ما يجعله وكرادته يفرقون بين الخيال أو النظرية *De jure* وبين واقع الأمور *De facto* فقررُوا تنويع شلمان . كذلك كان الشعور المتحضر في روما في تلك الفترة أن مدينة القسطنطينية كانت مدينة محدثة نعمة ، ولم ينس البابوات للقسطنطينية أطماعها الرذيلة في ابتلاع ما كان لروما من حقوق الإمرة على الكنيسة العالمية ، تلك الأطماع التي وضحت في جلسات المتجامع المسكونية المتتابعة . لقد كان لروما دوماً الحق في انتخاب الإمبراطور ، وهي عاصمة العالم أجمع دون نزاع ، فكيف تستحل بيزنطة لنفسها اغتصاب هذه الحقوق التليدة ؟ لقد حان الوقت لروما لكي تسترد حقوقها المعتصبة ، ولم يكن هنالك سبيل لتحقيق

... (١٢) . unde . . . Gotifredi Viterbiensis "Pantheon", in M.G.H.SS., Vol. XXII, p. 217 :

postquam in manum femine daverat imperium, dignum erat, ut ad Francos viros potentissimos, transferretur"; ..

ذلك إلا بأن تنفض عن كاهلها ذاك العبء البيزنطى الكريه ، بأن تجد لها إمبراطوراً قوياً يجاورها فى الغرب . كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شرلمان هو رجل كنيسة روما الأول ، وهو الذى نشر السلام فى ربوع غرب أوربا وهو الذى حفظ لكنيسة روما حقوقها مثلما فعل بين القصير من قبل^(١٣) . ولكن علينا أن نضيف إلى كل هذه العوامل دافعا أنانياً كان يحكم البابا ليو الثالث : فهو فى خطر داهم إن ترك وحيداً أمام الحزب الجمهورى فى روما ، ولكنه آمن على نفسه تماماً إن هو توج شرلمان إمبراطوراً ، لأن هذا الموقف لابد وأن يجبر شرلمان على بسط نفوذه فى قلب المدينة ذاتها ، كما وأنه كان يعلم أن شرلمان سيحطم جهود الحزب الجمهورى فى محاولتهم الاستقلال بمدينتهم . وليس بمستبعد أن يكون البابا ليو الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشارى شرلمان أثناء تواجدهم فى روما وأيضاً مع بعض مواطنى المدينة من الرومان من جماعة السيناتو . ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليو الثالث على هذا العمل الخطير دون أن يكون قد ضمن تأييداً ملموساً من جانب شعب روما .

أما القول بأن ما أقدم عليه البابا ليو الثالث فى تتويج شرلمان كان مجرد تمثيلية بارعة لا تعدو الإنعام بلقب وتاج على شرلمان فهو قول ساذج لا تؤيده الوقائع : ذلك أن البابا كان على يقين من أن شرلمان سيسر بالتاج الذى كان يسعى جاهداً للحصول عليه .

على أنه إن كان إينهارد صادقاً فى قوله بأن شرلمان قد عبر عن عدم ارتياحه لما أقدم البابا عليه من تصرف ، فهناك تبرير لذلك من وجهة نظر شرلمان ذاته . فما لا شك فيه أن حادث التتويج قد عرقل مباحثاته الدبلوماسية مع البلاط البيزنطى ، كما وأن شرلمان ربما قد امتنع لأن التتويج قد تم دون إعداد خاص لحفل يليق

Scriptores Rerum Germanicarum in usum Scholarum, p. 51 :

(١٣)

Hic est Christi miles forti

hic invicte dux cohortis

ducum sternit milia;

Terram purgat lolio

atque metit gladio

ex messe zizania ..

بهذه المناسبة الهائلة ؛ وربما أيضاً - ولعل هذا هو الترجيح الأكبر - أن شرملاان قد غضب لأن البابا هو الذى وضع التاج على رأسه بدلاً من أن يقوم شرملاان بتتويج نفسه بيده .

أرسل شرملاان سفراءه إلى البلاط البيزنطى ليبلغوا السلطات هناك أن سيدهم قد توج إمبراطوراً ، وكان يقصد من وراء هذا الوقوف على ردود الفعل فى بيزنطة . وزجرت إيرينى وخلفاؤها فى وجه هذا الزعيم المتبربر الغاصب للقب والتاج ، ولا شك فى أن شرملاان كان مدركاً أن ما أقدم عليه هو والبابا كان عملاً غير شرعى تماماً ، لأن الإمبراطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيرشها ومجاس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور . وشعر الإمبراطور المتوج بحرج التاج على رأسه ويقال إنه لم يكن ليضعه على رأسه كثيراً فهو من وجهة النظر البيزنطية لم يكن أكثر من متهم ، وأما البابا فلم يكن أكثر من « كاهن آثم » . لذلك فقد كانت كل جهود شرملاان هى السعى نحو اعتراف بيزنطة به إمبراطوراً مهما كلفه هذا من ثمن . ولقد بذلت السلطات البيزنطية جهوداً كثيرة لإرهاب شرملاان فهاجم الأسطول البيزنطى الشواطئ الإيطالية ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا ، خاصة فى مدينة البندقية ضد شرملاان ، لإرجاع السيادة على إيطاليا إلى التاج البيزنطى . وتلقى شرملاان إهانات بالغة مكتوبة من الجالسين على العرش البيزنطى . وبرغم هذا كله لم يكن شرملاان ليتخلى عن اللقب والتاج ، وأخيراً فى عام ٨١٢ عقد الإمبراطور ميخائيل رانجابه Rangabé صلحاً مع شرملاان واعترف به إمبراطوراً^(١٤) .

نظر شرملاان إلى نفسه على أنه إمبراطور الغرب فحسب ، ولم يفكر أبداً فى الانتقاص من كيان أو حقوق الإمبراطور البيزنطى . فهو لم ينظر إلى تتويجه على أنه خلع للإمبراطورة إيرينى عن عرشها ، بل على العكس استمر شرملاان فى مفاوضاته الودية مع بلاط القسطنطينية بغية الاعتراف بشرعيته إمبراطوراً على الغرب .

(١٤) انظر رسالة شرملاان إلى الإمبراطور ميخائيل فى الحاشية .

“Nam Aquisgrani, ubi ad imperatorem venerunt, scriptum Facti ab eo in ecclesia suscipientes, more suo id est Graeca lingua laudes ei dixerunt imperatorem cum et Basileum appellantes”.

ولكن أهل روما كانوا يخالفون هذا الموقف الذى اتخذته شرملة . فلقد ظن البابا وشعبه أنهم بهذا قد أنفذوا ثورة هامة وبأنهم قد خلعوا الإمبراطور البيزنطى كلية وأعادوا السيادة الإمبراطورية كلها غربياً وشرقياً إلى إمبراطور أوحده فى الغرب . ولهذا فإن قوائم الأباطرة فى سجلات روما تسجل شرملة Carolus Magnus (شارل العظيم) خلفاً مباشراً للإمبراطور قنستنتين السادس ، وأضيفوا عليه نفس الشرعية التى كان يتمتع بها أغسطس وقنستنتين العظيم . وكان البابا يعتقد اعتقاداً راسخاً أن شرملة هو أصلح أمراء الغرب لحمل التاج الرومانى ، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الغربية ليقنع الناس بهذا المفهوم الثورى فى حينه . لقد أبرز البابا تاجاً ومنحه لشرملة ، ولم يكن من حق البابا أن يقتنى تاجاً ولا نعلم من أين قد حصل عليه ، كما وأنه لم يكن من حقه أن ينعم بهذا التاج بالذات على أحد . ولكن ليو الثالث قد استمد هذه الصلاحيات الجديدة التى أعطاها بفعلته هذه للجالس على عرش القديس بطرس من الهيبة التى كان يتمتع بها كأسقف روما وكأول للكنيسة اللاتينية كلها ، وأيضاً من الشعور السائد فى أواخر القرن الثامن بضرورة إجراء هذا التغيير . ولولا أن البابا كان مطمئناً إلى أن ما سيقوم به سيقابل بالارتياح فى الغرب لما وضع التاج على رأس شرملة . أما عن شعب روما فقد كان شعورهم أن سيدهم ومثلهم « كاهن القديس بطرس » Vicarius Sancti Petri يقوم نيابة عنهم بنقل التاج من على رأس إيرينى إلى رأس شارل العظيم . حقيقة أن هذا العمل كان غريباً شاذاً وغير شرعى ، ولذلك فإن أحداً لم يجرؤ على المجاهرة بتبرير قانونى له فى ذلك الوقت . ولم تظهر حجج قانونية للتبرير إلا بعد ذلك بثلاثمائة عام .

فلقد جاهر الحزب الإمبراطورى بأن شرملة قد اكتسب التاج بحمد السيف ومن ثم فهو ليس مديناً لأحد بهذا التاج ، لأنه جائزة سواعده الجبارة . والحق أن هذه النظرية هى أوقع النظريات وأقربها إلى المنطق والواقع ، فلولا الفتوحات الضخمة التى اكتسبها شرملة بحمد السيف لما فكر أحد فيه كإمبراطور . أما الحزب البابوى فقد نادوا بأن البابا — بحكمه خليفة للقديس بطرس — قد مارس حقه فى خلع إمبراطور القسطنطينية ووضع التاج على رأس شرملة . وتقوم هذه النظرية البابوية على الأمر الواقع أيضاً لأن ليو الثالث قام بالفعل بتتويج شرملة بتاج من عنده . أما الحزب الرومانى ، أى شعب روما ، فقد أعلنوا بأنهم قد مارسوا حقهم المشروع فى انتخاب

الإمبراطور كما كانت العادة من قديم ، ولم يكن ما قام به البابا سوى تفويض منهم بذلك . ومن هنا اشتعلت الحرب الكبرى بين البابوية والإمبراطورية في العصور الوسطى وبات السؤال المحير لا يجد جواباً : من أفضل ؟ هذا الذى يقدم التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج ؟ أو بصيغة أخرى أى السلطتين هى العليا ؟ الدنيوية Regales التى يمثلها الإمبراطور أم الروحية Sacerdos التى يمثلها البابا ؟

على. هذه الشاكلة أعيد إحياء الإمبراطورية في الغرب بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها . وتتويج شرلمان حدث من الأحداث الخطيرة في التاريخ كله ، لأن هذا الحادث قد أثر تأثيراً بعيداً على الأحداث التاريخية التى تلت ، بل إن بعض هذه الأحداث كان نتاجاً مباشراً للتتويج . لقد ضم التتويج إيطاليا وألمانيا في وحدة كان من أهم نتائجها أن جرت الخراب على كل من الإيطاليين والألمان ؛ على الأقل في الصعيد السياسى . لقد ظلت إيطاليا عبئاً على كواهل الأباطرة الألمان سبعمائة عام ، وقد هلك من دسائس وملاريا إيطاليا معاً أكثر من إمبراطور ألماني ، وحتى البابوات الألمان كانوا هم أيضاً ضحايا لهذه الظروف التى لم يعتادوها في بلادهم ، إلى حد أن المعاصرين الألمان قد ظنوا أن الإيطاليين الخونة قد دسوا لهم جميعاً السم ليتخلصوا منهم . وبدلاً من أن تتجه ألمانيا إلى تأمين رقعة أراضيها على الجبهة الشرقية ، وهى امتدادها الطبيعى ، ضيقت جيوشها وقتلت خيرة أبنائها في حملات مضنية عبر جبال الألب حيث هذا « التتوء السياسى » في شبه الجزيرة الإيطالية ومن بعد في مملكة الصقليتين . ولنكم أضاع الأباطرة الألمان زهرة حياتهم يلهثون من روما إلى كانوسا إلى كلابريا على حساب هيبة ومصلحة التاج الألماني في ألمانيا ذاتها ، الأمر الذى جعل الإقطاع يعمق جذوره على الأرض الألمانية ، حيث أصبح كل دوق من أدواق ألمانيا ملكاً ينازع الجالس على عرش إكس لاشايل سلطته المركزية . ولا نبالغ إن قلنا إن إحياء الإمبراطورية قد جعل الاتحاد الألماني مستحيلاً والوحدة الإيطالية حلماً بعيد المنال حتى حل منتصف القرن التاسع عشر .

ومع أن شرلمان استمر في حكم أملاكه بعد عام ٨٠٠ بنفس الأجهزة وبنفس الرجال الذين كانوا في خدمته من قبل ، دون أن يفكر في إقامة جهاز حكوى متمدين متمركز على شاكلة الحكومة البيزنطية الإمبراطورية ، إلا أنه برغم هذا قد استحدث بعض النظم التى تليق بإمبراطور مسيحي : فلقد أصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه

دون تفرقة ، وكلف مبعوثيه Missi Dominici الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه القوانين ومعاينة من يسيء استخدامها من الكونتات والأفصال ، كذلك عقد المجالس التي كانت تضم رجال الإكليروس ونفرا من العلمانيين لتنظيم شؤون الكنيسة . وفي مارس عام ٨٠٢ أصدر شلمان توجيهاته لمبعوثيه هؤلاء بأمرهم فيها بالتعفف عن الرشوة واتباع الحق وبالتحلي بالخلق الخلق برجال الإمبراطور المسيحي الذي عينه الله لإحقاق العدل على وجه المسكونة . وكان دائماً يختار مبعوثين : الواحد من كبار رجال الدين والآخر من كبار الكونتات ليكون لهما من الهيبة والصلاحيات ما يمكنهما من إرساء قواعد العدالة في نظر الكونتات والأفصال . وكان عليهما مراقبة سلوك الموظفين الملكيين على مختلف درجاتهم ، وكذا التفتيش على المحاكم المحلية وسجلاتها ، والتأكد من الالتزام بواجبات يمين الولاء والطاعة الذي كان شلمان قد تلقاه من جميع رعاياه بأنهم « رجاله الأوفياء وأيضاً رجال كنيسته المخلصون » . وكان هؤلاء « الرسل » يبحثون في شكايات الناس وتظلماتهم ، ويحققون أيضاً في المسائل الدينية التي تشغل بال الرعية والكهنة ، كل هذا استنه شلمان « بغية إحقاق العدالة لجميع الكنائس واليتامى والأرامل وسائر الخلق دون إهمال أو إهمال » . وكان عليهم أن يوافوا السيد الإمبراطور بتقارير واضحة عن تنفيذ أوامره وتوجيهاته وقرائنه الإمبراطورية .

وفي أكتوبر لعام ٨٠٢ عقد شلمان مجلساً هاماً في عاصمته إكس لاشايل ضم كبار الأساقفة وعلمة الموظفين ، لضمان سيادة القانون في شتى أنحاء الإمبراطورية . وفي هذا المجلس تليت قواعد القانون الكنسي والمراسيم البابوية على القسيسين والدياكنة والأساقفة ، كما تليت قواعد القديس بندكت على الرهبان ورؤساء الأديرة . بعد هذا طلب شلمان من الكونتات الحاضرين أن يقرروا العدالة للفقير على حد سواء . وقام شلمان بنفسه أيضاً بشرح القوانين المختلفة في أنحاء إمبراطوريته لكبار موظفيه ، كما طلب إلى الموظفين في مناطق تحيا على القانون العرفي أن يبادروا بكتابة هذه القوانين وتسجيلها فور عودتهم إلى أقاليمهم .

ولم يكتف شلمان بإصداره للقوانين بل اضطلع أيضاً بمهمة القاضي الأكبر في إمبراطوريته ، وكان من حقه النظر في أية قضية والفصل فيها ، وكان حكمه فيها نهائياً . كذلك كان من اختصاصه النظر في الجرائم الكبرى في الإمبراطورية ، كما

كان من حق المتخاصمين من عليّة القوم استئناف النظر في قضاياهم أمام محكمته سواء أكان هذا في القضايا المدنية أو الكنيسة ، وغالباً ما كانت هذه القضايا نزاعاً حول بعض الأراضي .

أمضى شلمان آخر سني حياته في قصره في إكس فلقد قارب السبعين من العمر ولم يعد بمقدوره التنقل كما كان يفعل في سابق العهد من عاصمة إلى أخرى . وكان أبنائه رجالاً ناضجين : شارل أكبرهم كان بجوار والده الذي وكل إليه أيضاً مهمة الإشراف على أفصال الجزء الشرقي من الإمبراطورية ، أما لويس فكان يعيش منذ طفولته حاكماً على أقطانيا ، وفيها درج على الأساليب الأقطانية وخلق الأقطانيين . وكان لشلمان أبناء آخرون في مرحلة الطفولة ، والمعروف أن شلمان قد تزوج مرات أربع . أما بنات شلمان فإنه لم يسمح لهن بالزواج ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يكن ليرغب في تفتيت أراضي إمبراطوريته بتوزيع بعض الأراضي على الأحفاد الذين قد تنجبن بناته لعائلات غريبة عن البيت المالكي إن هن تزوجن . هذا مع أن شلمان كان يعلل موقفه هذا بقوله إنه لا يطيق مفارقة بناته له . والمعروف أن بنات شلمان قد وجدن متنفساً في قصره الغاص بالوجهاء من رجال الدين والدنيا بأن أقمن علاقات حب مع بعضهم ، الأمر الذي فاحت رائحته وكان سبباً في بعض المتاعب التي كان على العاهل الفرنجي أن يعالجها في كياسة فائقة حرصاً على سمعة البيت الكارولنجي . وفي عام ٨٠٦ كتب شلمان وصيته بتقسيم الحكومة بين أبنائه بعد فاته ، وتم هذا في ضيعته في ثيونفيل ، ويعرف هذا القرار باسم *Ordinatio* ، ولكنه لم ينص فيه على من يخلفه على عرش الإمبراطورية ، وإنما اكتفى فيه بتوزيع مهام الحكم على أبنائه *Divisio Regnorum* كآلاتي :

عند وفاة الإمبراطور يحصل ابنه بين على حكم إيطاليا وبشاريا وجزء من ألمانيا *Alemannia* وراثيتيا ؛ أما لويس فيحصل على أقطانيا وغسكونيا وسبتمانيا وبروفنس وبرجنديا ؛ أما شارل وهو الابن الأكبر فيحصل على قلب الإمبراطورية الكارولنجية المتمثل في فرنكيا الشرقية ، وجزء من برجنديا وجزء من ألمانيا ونوستريا واسترازيا وجزء من ثورنجيا وسكسونيا وفريزيا وجزء من بشاريا . وطالب شلمان أبنائه الثلاثة بمراعاة حقوق الأخوة والمحبة الأخوية في علاقاتهم الواحد بالآخر ، كما أمرهم بالدفاع

عن كنيسة القديس بطرس في روما ، وخصص لكل واحد منهم طريقاً خاصاً يسلكه في طريقه إلى إيطاليا . ونص شلمان في وصيته أنه في حالة وفاة واحد من هؤلاء الأبناء الثلاثة تقسم أملاكه بين الأخوين الآخرين ، إلا إذا كان للمتوفى وريث يرغب شعبه في أن يخلف أباه في الحكم .

ولعل أهم فقرة وردت في هذه الوثيقة تلك التي حرم فيها على أبنائه وذريتهم أن يقدم أحدهم على قتل أحد أحفاده أو يجبره على دخول سلك الرهبنة أو يؤذيه بأي تشويه ، وهذا اعتراف صريح من سيد الفرنجة ينطق بروح العصر الذي يعيش فيه ، ويعكس نوع العلاقات التي كانت تحكم الصلات بين أفراد البيوت المالكة في مجتمع غرب أوروبا في تلك الفترة من العصور الوسطى .

وقد أقسم أتباع شلمان بميماً على مراعاة تنفيذ وصيته تلك . كذلك حمل الإمبراطور نسخة من هذه الوصية لسكربتيره الخاص اينهارد وسافر بها إلى روما للحصول على اعتراف البابا ليو بما ورد فيها . ولم يقدر لهذه الوصية أن تنفذ لأن كلا من بين وشارل قد توفيا قبل وفاة أبيهما ، ولم يبق إلا لويس إيرث كل أراضى شلمان .

كانت حكومة شلمان لإمبراطوريته الشاسعة متمركزة في بلاطه أو في قصره Palatium ، وكانت سياسة الدولة ترسم في هذا القصر بواسطة شلمان نفسه يعاونه مجلس خاص من خلائه . كذلك كان القصر بيتاً للمال ففيه الخزانة الإمبراطورية وإليه كانت تعود الضرائب من الأتباع والعوائد من الأفضال والمكوس على التجارة والهدايا التي كان يفرضها حامل التاج على مختلف الطبقات الغنية ورسوم النظر في القضايا والأموال المصادرة والغرامات والحزيرة المفروضة على الشعوب المقهورة وغنائم الحروب من ذهب وفضة وملابس غالية ومجهرات ومقتنيات ثمينة .

وكانت النفقات على القصر الإمبراطوري ونفقات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف تدبر من دخول ضياع الإمبراطور المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية . ولقد ورث شلمان هذه الضياع عن الميروفنجيين ، ومع أنه وهب بعض هذه الأراضي للكنائس والأديرة إلا أن هباته كانت ضئيلة إن هي قيست بالهبات التي أنعم بها الميروفنجيون على بيوت العبادة والأديرة من قبل . كذلك كانت هذه الضياع تمد الإمبراطورية الرومانية

القصر الإمبراطوري بالغالل والثيران والخنازير والحيل والأنبذة والجمعة والأسماك وزيت الزيتون . ولقد جلبت فتوحات شلمان إليه ضياعاً أخرى كثيرة : في لمبارديا وفي بشاريا وفي سكسونيا : وأقطع الإمبراطور هذه الأراضي لأفصالة وضباطه وموظفي بلاطه .

ولشلمان أفضال كبرى على المعمار ، فلقد شيد كنائس كثيرة أشهرها كنيسة في آخن Aachen (إكس لاشايل) وهي التي دفن فيها . كذلك شيد قصراً رائعاً في عاصمته هذه وآخر في مدينة انجلهايم Ingelheim وثالثاً في مدينة نجميجن Nijmegen . وقد أقام قنطرة على الراين عند مدينة ميتر ولكن النار التهمت قبل وفاته . وكان مهندسو شلمان من الإيطاليين المهرة الذين اتبعوا أسلوب المدرسة البيزنطية المتمثلة في طرز مدينة راقنا .

ولعل أهم جهود شلمان تتمثل في برنامجه من أجل التعليم والآداب ، وهذا ما نطلق عليه عادة تعبير « النهضة الكارولنجية » . فلقد رحب شلمان في بلاطه بعلماء من جنسيات مختلفة أسسوا « مدرسة القصر » Scola Palatina . ولقد اتخذ كل عالم من هؤلاء اسماً كلاسيكياً أو من الكتاب المقدس ، أما شلمان فقد تسمى بداود .

ولقد اهتم شعراء اللاتينية في بلاط شلمان بالشعر الكلاسيكي ، واهتم آخرون بالنثر وغيرهم بالتاريخ . ومن بين هؤلاء الأساتذة الذين استعان بهم شلمان كان الكوين Alcuin الإنجليزي ، الذي كان مغرمًا بالشعر . ولقد تأثر في أشعاره بالشاعر فورتيوناتوس Fortunatus ، وبعض قصائده تاريخية تتناول إحداها سيرة القديس ولبرورد St. Willibrord ، وأخرى تعالج تاريخ يورك ، وثالثة فيها نحيب على الحراب الذي حل بلندزفان Lindisfarne . ولعل أهم أشعار الكوين تلك القصيدة المرموقة بعنوان « مساجلة بين الشتاء والربيع » ، وهي من نفس النمط الشائع آنثذ في إنجلترا الأنجلو-سكسونية . وللكوين مجموعة ضخمة من الرسائل النثرية تميل إلى الأسلوب الخطابي ، ولكنها تنطق بروح « الألفة » ، ونجد هذا واضحاً في رسالته إلى صديقه آرنو Arno أسقف ستراسبورج التي يخاطبه فيها بكنيته التي يناديه بها خلاصاًه فقط وهي « اكويلا »^(١٥) . وهو نفس الأسلوب الذي كان يخاطب به الكوين

“Venerando volucris et vere amantissimo Aquilae Albinus salutem...”.

سيده وصديقه شارل العظيم ، ذاك الأسلوب الناطق « بعدم التكلف » والذي كان ميزة من ميزات كاسيودوروس في رسائله إلى ثيودوريك العظيم من قبل .

ومن أعلام النهضة الكارولنجية أيضاً ثيودلفوس Theodulfus أسقف أورليان وهو قوطي الأصل . وكان ثيودلفوس شاعر البلاط الشرلماني الأول ، وقد تميز بالوقار والقول الحق . ونجده في إحدى قصائده المطولة يقدم النصيح لقضاة الفرنجة وذلك من خلال خبرة شخصية مر بها ذاتياً في رحلته في الجنوب الفرنسي « مبعوثاً » من شرلمان Missus Dominicus في عام ٧٩٨ : فمن بين الرشاوى التي قدمها إليه المنافقون قطعة من الذهب المغربي ، وشريحة من الجلد القرطبي ، وكأس زينت ببطولات هرقل . وفي نهاية حياته اتهمه لويس التقي بالخيانة وألقاه في سجن أنجير Angers . ومن وراء القضبان تذكر أوفيد Ovid فأرسل قصيدة عصماء لأوتون أسقف مودوان Modoin جعل فيه ربة الحكمة تتبنى قضيته وتدافع عنه وتتوسل له في طلب العون . وشاعرنا هذا رجل مرهف الحس لا يعجبه نفاق رجال القصر وآفات التملق التي كانت متفشية في هذا العصر ، ولذا فهو يستخف بتلك الألقاب التي خلعتها أساتذة « مدرسة القصر » على أنفسهم : فلقد تسمى الكوين باسم فلاكوس Flaccus ، في حين أن أنجلبرت Angilbert اتخذ له اسماً هوميروس ، بينما كان هؤلاء يخاطبون شرلمان على أنه « داود » . ولم يخف ثيودلفوس اشمئزازه من كلمت النحوى « هذا الإسكتلندي الكريه » ولا من دنجال Dungal « هذا الإيرلندي الطريد » Hibernicus Exul .

ومن أعلام التاريخ في عصر شرلمان بولس الشماس Paulus Diaconus وهو لومباردي الأصل ، ومن مشاهير الكتاب في باثيا اللومباردية قبل سقوطها في أيدي شرلمان . ولقد أمضى بولس بعض الوقت في دير مونت كاسينو بعد سقوط دولته اللومباردية ، ولكن شرلمان دعاه للإقامة في بلاطه ليفيد « مدرسة القصر » بعلمه وقلمه . وفي آواخر سني حياته عاد بولس إلى الدير حيث عكف على كتابة « تاريخ اللومبارد » وإلى جانب هذا ترك بولس « تاريخاً عاماً » أكمل به ما بدأه يثروبيوس Eutropius من قبل ، كما كتب سيراً لكل من أساقفة متر ولجريجوري العظيم ، وله أيضاً بعض القصائد باللاتينية . على أن « تاريخه » عن اللومبارد هو أهم تاريخ على الإطلاق ،

فهو سجل رائع لهذه المملكة الجرمانية ، ولكنه ملئ بالأقاصيص المثيرة المختلطة بالميولوجيا التيوتونية وأدب البطولة الأسطورية التي تتضح في سيرة الملك البوين Alboin وفي قصة جونثرام Gunthram الفرنجي وفي حكاية كوننكبرت اللومباردي Cunincpert وبشكل خاص في « حياة الملك جرموالد » . وفي هذه القصة الأخيرة تبرز شخصية بولس كدارس متفهم لتتابع الأحداث ولكنه يفاجئنا بتفسيرات خيالية لها . وهو لا يعتمد هنا أن يرسم صورة فنية لأبطال قصته وإنما يدع الأحداث لتتحدث بهذه الصورة : فجرموالد كان قد وقع وهو بعد في سن الطفولة أسيراً في يد أحد العتاة من قبائل الآفار ، ولكنه غافل عدوه وطعنه بسكينة صغيرة وفر من ذل الأسر .

ودارت الأيام واعتلى جرموالد العرش ولكنه كان قاسياً جباراً فاضطهد خصماً له هو برتاري Berthari وتفنن في تعذيبه ، ولكن برتاري أفلت من سجن الملك وركب اليم يطلب الحماية لدى الإنجليز ، ولكنه قبل أن يعتلى القارب على الشاطئ الفرنسي يسمع صوتاً من السماء بأن « عد إلى أرض الوطن لأن جرموالد قد دفن في بطن الأرض ميتاً منذ ثلاثة أيام »^(١٦) . والشئ الجميل في بولس هذا هو أمانته العلمية فهو يعترف بأنه قد استفاد من كتاب سكوندوس من ترنت Secundus of Trent (أوائل القرن السابع) في تاريخ اللومبارد عند تسجيله لكتابه المرموق^(١٧) .

وأشهر مؤرخي عصر شرلمان على الإطلاق هو إينهارد صاحب الكتاب الشهير عن « حياة شرلمان » Vita Caroli Magni . وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما كتبه بولس الشماس في تاريخ اللومبارد نتيين الفرق بين شطحات الخيال الرومانتيكي عند بولس

(١٦) Paulus Diaconus, Historia Langobardorum, 1, V, c. 33 : "Igitur, ut dicere

coeperamus, Perctarit egressus de Gallia navem ascendit ut Britanniam insulam ad regnum Saxonum transmearet. Cumque jam aliquantum per pelagus navigasset, vox a litore audita est inquirentis utrum Perctarit in eadem nave consisteret. Cui cum responsum esset, quod Perctarit ibi esset, ille qui clamabat subjunxit : Dicite illi revertatur in patram suam, quia tertia die est hodie quod Grimualdus subtractus est luce. Quo audito Perctarit post se reversus est veniensque ad litus invenire personam non potuit quae ei de Grimualdi morte nuntiavit; unde arbitratus est, non hunc hominem sed divinum nuntium fuisse."

(١٧) "... Qui usque ad usa tempora succinctam de Langobardorum gestis composuit historiolum...".

وبين التفكير التاريخي الواعي عند إينهارد ، تماماً كما نلمسه في التمييز بين هيرودوت وتوكوديديز مثلاً أو بين فرواسار Froissart وكومين Clommines أيضاً . ذلك أن إينهارد قد وضع نصب عينه وحدة معينة ذات نسب وأبعاد كان هو مدركاً لمداها ، ومن هذا المنطلق راح يكون كتابه في التاريخ : فهو عالم يقدر ما للخطبة العلمية من مكانة عند الكتابة وليس هذا بمستغرب على رجل مثل إينهارد الذي انكب على دراسة طرائق القدامى وقواعدهم في التأليف قبل أن يمسك بقلمه ليخط سيرة شلمان . وهو لا يبحث عن القصص الخرافية والمغامرات في حياة بطله ، على الرغم من إعجاب شلمان الزائد بهذا النوع من التاريخ ، وإنما جاهد إينهارد في سبيل تقديم صورة موضوعية علمية عن موضوع كتابته ، مهتدياً في هذا بأسلوب سيوتونيوس Suetonius والحق أنه قد فاقه في هذا المجال . ولقد قدم لكتاب إينهارد معاصر مرموق آخر هو والافرد سترابو Walafrid Strabo فوصف لنا إينهارد على أنه فرانكوني من مين Maine تلقى تعليمه في فولدا Fulda ثم أرسله مقدم دير هذه البلدة هدية إلى بلاط شلمان ليفيد بعلمه وبقلمه . ولقد وجد شعراء « مدرسة القصر » في التناقض الصارخ بين مظهر إينهارد وروحه الوقادة الذكية مادة لقصائدهم فأطلقوا عليه لقب ناردولوس Nardulus وأمطروه بأشعارهم^(١٨) . ولا يهتم إينهارد بالأقاصيص المبهمة الأسطورية التي غلبت على كتابات جوردان وبولس الشماس . ولم يلتقط من « الحكايات الشعبية المتبربرة والأغاني » Barbara et Antiquissima Carmina في سيرة ملوك الفرنجة القدامى سوى ما يعينه على تفهم سمات بطله شلمان وسلوكه في حادثة معينة خاصة في معمة القتال ضد الأعداء . وهو بعد هذا ينفر من أدب الملاحم وليس من طبعه ولا من ملكاته أن يخرج شيئاً من قبيل « أنشودة رولاند » مثلاً ، فهو عندما يتعرض للكتابة عن معركة جبال البرانس مع قبائل الباسك التي سقط فيها البطل رولاند (أو أحياناً Hurodland) وإيجهارد ساقى الملك وانشلم Anshelm كونت القصر ورجل الملك ، يسجل ما قد وقع في تلك الواقعة في وقار المؤرخين ووضوح الرأى ، وقد حرر ذهنه من انفعالات العصور الوسطى .

(١٨) Nardulus huc illuc discurrat perpetue gressu, Ut formica tuus pes redit itque frequens, ..

وهذا ما يدعونا إلى وضع إينهارد في مرتبة الكتاب القدامى من الرومان مع أنه كان عضواً لامعاً في المدرسة الكارولنجية بل اصطفاه شلمان ليكون كاتب سره الخاص .

هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها الذين ذكرناهم كانت المشعل الذي بدد ظلام العصور المظلمة وخلق تلك النهضة التي بدأت بها العصور الوسطى . ولقد استاء شلمان من الضآلة الثقافية لدى رجال الإكليروس وكان كثير الشكوى من أغلاطهم الفاحشة في الأجرومية من واقع خطاباتهم التي كانوا يرسلونها إليه . والمعروف أن شلمان نفسه قد جلس في حجرة الدراسة في القصر مع أبنائه وأحفاده يتعلم قواعد اللاتينية الصحيحة التي كان يجملها . ولكي يعالج هذا النقص المعيب في رجال الدين من طائفة القسيسين أمر بأن تجمع مواعظ بليغة سليمة الأسلوب والأجرومية وتوزع على الكهنة ليستفيدوا منها كل في كنيسته . كذلك أنشأ عديداً من المدارس الكاتدرائية في ريمز وأورليان وغيرهما من المدن إلى جانب عدد آخر من المدارس في البيوتات الديرية في سانت جال St. Gall وتور وریشينو Reichenau وفولدا وهرزفيلد وكورثي Corvey وهرشو Hirschau . وكان الهدف من هذه المدارس تخريج القسيسين ، ولكنها كانت تقبل أيضاً دارسين من العلمانيين . وكانت الدراسة في هذه المدارس منصبة على اللغة اللاتينية والقوالبات Vulgata (الإنجيل في صيغته اللاتينية للقديس جيروم) ، إلى جانب دراسة أعمال فرجيل وهوراس وأوفيد وسالوست وجوفنال وسنكا ، الذي كان ينظر إليه في العصور الوسطى على أنه مسيحي لسبب ما قيل عن أنه قد تراسل مع القديس بولس .

كذلك كان شلمان مغرمًا بالموسيقى ودراساتها ، وقد طلب من البابا أن يرسل إليه بنفر من القسيسين المتخصصين في الألحان الكنسية . وقد أسس شلمان مدرستين للموسيقى واحدة في متر والأخرى في سواسون ، وقد أدخلت آلة الأرغون في غالة في عصر شلمان الذي كان معجباً بها . ولقد أتت هذه الجهود أكلها ، وكان من أهم نتائج هذه النهضة العلمية تنقية اللغة اللاتينية المستخدمة في الكنيسة من شرائب العامية والتبرير . على أن هذا في حد ذاته قد وسع الهوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام إلى حد

أن هذه الأخيرة قد غدت بعد هذا مجرد لهجة من اللهجات استحوالت معها عمليات التنقية اللغوية . وهذه هي اللغة الدارجة التي تمثل بداية ظهور اللسان الفرنسي واللغات الرومانسية الأخرى . وقد كان من نتائج هذا الاهتمام العلمي باللاتينية الكلاسيكية أن ازداد عدد المخطوطات فحفظت لنا أعمال الخالدين من اللاتين القدامى من هلاك محقق . كذلك كان لشرلمان الفضل في أن يحدد للعصور الوسطى على مدارها أن تكون اللاتينية لغة العلم والتربية في المدارس والجامعات .

وكان شرلمان وفيئاً ومحباً للسانه الأصل الألماني ، ولذا فقد أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية سليمة ، لكي تصبح لغة أدب وتعلم بعد أن تخضع للقواعد المنطقية وتنقى من شوائبها . وقد نجح في جمع عدد ضخم من الأغاني الجرمانية والأساطير الموغلة في القدم فيما عرف باسم Nibelungen Lied ، ولكن الأمر المؤسف أن ابنه لويس قد حطم هذا التراث الفريد بحجة أنه وثني فاسد .

ولقد اعتبر شرلمان نفسه سيداً على الكنيسة بحكم منصبه Ex Officio فهو الذي دافع عن كنيسة روما ، وهو الذي نشر المسيحية بين مختلف القبائل الوثنية ، وهو بعد هذا « إمبراطور الله » المسحوق بالزيت المقدس . لذلك اضطلع العاهل الفرنجي بمهمة انتخاب الأساقفة ورؤساء الأساقفة وكثيراً ما كان يقوم بتعيينهم دون انتخاب . كذلك كان يمارس حقه في عقد المجامع الكنسية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول . وكانت الكنيسة ورجالها يخضعون لقوانين الإمبراطورية ، شأنهم في هذا شأن العلمانيين فيها .

وشرلمان هو أول من فرض العشور لتدفع إجبارياً للكنيسة ، وقد تلقف رجال الإكليروس هذا القرار ونادوا بأنه نص ملزم في الكتاب المقدس وطبقوه في سائر بلدان غرب أوروبا . ولم يكتف شرلمان بهذه السلطات على الكنيسة بل طالب بحقه في رسم سياستها العامة وبحقه أيضاً في اعتماد طقوسها وعقائدها . ويتضح هذا في موقفه من المجمع المسكوني السابع الذي عقدته الإمبراطورة إيريني في عام ٧٨٧ لإعادة عبادة الأيقونات . وقد أرسلت إيريني قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢-٧٩٥) الذي وافق عليها وسرّبها سروراً بالغاً ، ثم أرسلها بدوره إلى شرلمان لكي يذيعها على

رجال الدين في مملكته . غير أن شلمان قد رفض ما ورد في هذه القرارات وجمع مجلساً من الأساقفة في عام ٧٩٤ راح يفند قرارات المجمع المسكوني السابع . ثم أرسل شلمان إلى البابا هادريان تفنيده لقرارات المجمع المسكوني السابع والمعروف باسم Libri Carolini ، مشفوعاً بأمره الغاضب بأنه يحسن بالبابا ألا يتخذ موقفاً في أمور عقائدية شائكة من هذا القبيل قبل أن يستشير شلمان فيها . وفي رسالة أخرى كتب شلمان إلى البابا يفهمه أن واجبه كرجل دين هو أن يقوم بالصلاة فحسب ، وحذره من مغبة التدخل في المسائل الخطيرة التي هي من اختصاص الإمبراطور فقط . والواقع أن موقف شلمان من المجمع المسكوني السابع كان مخالفاً تماماً لتقاليد الكنيسة الكاثوليكية ، وأغلب الظن أنه لا هو ولا أساتذة قصره كانوا بفاهمين لطبيعة الجدل حول الأيقونية واللاأيقونية .

وتتضح مفاهيم شلمان لسلطاته على الكنيسة في موقفه مع البابا ليو الثالث ، فلقد فرض عليه شلمان المثل أمام المحكمة التي عقدها خصيصاً في مدينة روما ليبراً البابا نفسه من التهم والجرائم المنسوبة إليه ، ولم يكن في مقدور ليو الثالث أن يجلس على عرش القديس بطرس إلا بعد أن قرر شلمان براءته وسمح له بذلك . وهذه الحجج الشيرلانية هي التي التقطها من بعد أباطرة ألمانيا في نزاعهم العنيد مع البابوية ، ذلك النزاع الذي جر الحراب على كل من البابا والإمبراطور .

ويطل شلمان في كل العصور لتبين فيه ملامح جرمانية ورومانية وإنجيلية ، ممتزجة جميعها لتقدم لنا صورة نموذجية عما نسميه بالعصور الوسطى . لقد كان شلمان في لباسه ولغته وخلقه ومشاعره جرمانياً ، ولكنه في أفكاره ونظام حكمته يبدو رومانياً ، وهو هنا وهناك متأثر بالمفاهيم الواردة في الكتاب المقدس .

لقد ترك لنا إينهارد صورة رائعة عن سيده شلمان : لقد كان بحق أعظم رجال زمانه وواحداً من أعظم رجالات كل زمان . وليست هنالك شخصية أخرى في سجلات التاريخ كله ملكت خيال الناس ، فلقد ظلت سيرته وأعماله البطولية حديث الأساطير والأغاني الشعبية ، حتى ليبدو لنا أن شلمان كان يقود الحملات الصليبية من داخل قبره .

توفى شلمان فى الثامن والعشرين من يناير لعام ٨١٤ فى عاصمته آخن ودفن فى كنيسة^(١٩) . وقد زين ضريحه بصورة له وبالعبارة الآتية :

« هنا يرقد جسد كارل العظيم الإمبراطور الأرثوذكسى الذى أعلى شأن مملكة الفرنجة وبسط حدودها ، وحكم فعلى سبعا وأربعين عاما . توفى فى السبعين من العمر فى عام ٨١٤ لسيدنا المسيح »^(٢٠) .

(١٩) تقول الرويات إن الإمبراطور المتوفى أجلس على العرش داخل قبر رخامى ، وسيفه المشهور (Joyeuse) بين ركبته :

Tel sepulture n'ara mais rois en terre
Il ne gist mie, ainçois i siet acertes,
Sur ses genoux l'espée et son poing destre
Encore menace la pute gent auerse.

(٢٠) بات الناس فى غرب أوربا فى فزع من أن يتصدع هذا البنيان الشامخ الذى أرسى
اليعاهل الفرنجى قواعده :

“Woe to thee, Rome, and woe to the people of Rome. The great and glorious Charles is taken from you. Woe to thee, Italy, and to all thy fair cities. Many are the afflictions that Frankland has known, but never knew she such a sorrow as when at Aachen she laid in the earth the august and eloquent Charles”.

قوانين المجمع المسكوني الأول

نيقيا سنة ٣٢٥ م

هذه المخطوطة جزء من كتاب « خطي » لكاتب مجهول الاسم . على أننا نستدل من فصله بعنوان « القول الفاتح » أنه من إكليروس أنطاكية الأرثوذكسين وذلك من قوله « أما بعد فيقول الأب الجليل الأقدس والراعي النبيل الأنفس كبير سيلبستروس البطريرك الأنطاكي الكلي الغبطة ، أدام الله تعالى رياسته ، وأعاد علينا آثار بركاته من طيب أنفاس قداسته آمين » . وكير (أو مار ويقابلها في اللاتينية لقب دومينوس) سيلبستروس هذا جلس على كرسي أنطاكية سنة ١٧٢٤ وتوفي في مارس ١٧٦٦^(١) . وفي عهده تمت ترجمة لهرطقات اللاتين^(٢) . وعلى هذا فإن كاتبنا معاصر لهذه الفترة ، وأغلب الظن أنه كتب كتابه هذا أثناء تولي هذا البطريرك للكراسة الأنطاكية . والكاتب على درجة رفيعة من العلم ، وربما أنه كان يشغل منصب الأسقفية ، ونستدل على ذلك من قوله : « إن كان حفظ الناموس من أهم الأمور وأعمها في سياسة المؤمنين ونظام أحوال المسيحيين فيما يخص الرؤساء ويعم المرعوسين ، لأجل ذلك قد ينهنا الرسول الإلهي قائلاً : احترسوا إلى أنفسكم وإلى جماعة الرعية التي أقامكم روح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه » .

ويحدثنا الكاتب عن الدافع الذي حثه على كتابة هذا المصنف القيم فيقول : ولما كان نظام الأصول جارياً على هذا المنوال ، حذراً من التشويش والاختلال في أمر الأحكام الشرعية والحدود الواجبة المرعية البيعية ، لزم أنني راجعت النظر والاطلاع على القوانين المقدسة والحدود المدونة في كتاب الناموس الموجود في اللغة العربية ، وقابلته على موضوع أصله في اللغة اليونانية فرأيت أكثر القوانين التي فيه مشوشة المعاني مختلفة

(١) Dictionnaire d'Histoire et Geographie Ecclesiastique, 3, pp. 667-69.

(٢) See Von Georg Graf, Geschichte Der Christlichen Arabischen Literatur, Vol. 3, pp. 125-26.

العبارات والمباني . محرفة عن صحة أصلها اليوناني . مما تداخلها من الزيادة الباطلة وما نقص منها من القوانين والحدود الكاملة . فقامت حينئذ على ساق الجحد والإقدام وشمرت عن ساعد الجهد والاهتمام في رد ما نخل عن أصلها وتصحيح ما زل عن موضوع ذويها وأهلها : أعنى بها قوانين الرسل القديسين والآباء الإلهيين وحدود المجامع المقدسة المسكونية والمكانية المدونة في دساتير البيعة المقدسة الرسولية الجامعة الكلية بإلهام الروح القدس الواهب للأنام مراسيم العدل والحرية » .

وقد اعتمد الكاتب في مصادره عن هذه القوانين على « كتب مجموعات عمدة الآباء الأفاضل وقدوتى العلماء الأمثال : يوحنا زونراس (القرن ١٢) الشهير فضله ، والأب الأكرم كبير تاودروس بلصامون البطريرك الأنطاكي الجزيل قدسه ، وغيرهما من العلماء الفاضلين الذين جمعوا القوانين المقدسة على أكمل صحة وسداد وأصدق نقل ما لا طعن عليه ولا انتقاد » .

المخطوطة

قوانين المجمع المسكوني الأول الملتم في نيقية

القانون الأول : أى من خصى من الأطباء في مرض ، أو قطع من البربر فليقم في الكليس^(٣) . وأما من أخصى ذاته في حال الصحة ، هذا وإن كان معدوداً زمرة الكليس ، يجب أن يعزل عن خدمته . ومنذ الآن فصاعداً لا ينبغي أن يتدب أحد^(٤) مثل هذا ، وهو لأمر واضح بأنه كما قيل في الذين يفعالون مثل هذا الأمر ويجسرون بأن يخلصون ذواتهم هكذا . فإن كان قوم^(٥) قد أخصوا من البربر أو من مواليم كانوا على جهة أخرى مستحقين . فالذين مثل هؤلاء قد يقبلهم القانون في الكليس .

القانون الثاني : من حيث إنه قد حدث من إلزام الناس أو من ضرورة لازمة ، أو من وجه آخر صارت أمور^(٦) كثيرة واقعة بخلاف القانون الكنسي^(٧) ، حتى إنهم يقدمون إلى الحميم الروحاني بسرعة قوماً قادمين إلى الأمانة حديثاً في عيشة أومية ، وموعوظين في زمن يسير ، ومع معموديتهم قد ينتدبون إلى الأسقفية أو إلى القسوسية فلاح لنا أنه لجيد بأنه منذ الآن فصاعداً لا يصير أمر مثل هذا ألبته ، لأن الموعوظ قد يحتاج إلى زمان ومهل ، وبعد المعمودية إلى اختبار أكثر ، كالقول الذي كتبه الرسول القائل : لا يكون غرسه جديدة لئلا يتصلف فيسقط في دينونة وفي فخ المحال^(٨) . وأما إذا كان مع تمامي الزمان وجد في ذلك الشخص خطية ما نفسية واشتهر بها من شاهدين أو ثلاثة ، فن كان مثل هذا فليطل من الكليس . وأما من فعل بخلافه بما أنه متفح ضد المجمع العظيم ، فإنه قد سقط في مخاطرة أن يعدم ذاته من الكليس .

(٣) الإكليرس : أى رجال الدين .

(٤) في الأصل قوماً .

(٥) في الأصل الكنايس (الكنائس) .

(٦) في الأصل قوماً .

(٧) في الأصل أموراً .

(٨) تيموثاوس ٦/٣ .

القانون الثالث : إن المجمع العظيم منع من السكنى مع امرأة ، على أنه لا يجوز للأسقف ولا للقس ولا للشماس ولا بالجملة لكل من كان من آل الكليس عموماً بأن يساكن امرأة دخيلة ، أى أجنبية ، ما خلا إذا كانت أمه أو أخته أو عمته أو خالته وتلك الأشخاص السالة من كل ظن وحدها فقط ^(٩) .

القانون الرابع : إنه ينبغي أن يقام الأسقف خاصة من كافة أساقفة الأبروشية ، فإذا كان ذلك عسراً لضرورة لازمة ، أو لأجل طول مسافة الطريق ، فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد شركة الغائبين في الانتخاب ومطابقتهم لهم بواسطة كتبهم . حيثند تصوير الشرطونية ^(١٠) . وأما إثبات الأمور الصايرة في كل أبروشية ينتهى إلى المطروبوليت ^(١١) ويتفوض إليه .

القانون الخامس : في الذين قد امتنعوا من الشركة من أساقفة كل أبروشية ، إن كانوا من طغمة الكليروسية أو من العوام ، حسب القانون الذى يأمر بأن المردولين من آخرين لا يقبلون من غيرهم . إلا أنه يجب أن يفحص في أمرهم لئلا يكونوا قد أخرجوا من الجماعة من تلقاء صغر نفس أو مماحكة وحب الغلبة أو من تكره الأسقف لذلك الشخص . فلكيما يحصل التفحص الواجب في هذا الأمر قد استبان صواباً بأن تصوير المجمع في كل أبروشية مرتين في السنة ، لكيما باجتماع كافة أساقفة الأبروشية عموماً معاً يصير التفحص عن مثل هذه المسائل ، وعلى هذه الحالة يستبان أولئك الذين أغاظوا الأسقف عند الكل بإثبات أكيد ، بأنهم قد امتنعوا من الشركة بالصواب ، إلى حين ما يبان لجماعة الأساقفة العامة بأن يبرزوا فيهم الأمر الصادر بالرفق والإشفاق . وأما هذه المجمع فليصر الواحد منها قبل صيام الأربعين ، لكي بعد دحض كل صغر نفس تصوير تقدمة القربان لله ، أى الصوم . وأما الثانى فليكن نحواً من فصل الحريف .

(٩) زواج رجال الدين في الكاثوليكية ممنوع تماماً ، وعند الأرثوذكسين يتحتم على الرهبان والأساقفة والمطارنة التبتل ولكن القسيسين والقمامسة يجب عليهم أن يتزوجوا قبل سيامتهم . ويرى الكاثوليك في زواج رجل الدين إثماً ويعرفونه بالنيقولاوية Nicolaism

(١٠) أى قانونية وشرعية سيامة الأسقف .

(١١) رئيس الأساقفة أو المطران أو Metropolitan

القانون السادس : فلتحفظ السنن القديمة التي في مصر وليبيا وبنطابوليس ، في أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها ، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضاً . ومثل ذلك فلتحفظ الكرامة سالمة أيضاً في الكنائس التي في أنطاكية وفي الأبروشيات الأخرى . وذلك واضح عياناً مطلقاً بأن أيما أسقف سيم من غير رأى المطروبوليت قدام المجمع العظيم ، بأن مثل هذا لا ينبغي أن يكون أسقفاً . وأما إذا كان اثنان أو ثلاثة من تلقاء مباحكة تخصمهم قاوموا انتخاب الكل العام الصاير بمقتضى الصواب وبموجب قانون كنسي ، حينئذ فليثبت انتخاب الأكثر^(١٢) .

القانون السابع : من حيث إنه قد جرت السنة القديمة والتقليد القديم في أن أسقف إليا^(١٣) يكرم فلتستمر له الكرامة أيضاً مع إبقاء المقام الذي لمطروبوليته^(١٤) سالماً لها .

القانون الثامن : في الذين كانوا وقتاً ما يسبون أنفسهم أنقياء^(١٥) ، ثم يقبلون إلى الكنيسة الجامعة الرسولية : لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأنهم يقيمون في الكليروس على هذه الحالة التي فيها مشرطنين . إلا أنه قبل كل شيء ينبغي لهم أن يعترفوا مقرين بكتابة منهم ؛ وهو أنهم ينضمون ويتبعون معتقدات البيعة الجامعة

(١٢) كان هذا القانون السادس سبباً في الصدام بين كنسي روما وبيزنطة ، لأنه على ثقل هذا القانون راحت كنيسة روما تطلب بالإمارة على الكنيسة العالمية .

راجع فصل « روما البابوية » حيث ناقشنا هذا القانون تفصيلاً .

(١٣) أورشليم . الاسم مشتق من الإمبراطور الروماني آليوس أدريانوس الذي أعاد بناء المدينة بعد الحراب الذي حل بها وقت الأسر البابلي .

(١٤) يقصد القانون مطروبولية قيسارية فلسطين لأن أورشليم كانت في وقت ما أسقفية تابعة لقيسارية .

(١٥) تفسير هذا أن جماعة الأنقياء ، « هم أتباع نواطس (Novatianus) أحد القسيسين في روما الذي دعا إلى عدم قبول من ارتد عن المسيحية وقت الاضطهاد إلى شركة المؤمنين مرة أخرى . كما وأنه أصر على بتولية سائر رجال الإكليروس تعففاً منه وصحبه الذين عرفوا بالنواطية أو « الأنقياء » (Catheros) . وقد عقد البابا كورنيليوس مجعماً في روما على عهد الإمبراطور داكايوس لعن فيه نواطس وهرطقته هذه . ونواطس هذا . أو نوفاتيانوس فريجي شرق كما ذكر فيلستوريجيوس في تاريخه الكنسي (٨ : ١٥) . وقد أذاع خصمه كورنيليوس أسقف روما خاصة في رسالته إلى فاثيوس أسقف الطاكية أن نوفاتيانوس تعدد مريفاً ولم يثبت (يوسبيوس ٦ : ٤٣) وبالتالي فلم يكن لائقاً للكهنة .

الرسولية ، أعني بهم أنهم يشاركون ذوى الزيجة الثانية والذين سقطوا في الاضطهاد . وقد فرض عليهم زماناً وتحدد لهم أواناً ؛ حتى إنهم يكونون في كل الأمور تابعين معتقدات الكنيسة الجامعة . فحيث ما وجد جميعهم سواء كان في قرى أو في مدن ، إن كان هم وحدهم فقط قد يوجدون مشرطنين . فالموجودون في الكليروس يكونون في ذلك الزى نفسه . وأما إذا أقبل قوم بوجود أسقف الكنيسة الجامعة أو القس ، فمن البين الواضح هو أن أسقف الكنيسة يمتلك رتبة الأسقف . وأما المسمى أسقفاً عند الذين يقال لهم أنقياء فيمتلك كرامة القس ، ما خلا إذا استبان للأسقف بأن يشاركه بكرامة الاسم . وأما إذا ما رضى بذلك فيجد له مقام خوريوبيسكوبوس أو قس ، لكما بالجملة بيان أنه في الكليروس حتى لا يكون أسقفان في مدينة واحدة .

القانون التاسع : إن كان قوم سيموا قسوساً من غير تفحص عنهم ، أو عند التفحص قد اعترفوا بخطاياهم ، وبعد إقرارهم بها قد تحرك قوم فوضعوا اليد عليهم وشرطنوهم بخلاف القانون فمثل هؤلاء لا يقبلهم القانون ألبتة ؛ لأن الكنيسة الجامعة قد تنتصر لكل شيء عديم العيب والذلل .

القانون العاشر : أيما رجل من الذين سقطوا قد سيم كليروسياً ، سواء كان من تلقاء الجهل به أو بمعرفة منه قد سامه ، فلذلك الأمر لا يتقدم حكمه على القانون الكنسي ؛ لأن من اشتهر بذلك قد يقطع .

القانون الحادى عشر : أما الذين خالفوا^(١٦) من غير ضيق اضطهرهم لذلك ، أو من غير نهب أموالهم ولا استلاب أموالهم أو في غير خطر دهمهم ولا حيف طراً عليهم وما يشبه ذلك من النوائب الطارئة مما جرى في عهد ليكنيوس الملك^(١٧) ، قد لاح للمجمع بأنهم وإن كانوا غير مستحقين للشفقة والمحبة البشرية ، إلا أن الأولى بهم أن يعاملوا بلطف المعاملة والرفق ؛ على أن كلا منهم قد تاب وندم حق الندامة الصادقة . فليقف المؤمن منهم مقياً مع السامعين^(١٨) ثلاث سنين ، وسبع

(١٦) أى الذين جعلوا الله جل شأنه .

(١٧) ليكنيوس الإمبراطور (٣١١ - ٣٢٤) شريكاً لقنسططين العظيم في الحكم .

(١٨) أى يسمح لهم فقط بالوقوف بخارج الكنيسة ويسمعون الصلوات .

سنوات يقيم متخضعاً مع الجاثيين^(١٩) ، وليشارك الشعب في الصلوات سنتين ، ما خلا شركة القربان^(٢٠) .

القانون الثاني عشر : أما الذين قد دعوا من النعمة وأظهروا النهضة الأولى وطرحوا عنهم النطاق ، ثم رجعوا مثل الكلاب إلى قيئهم حتى إن بعضهم أعطوا أموالاً وجعلوا رجعتهم إلى الجندية بهدايا ، هؤلاء فليخضعوا جاثيين عشر سنين ، بعد مدة استماعهم ثلاث سنوات . وبعد هذا كله ينبغي أن يتفحص عن عزمهم وعن كيفية توبتهم ونشاطهم ؛ لأن أولئك الذين يظهرون الرجوع بالفعل لا بالشكل ، بل وبخوف ودموع وصبر وفعل الخير . هؤلاء بعد أن يتموا زمان الاستماع المحدود ، فمن الواجب أنهم يشركون في الصلوات ، مع تفويض أمرهم إلى الأسقف أيضاً ، على أنه يتصور أمرهم بوجه أرقق وأشفق . وأما أولئك الذين استساروا بعدم تمييز وظنوا بأن شكل دخولهم إلى الكنيسة قد يكفيهم للرجوع ، فهؤلاء على كل حال سبيلهم أن يتموا مدة الزمان المحدود .

القانون الثالث عشر : إن الذين يتوفون فليحفظ فيهم الناموس القانوني القديم ، والآن أيضاً : وهو أنه إذا توفي أحد لا يعدم الزواد الأخير الضروري جداً بالكلية . وأما إذا هويئس^(٢١) من الحياة وحظى بالشركة أيضاً ثم وجد فيما بين الأحياء فليكن مع المشاركين للمؤمنين في الصلاة وحدها فقط . وعلى الإطلاق أى من كان من المدنفين إذا طلب أن يتناول قربان الشكر فليتناوله الأسقف القربان بتفحص واختبار .

القانون الرابع عشر : لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأن الذين سقطوا من الموعوظين يكونون مع السامعين ثلاث سنين ، وبعد ذلك يصلون مع الموعوظين .

القانون الخامس عشر : إنه من تلقاء كثرة السجس والتشويش والمشاجرات الحادثة ، لقد استبان لنا بأن ترفع بالكلية تلك العادة الواقعة بخلاف القانون في بعض النواحي : وهو أنه لا ينتقل من مدينة إلى أخرى ؛ أسقفاً كان أو قساً أو شماساً .

(١٩) أى داخل الكنيسة .

(٢٠) أى بعد انقضاء مدة السبع سنين يشاركون المؤمنين في الصلاة ولكن لا يحق لهم شركة التناول إلا بعد

مرور عامين من شركة الصلاة .

(٢١) في الأصل أيس .

فأى من باشر أمراً مثل هذا بعد حدوث حقد المجمع المقدس العظيم ، أو أسلم ذاته وتورط متوهمراً في أمر مثل هذا ، فليكن فعله هذا غير ثابت على كل حال ، وليرجع مقياً في تلك الكنيسة التي فيها قد سيم ذلك الأسقف أو القس .

القانون السادس عشر : إن كافة القسوس والشمامسة وبالجملة كل من كان تحت تفحص القانون ؛ الذين من تلقاء تورطهم في المخاطرة وعدم امتلاكهم مخافة الله تجاه أعينهم ولجهلهم في القانون الكنسي قد ينصرفون من كنيسة ما ، فهؤلاء لا ينبغي أن يكونوا مقبولين في كنيسة أخرى ألبتة ، بل ينبغي أن يجتلب عليهم كل إلزام حتى يرجعوا إلى سكتهم ، أو إذا بقوا مقرين على ما هم عليه من العناد ، يجب أن يكونوا عادى الشركة . وأما إذا تجاسر أحد بأن يختطف من كان يخص آخر غيره ويسميه في كنيسة من غير أن يوافق لذلك رضى أسقفه الذى نزع عنه ، ممن كان تحت تفحص القانون ، فلتكن تلك الشرطونية غير ثابتة .

القانون السابع عشر : من حيث إن الكثيرين من الذين هم تحت تفحص القانون قد يسعون وراء الطمع والاستكثار والأرباح القبيحة ، وقد تناسوا ما كتب في النص الإلهي القائل : وفضة لم يعطها بالربا (٢٢) ، فيدينون مالا طالبين أرباح تعشير المئات بالربا ، قد حكم المجمع المقدس العظيم بأن بعد صدور هذا الحد أى من وجد من الكليروسية أخذاً أرباحاً بالربا من معاملة يمارسها للمعيشة ، أو أنه استعمل ذلك على وجه آخر طالباً نصف جملة المراجعة ، أو أنه يحدث شيئاً آخر بالجملة لأجل اغتنام مراجعة قبيحة فليخلع من الكليروس ، ويكون غريباً من القانون .

القانون الثامن عشر : لقد بلغ المجمع المقدس العظيم بأنه في بعض المدن والأماكن الشمامسة قد يناولون القربان للقسوس ، وذلك ما لم يسلمه قانون ولا عادة أصلاً ، وهو أن الذين لم يمتلكوا سلطاناً على التقديم بأنهم يناولون جسد المسيح للذين يقدمونه . وقد عرف هذا أيضاً : وهو أن بعض الشمامسة قد يتناولون القربان قبل الأساقفة . فليبطل هذا كله ، ولتقف الشمامسة عند حدودها ، عارفين ذواتهم أنهم خدام الأسقف ، وأنهم أدنى مرتبة من القسوس ، وليتناولوا القربان بحسب رتبهم بعد

القسوس ، على أن الأسقف يناولهم أو القس . بل ولا يجوز للشمامسة أيضاً بأن يجلسوا فيما بين القسوس ؛ لأن حدوث هذا الأمر هو واقع بخلاف القانون والترتيب . فكل من لا يريد الخضوع أيضاً والرضوخ بعد صدور هذا الحد أيضاً فليعزل عن خدمة الشموسية .

القانون التاسع عشر : لقد وضع الحد على أولئك الذين تبعوا رأى بولص الشميمصاني^(٢٣) ثم التجئوا إلى الكنيسة الجامعة راجعين : في أن تعاد معموديتهم على كل حال لا محالة . فإن كان قوم في الزمن الماضي قد حسبوا في الكليروس فإن هم قد استبانوا عادمو العيب والملامة فليساموا من أسقف الكنيسة الجامعة بعد إعادة معموديتهم . وأما إذا كان بعد التفحص عنهم قد يجدهم غير مناسبين ، فينبغي أن يقطعوا . ومثل هذا الرسم نفسه فليحفظ في أمر الشمامسات المحسوبات في الزى أيضاً ، من حيث لم تكن عليهم شرطونية ، إنما فليحصوا مع العوام على كل حال لا محالة . القانون العشرون : من حيث إن قوماً قد يحنون الركب في أيام الآحاد وفي الأيام الخمسينية ، فلاح للمجمع المقدس بأننا نقدم الصلوات لله ونحن منتصبون وقوفاً ، لكي تكون كافة الأمور محفوظة في كل أبروشية .

حاشية

« اعلم أن هذا المجمع الأول المقدس لم تثبت له قوانين قط غير هذه القوانين العشرين ، وهي الموجودة باللغة اليونانية واللاتينية فقط . وجميع العلماء الذين جمعوا قوانين المجمع المسكونية والمكانية ما نقلوا غير هذه العشرين قانوناً لهذا المجمع الأول المقدس فقط . وأما الأربعة والثمانون قانوناً الموجودة في اللغة العربية التالية لهذه القوانين

(٢٣) بولص الشميمصاني : Paul of Samosata هو مؤسس القردة المانوية التي تسمت باسمه (Paulicians)

أي البوليصيين (أتباع بولص) . والمانوية هي فلسفة الازدواج والإيمان بوجود عنصرين : الخير والشر ، الأول يمثل بالنور والثاني بالظلام . راجع ما كتبناه في هذا الكتاب عن المانوية في الفصل الخاص بالقديس أغسطينوس ومدينة الله .

في كتاب الناموس العربي لا صحة لها أصلاً . واللاتينيون أيضاً قد نقلوها عن العربي ، مترجمينها لاتينياً أيضاً ، كما هو مضمون عنوانها عندهم ، وذلك رغبة منهم لأجل القانون الرابع والأربعين الداخل فيها الذي يستندون عليه نوعاً ما في امتداد سلطان البابا مطلقاً على زعمهم . وقد قال بعضهم إنها قديماً قد كانت اغتالت من الأريوسية ، وفيما بعد انوجدت محررة عربية . وذلك هذا كله لغو لا حقيقة له أصلاً . والدليل على ذلك :

أولاً : إن الآباء الثلاثة والثمانية عشر الملتزمين في هذا المجمع ما كتبوا قوانينهم باللغة العربية ، بل باليونانية .

ثانياً : إن مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين هو خلاف مضمون القانون السادس الذي هو في جملة العشرين قانوناً الصحيحة ويناقضه ؛ لأن هذا القانون السادس قد يأمر كلا من البطارقة أن يكون مسلطاً على أبرشياته التي وليها والمختصة به ، وهم الروماني والإسكندري والأنطاكي والأورشليمي . وأما مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين الزور يريد أنه كما أن للبطريرك^(٢٤) سلطاناً على من هو دونه ، كذلك لبابا رومية سلطان على البطارقة ، وما يتلوه من نصه .

ثالثاً : إن المجمع الثاني المسكوني المقدس^(٢٥) الذي اعتقبه فإنه في قانونه الثاني يأمر بأن كلاً من الأساقفة أي البطارقة يدبر أبرشياته وألا يتعدى أحدهم على حدود أبرشيات آخر غيره . وفي قانونه الثالث رتب أن تكون تقدمات الكرامة لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومية ؛ لأن القسطنطينية هي رومية الجديدة . وقد اقتدى به أيضاً المجمع الرابع^(٢٦) في قانونه الثامن والعشرين ، والمجمع السادس في قانونه السادس والثلاثين ؛ الذين حددوا بأن أسقف القسطنطينية يكون له التقدم بسوية أسقف رومية القديمة ، وأنه يعظم في الأمور الكنسية مثل ذاك أيضاً ، وأنه يكون ثاني رتبة . فلو كان لذلك القانون الرابع والأربعين المذكور صحة ، كيف كانت لعمري الآباء القديسين في المجمع المسكونية تجرئ على ذلك التقدم ؟

(٢٤) في الأصل يريد أن كالبطريرك .

(٢٥) مجمع القسطنطينية المنعقد عام ٣٨١ . راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

(٢٦) مجمع خلقدونية (٤٥١ م) .

رابعاً : إن زوسيموس البابا ، كان قد ادعى بأن المجمع الأول بنيقية حدد بقانونه لأسقف رومية بأن دعاوى الأساقفة ترفع لديه . ويرجع استئنافها إليه ، وهو يحكم بها ، وطلب إجراء ذلك من المجمع المنعقد وقتئذ في قرطاجنة من أعمال إفريقية^(٢٧) . وأما الآباء هناك فما سلموا له بذلك ، إذ لم يوجد مثل هذا القانون مقيداً عندهم ، وراجعوا التفحص عنه في سجلات قوانين المجمع المودع قيدها يونانياً منذ القديم في كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية ، وعند ذلك اتاهم الجواب من القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية ومن أتيكوس بطريرك القسطنطينية مع نسخات قوانين مجمع نيقية الأصلية وحدوده . وإذ لم يوجد فيها أمر هكذا كما ادعى به البابا المذكور ألبتة ، فحيث المجمع رد الجواب إليه يتضمن نقض ما ادعى به من مطلوبه وباطل إسناده . فلو كان لهذا القانون صحة لكان ظهر في ذلك الحين من السجلات المرقومة القديمة ؛ مع أن ادعاء البابا في ذلك الوقت كان بصدد آخر خلاف نص هذا القانون الزور المذكور .

خامساً : إن المجمع الرابع الخلقيدوني لما أصدر القانون الثامن والعشرين في باب تقدم أسقف القسطنطينية ، رومية الجديدة ، ومساواته أسقف رومية القديمة بالكرامة . وأما نواب لاون البابا في ذلك الحين قاوموا ذلك القانون^(٢٨) ، وادعوا بالنيابة عن البابا المذكور بأن المجمع النيقاوى هذا قد حدد في صدر قانونه السادس من العشرين

(٢٧) البابا زوسيموس (٤١٧ - ٤١٨) : أرسل هذا البابا رسالته بهذا المضمون إلى أساقفة أفريقيا بتاريخ

٢١ مارس سنة ٤١٨ ونصها كالآتي :

“Quamvis Patrum traditio Apostolicae Sedi auctoritatem tantam tribuerit, ut de eius indicio disceptare nullus auderet, idque per canones semper regulasque servaverit, et currens adhuc suis legibus ecclesiastica disciplina Petri nomini, a quo ipsa quoque descendit, reverentiam quam debet exsolvat : .. cum ergo tantae auctoritatis Petrus caput sit et sequentia omnium maiorum studia firmaverit, ut tam humanis quam divinis legibus .. firmetur Romana Ecclesia, cuius locum nos regere, ipsius quoque potestatem nominis obtinere non latet vos, sed nostis, fratres carissimi, et quemadmodum sacerdotes scire debetis ..”

(٢٨) انظر فصل « هراطقة وأرثوذكس » وفصل « روما البابوية » لتفهم موقف البابا ليو الأول العظيم .

قانوناً هكذا : إن الكنيسة الرومانية لها التقدم دائماً^(٢٩) . فعند ذلك لما راجعوا نص القوانين المذكورة ، وتلى هذا القانون في المجمع عياناً ، لم يوجد فيه ذلك النص المزيد في صدره أصلاً . وعند ذلك خجل النواب ونخابوا تجاه المجمع العظيم والقضاة ذوي النباهة المعينين من قبل الملك مركيانوس^(٣٠) الحسن العبادة والجزيل الورع . فلو كان هذا القانون معلوماً حقاً لكان النواب إذ ذاك قد أوردوه في المجمع^(٣١) .

سادساً : إن اللاتينيين في مجملهم الفلورنتيني قط ما أوردوا هذا القانون عند ادعائهم فيما كانوا وقتئذ يحاولون على قيام تلك الرياسة المطلقة التي يرومونها .

سابعاً : إن يوسف المصري الذي كان من أبناء العرب في عصر تاريخ الستة آلاف والتسمائة لكون العالم يعيش بمصر^(٣٢) ، وهو ترجم قوانين الأربعة مجامع المسكونية الكبار من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية ، فإنه أورد ذكر العشرين قانوناً التي لمجمع نيقية الأول مترجماً عربياً . وما أورد غيره لذلك المجمع قطعاً . وفي كتب قوانين المجمع عند ملة السريان وغيرهم من ملل النصراني المشاركة أيضاً لم يوجد أكثر من العشرين قانوناً لهذا المجمع أصلاً . فالملحوظ إذاً أن اللاتينيين لما تملكوا في هذه البلاد العربية دسوا هذه القوانين في ذلك الكتاب ونسبوها للمجمع الأول المسكوني المقدس . وعنها قد أخذت نسخات عديدة ، الموجودة الآن في هذه البلاد العربية^(٣٣) .

(٢٩) Romana Ecclesia semper habuit primatum.

(٣٠) الإمبراطور مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧) .

(٣١) في الأصل : لكنت . . . أوردته .

(٣٢) في رأى العلامة جراف (المرجع السابق ذكره) أن يوسف المصري هذا ما هو إلا قارئ مخطوطة أو مالك لمخطوطة مجهولة المؤلف . وأغلب الظن أن يوسف كان من رجال الإكليروس المصريين على المذهب الملكاني .

سنة ٦٨٩٩ للعالم توافق ١٧ توت سنة ١١٠٧ للشهداء = ٣ شوال سنة ٧٩٢ للهجرة = سنة ١٣٩٠ م .

هناك ثلاثة تقاويم لكون العالم على النحو الآتي :-

في التقويم السكندري يبدأ الكون ٤٥٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح .

في التقويم الأنطاكي يبدأ الكون ٥٤٩٠ سنة قبل ميلاد المسيح .

في التقويم البيزنطي يبدأ الكون ٥٥٠٨ سنة قبل ميلاد المسيح .

:(يلاحظ أن الكاتب اتبع التقويم البيزنطي لكون العالم) .

(٣٣) في الأصل : اتناخت .

يوليانوس العاصي

(مخطوطة)

تقديم :

هذا النص الذي نحققه عن « يوليان العاصي » جزء من المخطوطة ١٦٤٩ بدار الكتب والوثائق القومية . وكاتبها مجهول لأن المخطوطة مبتورة الأول والآخر . وأغلب الظن أنه واحد من الرهبان اليونان من أتباع مجمع خلقيدونية ؛ لأنه يشير إلى الأرمن والأحباش والنساطرة على أنهم هراطقة . وهو يفسر الأحداث التي وقعت في عصر يوليان بمنطق جريجوري النازيانزين وباسيليوس الكبير وهما من عمد الكنيسة الباكريين .

ويلاحظ أن التفاصيل الكثيرة التي وردت في هذا النص عن اضطهادات يوليان وحزبه وأتباعه للمسيحيين بها كثير من الصحة التاريخية ، وإن كان يعيها تعصب الكاتب الواضح ضد يوليان ، وتفسيره لكل الوقائع تفسيراً غيبياً ، يتفق بطبيعة الحال مع وجهة نظر الكنيسة وروح العصور الوسطى .

النص

يوليانوس العاصي

« وبمساعدة الله تملك يوليانوس العاصي ابن الشيطان في سنة خمسة آلاف وثمانماية وثلاثة وخمسين للعالم ، الموافق ثلاثماية خمسة وأربعين للتجسد الإلهي^(١). ولا تملك الشقى في بلاد غاليه^(٢) ، وفي تلك الساعة وقعت قبة الكنيسة العظما^(٣) وسحقت كل الأواني المكرومة^(٤) التي كانت في وسطها وطحنها . وإن الكافر أراد في الأول^(٥) أن يظهر عدله وأنه عادل صالح ، وأن الملك قسطنطين كان ظالم^(٦) وعدو الله . فأرسل أوامر إلى سائر الأساقفة الذين كانوا منفيين ومطرودين من كراسيهم لكي يمشوا كل واحد إلى كرسيه من غير تعويق^(٧) . وقطع رأس أوسابيوس الخادم . قائلاً إن واحد ماجستروس وخادماً آخر يكفي لخدمة كثيرين : ولأجل هذا كل الطواشييه الذين كانوا في القصر مع الماجستورية أخرجهم وطردهم هذا الكافر بجملته ، مسكناً^(٨) للشيطان ومجد معموديته . وابتدا يعلن أمانة اليونانية^(٩) ، فبغضوه أناساً كثيرين^(١٠) . فحيث^(١١) اليونانيين الذين كانوا في بلاد المشرق وجدوا فرصة وعملوا بالمسيحيين شروراً كثيرة : فأول ذلك أنهم قتلوا جاورجيوس^(١٢) بطريك الإسكندرية وهانوا جسده ووضعوه على جمل وأشهروه

(١) في الواقع حكم يوليان المرتد (العاصي) من ٣٦١ إلى ٣٦٣ م .

(٢) غالة : فرنسا .

(٣) الكنيسة العظمى في بيت المقدس .

(٤) الأواني التي تستخدم في تناول . (٥) في بادئ الأمر .

(٦) ظالماً وعدواً لله .

(٧) في الواقع أراد جوليان بهذا أن يشعل نار الفتنة بين الدوناتيين والأرثوذكس ليكسر شوكة المسيحية .

(٨) مرضاة للشيطان .

(٩) راح يعلن قيمة الديانات اليونانية الوثنية وآلهتها .

(١٠) فأبغضه أناس كثيرون . (١١) فحيث نجد أن .

(١٢) جاورجيوس : جورج الكبادوكي . انظر الفصل الخاص بيوليانوس المرتد .

وجرصوه^(١٣) ، وبعد ذلك خلطوا أعضائه مع أعضاء البهائم المنتنة ، وأحرقوه ودروا رماده . وصلبوا من المسيحيين آخرين كثيرين ، وذبحوهم . وأعضاء بطروفيلس أسقف مدينة سكيفوبولي أخرجوها من قبره ودروها ، ولعبوا بجمجمته مستهزئين . وفي غزة وعسقلان قتلوا الكهنة والعذارى وشقوا بطونهم ، ووضعوا داخلها شعيراً وطرحوها للخنازير ، حتى أكلت أحشائهم . وفي مدينة بعلبك استشهدوا^(١٤) كيرلس الشماس ، وأكلوا فؤاده ، لأن^(١٥) في زمان العظيم قسطنطين هذا نفسه هدم هياكل الأوثان . إلا أن أولئك ، أعنى جميع الذين أكلوا من فؤاده ، تهرت^(١٦) ألسنتهم وسقطت من أفواههم قطع لحم مهريّة منتنة ، ووقعت أسنانهم بعد مقاساة أوجاع عظيمة ، وخرجت أنفسهم بتضجر وكراهة^(١٧) إلى النار الأبدية .

وأما الملحد يوليانوس فإنه عمل شروراً كثيرة بمدينة قيسارية^(١٨) الكبادوكية ، مكافأة^(١٩) عما عملوه أهلها باليونانيين في أيام قسطنطين الكبير ، وهدموا هياكلهم . وكذلك في أريوشة عمل شروراً كثيرة . ومرقص الجزيل^(٢٠) قدسه أخرج^(٢١) أحشائه ومات : وفي مدينة القسطنطينية نصب صنم المشتري^(٢٢) ، وخرب كنائس المسيحيين وأن مارينوس الأسقف الجزيل قدسه شتم يوليانوس شتيمة عظيمة في وجهه ووبخه لأجل كفره وإلحاده وأنه عاص ومارد . وأن يوليانوس احتمل شتيمة وقتل كفيلسوف^(٢٣) . وأن باسيلوس الكبير^(٢٤) كان وقتئذ كاهناً في مدينة الكبادوك .

(١٣) وعرضوه للإهانة الفاضحة . (١٤) قتلوه فنال إكليل الشهادة .

(١٥) لأنه . (١٦) إكتوت .

(١٧) وكراهية . (١٨) قيسارية قبادوقيا .

(١٩) نكاية منه فيما عمله أهلها .

(٢٠) هو مرقص أسقف أرثوذا . انظر الفصل الخاص بيوليانوس المرتد .

(٢١) أخرجت أحشاؤه .

(٢٢) المشتري (جوبيتر) : من Jovis-pater في عقيدة الرومان «روح السماء» ، وإله الضوء والرعد ، ثم رب المحاربين ، ومرشد الطريق ، وإله القسم كما وأنه قبل اقتباسه سمات زيوس اليونان ليطابقه كان سيد الآلهة الرومانية الأعظم "Jupiter Optimus Maximus" ، وكان معبده في الكابيتول ، وقد استخدم هوراس اسمه مرادفاً للسماء : (manet sub Jove frigido venator)

(٢٣) لأنه كان فيلسوفاً ذا شعبية كبيرة . (٢٤) هو رئيس الديارة في الكنيسة الشرقية .

وفي السنة الثانية من ملكه أمر أن لا يتعلموا المسيحيين^(٢٥) علوم اليونانيين .
ولأجل هذا^(٢٦) الفيلسوف أبولليناريوس^(٢٧) وضع صناعة في الكتب الإلهية وقياسات
اليونانيين ، وأفاد المسيحيين كثيراً .

وأمر يوليانوس أيضاً أن ينفي أثاناسيوس^(٢٨) الكبير من كرسيه ، فحزن الشعب
وبكى لأجله كثيراً ، لأنهم عذبوا مثل هذا الراعي الصالح القديس . وأن القديس
قال لهم لا تبكوا لكن افرحوا لأن هذا الغيم إلى مدة قليلة يتشتت سريعاً . قال
هذا ، وبما أنه قديس تقدم وأنبا بما سيكون ، لأنه عرف أن الله أزمع أن يقطع حياة
يوليانوس سريعاً . وبعد ذلك نفى تيطس القديس أسقف البلقا ، ودورثاوس الكثير
الجهاد أسقف صور ، وأمات^(٢٩) رؤساء واراكنته . وكان الكل^(٣٠) خبثه في بعض
الأوقات أن يشابه^(٣١) فضائل المسيحيين ، فأمر أن يقام باليتامى والأرامل والغرباء بحاجاتهم
الضرورية لكن جميع أفعاله كان يعملها لأجل الناس الساذجين حتى يركنوا إليه . وأما
صورة الدنانير وغيرهم من الفضة والنحاس فكان يرسم عليهم صورة الأصنام وهم ديوس^(٣٢)

(٢٥) أن لا يتعلم المسيحيون . (٢٦) [فإن] .

(٢٧) لما حرم جوليان على المسيحيين التعليم أو التعلم في المدارس الوثنية قام أبولليناريوس الأب ومن بعده
أبولليناريوس الابن بابتداع أدب مسيحي من طراز جديد لخدمة الشباب المسيحي الذين حرّموا من التعليم وتلقى الثقافة
الكلاسيكية : فقاما بترجمة المزامير إلى صيغة أشعار شبيهة بأشعار بندار وأعادا كتابة الأناجيل في أسلوب الحوار
على منوال المحاورات الأفلاطونية . ولقد ضاع هذا الأدب العرضي كله بعد وفاة جوليان المرتد مباشرة .

(٢٨) مار أثاناسيوس بطل الأرثوذكسية السكندرية . انظر فصل « هراطقة وأرثوذكس » :

(٢٩) وقتل . (٣٠) وكان من دلائل خبثه .

(٣١) أن يتشبه بفضائل .

(٣٢) زيوس : في الميثولوجيا الإغريقية نجده أصغر أبناء كرونوس ، وإن كان هومر يجعله أكبر هؤلاء

الأبناء . ولقد خلق زيوس أباه وتربع مكانه على عرش سيد الآلهة .

ويشتق اسمه أصلاً من جذر كلمة تعني « البريق » ، وهو لذلك إله السماء والطقس ، ولكن له إلى جانب هذا
سمات بشرية . ولد زيوس في كريت حيث ووري في كهف على جبل ايدا وكانت مرضعته الماعز آمالثيا . ولكي
يحافظ الكريتيون على سرية خبثه كانوا يقومون بطقوس صاخبة الضوضاء لتغطية صراخه الطفلي . وبعد أن خلق الأب
كرونوس عن عرشه ، اقتسم زيوس وإخوته الكون فيما بينهم بالاقتراع ، فكان من نصيب زيوس السماء
في حين اختص بوزيدون بالبحر ، وهيدز بالعالم السفلي . ويمثل زيوس في أساطير عدة عاشقاً لعدد هائل =

ولأريس (٣٣) وإرميس (٣٤) . وأمر كل من لا يسجد لهم يمات (٣٥) كعدو للملك . وكان إذا أراد أن يعطى الأجناد علوفتهم (٣٦) كان يضع ناراً أو لباناً ، ويغتصبهم (٣٧) بأن يبخلوا للصنم ، وبعد ذلك يأخذوا (٣٨) عارفهم . وكل من يخالف ذلك يؤدبه كعاص . ومن جملة أفعاله النجسة تفكر (٣٩) بأن يفعل هذا الفعل لأنه عرف أن كل المسيحيين في الجمعة الأولى من الأربعين المقدسة يعملون صياماً عظيماً . وهذا : بما أنه آلهة للشيطان ، وجد فرصة لكي ينجس المواكل (٤٠) لها والخبز بدم الضحايا الطفسة (٤١) التي يعملها للأوثان . وهكذا عمل وأرسل إلى الأسواق ، وأمر بأن لا أحد يتجاسر بيع شيء

= من الإلهات . ولكن الأغارقة كانوا يمتنون فكرة تعدد الزوجات ولذا فقد سادت فكرة ارتباطه الشرعى بإلهة واحدة هي هيرا .

ولكن زيوس كان لها زوجاً خائناً : ولذا فقد كانت لزيوس علاقات مع نسوة من جنس البشر : فتزوج ميثيز (الحكمة) وأنجبت منه أثيني ، ثم تزوج ديميترو منها ولد بيرزيفون ، ثم تزوج ليتو التي أنجبت أبولو وأرتميس ، ثم تزوج هيرا ومنها أنجب هيبى وآرس وإيليثيا ، ثم تزوج مايا ، ابنة أطلس ، التي ولد لها هرميز . وزيوس هو مدبر الخير والشر في مصائر البشر ، ولكنه ميال إلى الخير ، فهو الأب المخلص (Zeus Soter) وهو معطى القانون الذى يدبر سير الأمور على حال من التناغم ، وهو عالم الغيب ، وقد يكشف عنه للخاصة من البشر . وهورب البيت (Herkeios) وحامى الحرث (Ephestios) وحقوق الضيافة (Xenios) والحرية (Eleutherios) وهو الذى تشبه به سيد آلهة الرومان جوبيتر .

(٣٣) أيريس : هي إلهة قوس قزح ، وهي ابنة ثاوماس ابن البحر (بنطس) والكثيرا ابنة المحيط (أوقيانوس) . كما وأن أيريس رسولة الآلهة خاصة هيرا . وعند ثرجيل قوس قزح هو مسارها . وهي بعد كل هذا زوج زفيروس « ريح الغرب » .

(٣٤) ارتيميس : هي ابنة زيوس من زوجه ليتو . وهي آلهة حياة البرية ، عذراء الصيد وتتألف حاشيتها من العذارى الساحرات جمالا . كما وأنها آلهة « الميلاد » . ولقد شبت بالقمر ، وكانت أفيسوس من مراكز عبادتها الشهيرة . ويرتبط اسمها بالديبة ، فقد كانت الفتيات اللاتي يقمن بخدمتها في اكروبول آثينا يلقبن « بالديبة » . ولم تصادف ارتيميس احتراماً كافياً في الإلياذة ، إذ قد صورها هومر ذليلة مهذرة الكرامة بقوس هيرا . وقد رأى الرومان في ارتيميس آلهتهم ديانا .

(٣٥) بأن يقتل . (٣٦) مؤنهم .

(٣٧) ويجبرهم على أن يشعلوا البخور للصنم

(٣٨) يأخذون . (٣٩) فكر في أن .

(٤٠) المأكولات . (٤١) المنخنقة .

من الأطعمة التي له إلى أن تفرغ المواكيل التي طرحها الملك . وهكذا صار حسب مرسومه . وأما المسيحيين فلم يعلموا ولا عرفوا أصلاً ماذا فعل الملك النجس . لكن برأى الله العظيم لم يهمل جبلته ^(٤٢) أن تتدنس بهذا الرأى النجس ، لكنه أرسل شاهده المعظم ثاودوروس ^(٤٣) إلى البطريرك أفصوكسيوس ، الذي كان وقتئذ على القسطنطينية وقال له أن يعلم المسيحيين بما ارتآه ^(٤٤) الملك وأن يوصيهم بأن لا يشتروا من المواكيل المتدنسة شيئاً ، وأن البطريرك أجابه : لكن ماذا يأكلون ويشربون ^(٤٥) المسيحيون ؟ وأن القديس قال له أسلق قمحاً واعمل سليقة وأعطيهم يأكلون حتى يشبعوا . حينئذ سأله البطريرك أن يعرفه من هو ، فقال له القديس : أنا ثاودوروس الثيروفى الذى استشهدت في مدينة أوخايطا ^(٤٦) ، فأرسلنى الله أن أكشف لك رأى يوليانوس العاصى فلهذا أعمل كما أقول لك : ولحين نهض البطريرك وأمر أن يجتمع كل المسيحيين في الكنيسة ، وأخبرهم بالمنظر الذى ظهر له ^(٤٧) ، وبعد ذلك سلق قمحاً ، وفرق على الشعب وأكأوا ، ولم يشتر أحد من تلك المواكيل الدنسة أصلاً حتى انتنت في تلك الجمعة ، وطرحت في البحر ، وضحكوا على الملك المنافق وأبيه الشيطان .

وكان ^(٤٨) في قيسارية فيلبس الأمراء النازفة الدم ^(٤٩) ، التي شفاها المسيح في اجتيازه ، لأجل أمانتها وتورعها ، عملت تمثال المسيح ^(٥٠) ، وأقامته أمام بيتها تذكاراً وشكراً للعجب ^(٥١) الذى صنعه الرب معها ، فأفرع ^(٥٢) تحت أقدام ذلك التمثال نوعاً ^(٥٣) من الحشيش ^(٥٤) كان يشنى ^(٥٥) لكل مرض وسقم لمجد المسيح .

(٤٢) رعيته .

(٤٣) القديس ثيودورس : لا يعرف له تاريخ ، وتقول الرواية إنه كان جندياً رومانياً رفض عبادة الأوثان وأشعل النار في أحد المعابد فعذب بأن ألق في النار ، ويوضع في عداد القديسين جورج وديمترى .

(٤٤) دبره . (٤٥) ماذا يأكل ويشرب .

(٤٦) في ولاية بنطس Euchaïta (٤٧) بالرؤية التي ظهرت له .

(٤٨) وكانت [تعيش] ! . . .

(٤٩) تلك المرأة التي كانت تتزف دماً منذ آمد بعيد والتي شفاها المسيح أثناء عبوره ببلدتها .

(٥٠) صنعت تمثالاً للمسيح . (٥١) للمعجزة التي صنعها .

(٥٢) فنبت وترعرع . (٥٣) نوع .

(٥٤) العشب . (٥٥) شافيا .

فلما سمع الكافر أيوليانس بالعجائب الصائرة في كل حين بذلك العشب فأمر اليونانيين الساكنين هناك أن ينزعوا ذلك التمثال . وكانوا يسحبوه ^(٥٦) في شوارع المدينة بشتائم وإهانات وأوقفوا ^(٥٧) موضعه صنم ^(٥٨) باسم يوليانس فنزلت نار من السماء وأحرقتة وصار رماداً . وأما تمثال المسيح فأخذوه ^(٥٩) المسيحيون وأخفوه .

وفي مدينة نيكوبولس التي في فلسطين كان هناك ينبوعاً بهيئاً ^(٦٠) الذي كان يعمل عجائباً ^(٦١) كثيرة ليس في الناس فقط لكن في الحيوانات والبهائم ، لأن من ذلك الينبوع غسل المسيح أقدامه لما كان متعوباً ^(٦٢) من الطريق ، فأمر يوليانس فأملوه تراباً ^(٦٣) .

وفي مدينة هرمز التي في الصعيد كان ^(٦٤) هناك شجرة يقال لها الفارسية كانت تعمل أشفيه ^(٦٥) عظيمة لأن ^(٦٦) لما هرب يوسف الخطيب إلى مصر مع السيدة ^(٦٧) والمسيح جاسوا تحت تلك الشجرة ، لأجل هذا كانت لها النعمة . فأمر أن تقطع ، والتابوت الذي كان ^(٦٨) فيه بعض أعضاء السابق المكرمة موضوعة ، أحرق بالنار مع الأعضاء التي فيه وذرا رماده في الهواء . ولما كان الشقي في أنطاكية مضاً ^(٦٩) إلى بلد دفنا ^(٧٠) إلى هيكل أبللون وضحي ذبائح وعزم تعزيمات حتى يحدثه الصنم فصمت الصنم ولم يتكلم . فعلم أن علة سكوته هي أن أعضاء الشهيد في الكهنة بابيلا هناك كانت موضوعة في تلك البلد وغيره من القديسين ، فأمر أن يخرجوهم

(٥٧) وأقاموا .

(٥٩) فقد أخذه .

(٦١) معجزات .

(٦٣) فردموه حتى امتلأ تراباً .

(٦٥) معجزات شفاء للأسقام .

(٦٧) مع السيدة مريم العذراء .

(٦٩) مضى .

(٥٦) يحرقونه .

(٥٨) تمثالا .

(٦٠) ينبوع بهي .

(٦٢) متعباً .

(٦٤) كانت .

(٦٦) لأنه .

(٦٨) كانت .

(٧٠) بلدة دفي Daphney - النظر الفصل الخامس بجوليان المرتد .

كلهم من هناك ويطرحوهم ، وهكذا صار . وفي تلك الليلة نزلت نار من السماء وألهمت ذلك الصنم والهيكل ، فبهتوا^(٧١) الكل وتعجبوا من قوة الله العظيمة ، وأن^(٧٢) الملك الكافر خزي وخاف . ولكن حكمة الشيطان أيضاً أن يقول^(٧٣) النصارى أحرقوه ، ومساك^(٧٤) الكهنة وعذبهم لكي يقرؤا من هو الذى أحرق الهيكل ، وكثير منهم من شدة العذاب ماتوا ، والباقي^(٧٥) صرحوا ليس فى المسيحيين ولا غيرهم ، لكن الله هو الذى أنزل ناراً من السماء . وأن العاصى لما سمع جواب الكهنة غضب كثيراً ؛ وهكذا تحارب^(٧٦) مع الله حتى صار خارجاً عن عقله ، وأمر أن تغلق كنائس المسيحيين وأن تنهب أموالهم ، وجميع ما يملكوه^(٧٧) الكهنة ، وأرسل اثنين من عماله إلى كل صمق وهم : فيليكس ويوليانوس وأعطاهم استيذان^(٧٨) على المسيحيين بأن مهما^(٧٩) استطاعوا من الشرور يفعلوه بهم . ولما وصلوا إلى المسيحيين ابتدأوا بتعذيبهم ، وقالوا لهم : أين هى قوة مسيحكم العظيمة حتى تنقذكم من أيدينا ؟ وأن فيليكس لما نظر الأواني الذهب^(٨٠) والفضة التى أخذوها من الكنائس قال : انظروا بأى أشياء جزيلة القيمة نفيسة يخدمون ابن مريم ، لكن الله انتقم للحين من فيليكس ، لأنه خرج من فيه دم^(٨١) كثيراً ، وتحول وجهه إلى خلف ، وتقذر ويس^(٨٢) ، وأخذ نفسه الشيطان^(٨٣) . وأما رفيقه

(٧١) فبهت .

(٧٢) كما وأن .

(٧٣) سلطه الشيطان لأن يقول إن النصارى . . .

(٧٤) فقبض على الكهنة .

(٧٥) وبقيتهم صرحوا أن النار ليست من فعل المسيحيين ولا غيرهم . . .

(٧٦) خرج عن طاعة الله . (٧٧) يملكه .

(٧٨) سلطاناً ، إذناً .

(٧٩) بأن يستعملوا كل ما يستطيعون من إتياله من شرور ضد المسيحيين .

(٨٠) الذهبية . (٨١) دم كثير .

(٨٢) وحل به وسخ وأصيب بالتييس . (٨٣) وحلت به روح شيطانية .

يوليانس فوقع في مرض عظيم تهرت^(٨٤) أمعائه وأنتنت ، وخرج زبله^(٨٥) من فيه ، وهكذا بعد تعذيب^(٨٦) كثيرة أسلم نفسه الشقيّة .

وفي ذلك الزمان ، كثير^(٨٧) من الأحياء انخدعوا وجحدوا أمانة المسيح^(٨٨) : قوماً^(٨٩) منهم لأجل المواهب والعطايا ، وآخرون لأجل الكرامات ، وغيرهم لأجل خوفهم ، الذين منهم^(٩٠) ثاوكتكتوس الكاهن الذى كان يخدم في أحد الكنائس ضل وانخدع بالعطايا ، وسجد للأصنام ، وللحين أدبه الله ، نخرج^(٩١) من جسده دوداً وأكلوا^(٩٢) لحمه ومات . وأيرون أستف الصعيد عبد للأصنام ، لكن ربنا انتقم منه ليعتبروا الناس^(٩٣) به لأن لحمه انحل^(٩٤) مثل الشمع ، وهر^(٩٥) جسده ، ومن شدة نتانته طرحوه في الطريق ، وبوجع عظيم وإكراه جسيم مات ومضى إلى الجحيم . ولكن كثيرين من المسيحيين في ذلك الوقت استبانوا^(٩٦) عظمى النفوس ، متعالين^(٩٧) الهمة ، متشجعين في الأمانة ، الذين منهم أرثامبوس أمير مصر نقض عبادة الأوثان فقطعوا رأسه بالسيف . وفي أترابية قطعوا رأس أميليانوس القائد . وآخرون كثيرون استشهدوا في مواضع متباينة لأجل محبة المسيح . فأحب الملك ساحراً مجرباً^(٩٨) ممتلئاً من كل الفواحش والنهم والشطارة بهذا المقدار ، حتى أنه صار قواداً على ابنته يدفع جسمها لأى من طلبها . وفيما كان في بيته يسحر ويعزم ، خرب بيته ومات تحت الردم مع تلك الحصى^(٩٩) الذى كان عند الملك بنوع امرأة .

(٨٤) تقطعت أوصال أمعائه .

(٨٥) وخرج نثته من فيه .

(٨٦) بعد عذاب كبير .

(٨٧) (فإن) كثيرين من . . .

(٨٨) ارتدوا عن المسيحية إلى الوثنية التى نادى بها يوليان .

(٨٩) قوم . (٩٠) ومن بين هؤلاء :

(٩١) إذ خرج . (٩٢) ديدان أكلت .

(٩٣) ليكون عبرة وعظة للناس . (٩٤) ذاب .

(٩٥) تفكك . (٩٦) ظهوروا .

(٩٧) متعالى . (٩٨) وكان الملك يحب ساحراً . . .

(٩٩) أى هلك ذاك الساحر ومعه أحد الحصيان الذى كان على علاقة شاذة مع الملك يوليان .

وأن يوليانس العاصي أراد أن جميع ما قاله المسيح ليس له حقيقة^(١٠٠) ، فأمر اليهود أن يبنوا هيكل سليمان الذي بأورشليم ، الذي كان هدمه سابقاً تيطس^(١٠١) الملك ، وكل قول الرب الذي قاله : لا يترك فيه حجر على حجر^(١٠٢) . فاجتمع اليهود من كل صقع بفرح ، وأعطوا ذهباً وفضة لا تحصى وجمعوا أشياء كثيرة حتى إن المجارف والمعاول وسائر آلة^(١٠٣) البناء ، عملوها من فضة وأرسل هذا العاصي أناساً من قبله ليقفوا^(١٠٤) على البناء لكي يصير العمل باهتمام وبإسراع . ولما ابتدأ يحفر^(١٠٥) الأساس القديم ، أنفق أموالاً عظيمة ، وابتدأوا بالبناء فثارت عليهم بغتة رياح عاصفة من أربع جهات العالم ، وبدد محفر الكلس^(١٠٦) جميعه الذي كان بهذا المقدار نحو مائة ألف كيل مجموع^(١٠٧) في مكان واحد . فتجلدوا^(١٠٨) اليهود أيضاً وبنوا ، وكانوا^(١٠٩) جميع ما يبنوه^(١١٠) بالنهار يهدم بالليل ، فتعبوا أياماً كثيرة ولم يستبين^(١١١) ما عمروه ولا مقدار قدم . أخيراً اليهود الأنجاس ، بما أنهم أمة عاصية ، نظروا^(١١٢) أن الله ليس له إرادة في بنائه ، وكانوا يبنوا بتألم منهم وإكراه . وفي أحد الأيام خرجت من الأساس نار وأحرقتهم كلهم ، والصناع والواقفين هناك . وهكذا لما رأوا^(١١٣) أولئك هذا الانتقام المرهوب لم يتجاسروا

(١٠٠) أراد أن يبرهن للناس أن ما قاله المسيح في الأناجيل ليس حقيقياً .

(١٠١) تيطس الملك : هو تيطس فلافيوس سابينوس قريازيانوس إمبراطور روما من ٧٩ - ٨١ م .

وتيطس هو الذي غزا أورشليم في عام ٧٠ م ، ولا يزال تذكّار نصرتيتوس على اليهود ، الذي أقامه دوميتيان على Via Sacra موجوداً حتى اليوم في روما . ويقال إن تيطس قد وقع في غرام أجرييا ابنة الملك اليهودي هيرود فاصطحبها معه بعد نصره إلى روما . ولكن الرومان استأخوا من اقتران اسم الإمبراطور بفتاة يهودية ، فاضطر تيطس إلى طردها من لدنه ، كما أوضح ذلك Suetonius بقوله : "invitus invitam" .

وقد كانت هذه القصة الغرامية بين تيطس وأجرييا منبع الإلهام لرأسين في تراجيديته Bérénice

(١٠٢) أى في هيكل سليمان . (١٠٣) آلات .

(١٠٤) ليشرفوا على . (١٠٥) ولما ابتدأ العمل في حفر .

(١٠٦) الحجر . (١٠٧) مجموعاً .

(١٠٨) فتجلدوا . (١٠٩) وكان .

(١١٠) يبنونه : يقيمونه . (١١١) لم يستبين .

(١١٢) أيقنوا . (١١٣) لما رأى .

أصلاً أن يقتربوا من ذلك المكان . فوَقْتُتْظَد ظهر الصليب الحى المكرم من السماء من نور ودائره^(١١٤) كان إكليلاً^(١١٥) يشرق لمعانه ، من الجبلجة إلى جبل الزيتون ، فائق البهاء والإشراق عن الذى ظهر فى أيام قسطنطين المعظم ، وارتسم الصليب فى أطراف السترة^(١١٦) فى الكتب وفى سائر أوانى الكنائس وفى الأثواب ، ليس أثواب المسيحيين فقط لكن وأثواب اليهود الساكنين بأورشليم وبأنطاكية ، وبمقدار ما كانوا ييغضوا^(١١٧) الصليب ويشتموه ، كان يوجد مرسوم أكثر فى أثوابهم .

وأن يوليانس العاصى أراد أن يمضى إلى بلاد الفرس فأرسل إلى أماكن عدة . لكهنة الأصنام حتى يعملوا أعزام وأسحار^(١١٨) شيطانية لكى يعلم إن كان هو مزعم أن يغلب الفرس بقوة الأبالسة . فأتاه خبر شيطانى يقول هكذا : فى هذا الوقت كل الآلهة تتبعك . وتمنحك الغلبة ، وأنا المريخ ابتدى^(١١٩) أن أحارب معك . وهكذا اتبع الملك المنافق المايت الغمر [هكذا] ومضى إلى الفرس . فلما أتى إلى أنطاكية ، شتموه أهلها شتائم ومسبات عظيمة ، وهناك عمل شروراً كثيرة بالمسيحيين وهكذا تحرك وأتى إلى النهر الذى هو فاصل بين أرض الروم والفرس واجتازه ، وإن شاب كان من الفرس من الله^(١٢٠) ، قال للملك ضاحكاً به^(١٢١) : لا تحمل مع عساكر مواكيل^(١٢٢) كثيرة لأنها ليست معدومة هذه الطريق^(١٢٣) . وأن العاصى صدق لأنه لم يعرف بأن^(١٢٤) من الفرس هو ، فأحرق جميع ما كان معهم من المراكب الصغار الذى^(١٢٥) قطعوا بها النهر المذكور ، التى كان فيها جميع مواكيل العسكر . وهكذا أخذهم فى البر ، وأجازهم^(١٢٦) فى أماكن عدة صعبة ، وأن

(١١٤) ومن حوله .

(١١٦) أغطية أو أغلفة .

(١١٧) ييغضون .

(١١٨) يقصد التنجيم بالتعاويد السحرية لرؤية الغيب .

(١١٩) ابتغى (؟) .

(١٢١) مفرراً به .

(١٢٣) فى هذا الطريق .

(١٢٥) التى .

(١١٥) إكليل .

(١٢٠) وحدث أن شابان من بلاد الفرس أرسله الله...

(١٢٢) مؤن ، زاد من .

(١٢٤) بأن هذا الشاب من بلاد الفرس .

(١٢٦) وأجاز معهم .

الرجل الذى استهزأ به (١٢٧) تركهم ومضى هارباً . ومكث العاصى يوليانس مع
عسكره فى البرية لا يعلمون أين يتوجهون : من جهة واحدة (١٢٨) تحيروا كيف
الطريق ، ومن جهة أخرى بسبب أن لم يبق معهم شىء من المأكول . فهلك
عسكره وحصل فى جوع عظيم بهذا المقدار (١٢٩) حتى أكلوا دوابهم . وغير ذلك من
الحيوانات ذوات الأربع النجسة الغير طاهرة . وبعد ذلك ورد رجز الله على الكافر
يوليانس ، وفيما هو جالس على غفلة ، وافته حربة غير منظورة ، طعنته فى
جانبه الأيسر ودخلت إلى قلبه ، وهذا كان بصلاة (١٣٠) العظيم باسيليوس ؛ لأنه
لما اجتاز (١٣١) بقيسارية للمودة التى كانت بينهم (١٣٢) والألفة والمكاتبات الكثيرة
التى كانوا (١٣٣) يرسلوا بها بعضهم بعض (١٣٤) ، مضى باسيليوس الكبير حتى ينظر
إلى هذا الكافر يوليانس بما أنه ملك فأخذ له هدية وهو قليل من البقسماط
الشعير ، الذى كان هو يأكل منه . فلما نظر ذلك الملحد ضحك عليه وأمر أن
يؤتى للقديس هدية منه وهو الحشيش الذى تتغذى منه الحيوانات عوض هديته .
فقال له : بعدل عملت أيها الملك لأنى من غذائى الذى أغتذى منه أهديت لك ،
هكذا وأنت من هذا (١٣٥) الذى تغذى منه شبه الحيوانات كافيتنى وأهديت لى .
وأن الملك قال له : أثبتت يا باسيليوس فإنى إذا رجعت من الفرس أريد أن أعرفك
من أنا لأنى على ما أرى بأنك لم تعرفنى بعد . وأن القديس قال له : إن أنت
رجعت من الفرس غالباً فإن مسيحي يكون عاجزاً . وهكذا القديس مضى إلى
قلايته ، والمغتصب صار فى طريقه . وبعد أيام جمع القديس شعب المسيح فى

(١٢٧) غرر به . ١ (١٢٨) لأنهم من جانب .

(١٢٩) وحل بهم جوع عظيم لدرجة أنهم . . .

(١٣٠) بفعل صلاة : نتيجة صلاة القديس . . . (١٣١) يوليان .

(١٣٢) بينهما : أى بين يوليانوس وباسيليوس . (١٣٣) كانا .

(١٣٤) يرسلان بها أحدهما الآخر . (١٣٥) الغذاء .

هيكل القديس المعظم مركوريوس^(١٣٦) الشاهد وعملوا تضرع^(١٣٧) طوال الليل مع كافة الشعب الصغار والكبار ، طالبين من الله أن يهلك يوليانس العاصي ، ويأخذوا^(١٣٨) الكنائس والمسيحيين راحتهم . وأن القديس فيما كان يتضرع بدموع ، أتاه منظر وأبصر بأن القديس مركوريوس ضرب يوليانس العاصي بالرمح في قلبه فقتله . وهكذا مضى إلى أيقونة القديس مركوريوس لينظر ، فباله من عجب^(١٣٩) أبصر رحه يقطر دماً . فقال نحو^(١٤٠) شعب الله : أعطوا مجداً لله لأن العاصي يوليانس قد هلك . فسارعوا بأجمعهم فنظروا رمح القديس يقطر دماً وعابنوا العجب المعجز ، ومجدوا كلهم الله . فهذا الانتقام جرى على يوليانس لأجل افتراءه على الله . ولما انسكب الدم من جنبه ومن فيه أخذ اللعين من الدم براحتة وألقاه إلى العلو قائلاً : يا شاباً ناصري لأجل أمك ذبحتني وغلبتني تفرح بي شامتاً^(١٤١) . وهكذا أسلم نفسه الشقية وأخذها الشيطان .

ولما كان هذا حياً^(١٤٢) في بلاد الفرس أرسل واحداً من الأبالسة^(١٤٣) إلى بلاد المغرب لكي يأتيه بنجر يريده ، وكان في الطريق راهب قديس ناسك ، فلما نظر

(١٣٦) مركوريوس : يحتفل بيوم عيده في الخامس والعشرين من نوفمبر . وأسطورة هذا القديس تقول إنه كان جندياً من أصل سكيثي أبدي شجاعة فائقة في الحرب ضد البرابرة بما قربته إلى الإمبراطور ديجيوس . على أنه - بسبب إيمانه المسيحي - رفض المشاركة في تقديم الأضحيات للإلهة أرتميس . وبعد تعريضه لصنوف شتى من الاضطهاد والعذاب أرسل إلى موطنه في قبادوقيا وأعدم في قيصرية . وهناك أسطورة أخرى - هي التي يوردها الكاتب هنا - عن صلوات القديس باسيليوس العظيم الرب لكي ينتقم من يوليان المرتد ، ثم عن إرسال الله القديس ميروكوروريوس ليقول يوليان المرتد بحرته أثناء قيادته حملة ضد الفرس .

(١٣٧) تضرعاً . (١٣٨) فتتم الكنائس بالراحة .

(١٣٩) إذ أنه أبصر . (١٤٠) مخاطباً شعب الله .

(١٤١) أيها الناصري لأجل أمك ذبحتني وغلبتني ، لك أن تفرح شامتاً ! .

(١٤٢) يقص الكاتب هنا رواية عن يوليانوس أثناء قيادة حملته ضد فارس ، فهي بالطبع قد حدثت قبل

وفاته ، ولكن الكاتب أوردتها بعد تسجيله لحادث الوفاة .^١ « ولما كان يوليانوس لا زال حياً في بلاد الفرس . . . »

(١٤٣) يريد الكاتب أن يقرر هنا أن يوليان كان - يستعين في إنفاذ أغراضه بالجن عن طريق مقدرة

الفائقة في أفانين السحر .

إبليس عمل صلاه ومنعه من المضي فلم يقدر أن يجتاز . فرجع بغير جواب إلى يوليانس فسأله : لم بطأ^(١٤٤) ، ولم لم يأت به بالجواب . وأن الشيطان أخبره بالأمر الذي كان ، ومنع الراهب إياه من الذهاب^(١٤٥) إلى هناك واسم^(١٤٦) الناسك يوبيوس . فلما سمع ذلك يوليانوس من الشيطان ، غضب وعمل قسم^(١٤٧) بأنه في حال رجوعه يبيد من الأرض كل شكل رهباني . وكان واحد من المتقدمين^(١٤٨) في دولته وأشرفهم ، فلما سمع أن الراهب بصلاته منع الشيطان من طريقه ، عرف مقدار الدالة المختصة بأصحاب الأسكيم الملائكى عند الله . ولما رجع^(١٤٩) إلى مكانه فرّق جميع ماله الذي كان له على الفقراء والأيتام والغرب^(١٥٠) ، ومضاه فوجد ذلك الراهب يوبيوس الناسك القديس ، وصار عنده راهباً عظيماً^(١٥١) ، فوجد ذلك وفاق في فضائله فوقاً^(١٥٢) جسيماً وكان يكرز في كل صقع بالقوة التي ماكوها .
الرهبان على الأبالسة .

وفي مدينة كاريّا ترك يوليانس أجناداً وحراساً ليحفظوا هناك مكاناً مظلماً . معتماً ، كما كانت عاداتهم بذلك ، لأن النجس كان يدخل إلى هناك ويعمل ذبائح ويعزم تعزيمات . فبعد ما مات فتحوا أولئك الجند الحراس ذلك المكان فوجدوا داخله نساء معلقات من شعورهم^(١٥٣) ، عاريات ، وأيديهم مبسوطة وبطونهم مشقوقه لأن الكافر كان يعمل صنائعه النجسة داخل أحشائهم ويسألهم^(١٥٤) . إن كان مزماً أن يغلب الفرس .

(١٤٤) لم أبطأ . (١٤٥) الذهاب .

(١٤٦) وأخبره أن اسم الناسك . . . (١٤٧) وأقسم .

(١٤٨) النبلاء أو البارزين .

(١٤٩) هذا النبيل الثرى الذي كان من أتباع يوليان هو الذي وزع أمواله على الفقراء .

(١٥٠) والغرباء . (١٥١) وتعلم على يده فصار راهباً عظيماً .

(١٥٢) تفوقاً عظيماً . (١٥٣) شعورهم . . . أيدين إلخ .

(١٥٤) يسأل الآلهة الوثنية التي كان يقدم لها هذه الأضحيات الآدمية عما إذا كان مقدراً له النصر على

الفرس في حروبه .

وفى أنطاكية ، فى داخل القصر وجدوا صندوقاً ممتلئاً من رؤوس الرجال والنساء والأولاد الذين ذبحهم لأجل أسحاره (١٥٥) . وليس ذبح أناس فقط لكن وبهائم وغربان وكلاب ودبابات ، وكان عالماً بكل سحر وكفر ونفاق حتى إنه فاق بهذا المقدار على جميع اليونانيين الذين تقدموه . وكان رجاءه (١٥٦) كله بالأوثان ولأجل كفره وعدم أمانته أضاع نفسه وجسده وملكه . ولما قطعه السيف الإلهى كان له من العمر واحد وثلاثين سنة ، وتملك ستين وتسعة أشهر ، وأخذ نفسه الدنسة ، صاحبة ومعشوقة الشيطان ، ووضعها فى العمق الأقصى فى مكان العذاب حيث هيرودس هناك لكى يكونا معاً ؛ لأنهما كلاهما مكوك [هكذا] وأعداء المسيح . وأما جسده النجس فدفنوه أصحابه (١٥٧) ، لكن الأرض لم تقبله بل ألقته خارجاً ، فلما عاينوه أولئك ، ياله من عجب ، خافوا الرب خوفاً عظيماً . وبعد ذلك جمعوا جسده وأخلطوه مع أعضاء الحيوانات الميتة ودفنوه ، وتزايد نهمهم ، حتى أن لم يقدر أحد بأن يقف هناك من نتائهم ومن الدود الذى كان ينبع من جسده النجس . كمل ملك يوليانوس العاصى .

(١٥٦) رجاءه ، يقصد كل أملة .

(١٥٥) طقوسه السحرية .

(١٥٧) فقد دفنه أصحابه .

المصادر والمراجع

BIBLIOGRAPHY

أولاً : المخطوطات :

- (١) المخطوطة ١٦٤٩ بدار الكتب المصرية بعنوان « يولييانوس العاصي » .
- (٢) المخطوطة بعنوان « قوانين المجمع المسكوني الأول الملتئم في نيقية » ، بمكتبة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

ثانياً : المصادر والمراجع :

- Aberg, N., *The Merovingian Empire*, Stockholm, 1947.
- Augustine, St., *De Civitate Dei*, in P.L., Vol. 41. Eng. trans. by J. Healey. London, 1945.
- Aurelius, Marcus, *Meditations*, Eng. trans. by H. Mattingly.
- Badcock, F.J., *The History of the Creeds*, London, 1930.
- Baraclough, G., *The Medieval Empire : Idea and Reality*, London, 1950.
- Boissonade, P., *Du Nouveau sur la Chanson de Roland*, Paris, 1953.
- Burns, C.D., *The First Europe*, London, 1947.
- Bury, J.B., *History of the Later Roman Empire*, London, 1889.
- Calmette, J., *Charlemagne : sa vie et son oeuvre*, Paris, 1945.
- *Cambridge Medieval History*, vols. i to iv.
- Cassiodorus, *Variae* (ed. Mommsen), in M.G.H., *Auctores antiquissimi*, vol. xii, 1894.
- Crump, C. and Jacob, E., (editors), *The Legacy of the Middle Ages*, Oxford, 1926.
- Dawson, C., *The Making of Europe*, London, 1939.
- Denzinger, H., *Symbolorum, Friburgi Brisgoviae*, 1911.
- Duchesne, A., *Historia Francorum Scriptores* (5 vols.), Paris, 1936-49.
- Duchesne, L., *Liber Pontificalis* (2 vols.), Paris, 1884-92. 3rd ed. C. Vogel, Paris, 1955-57.

- Dvornik, F., *The Idea of Apostolicity in Byzantium and the Legend of the Apostle Andrew*, Camb. Mass., 1938.
- Einhard, *Vita Karoli Magni*, in S.R.G., in usum Scholarum, Neudruck, 1947.
- Eusebius, *The History of the Church from Christ to Constantine* (Eng. trans. by G.A. Williamson. Penguin Books). Also P. Schaff's ed., *A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*. 2nd ser. Vol. I.N.Y., 1890.
- *Vita Constantini*. (ed. I. Heikel., *Eusebius Werke*. Leipzig, 1902). Schaff's ed. *A Select Library ... Ibid.*
- *De Laudibus Constantini*, *ibid.*
- Finlay, G., *Greece under the Romans*, London, 1907.
- Fletcher, C.R.L., *The Making of Western Europe*, Vol. I, London, 1912.
- Fliche, A. and Martin, A., *Histoire de l'Eglise*, Paris, 1950.
- Frend, W.H.C., *The Donatist Church*, London, 1952.
- Ganshof, F.L., *The Imperial Coronation of Charlemagne : Theories and Facts*, 1949.
- Gibbon, E., *The History of The Decline and Fall of the Roman Empire*. Ed. Bury, J.B. 7 vols. London, 1897-1902.
- Gotifredi Viterbiensis, *Panthcon*, in M.G.H.SS., vol. XXII.
- Graves, R., I, *Claudius* (Peng. Books).
- Gregory of Tours, *Historia Francorum*, in P.L., vol. 71. New Lat. ed. in M.G.H. 3 vols., 1951. (Trans. text by Dalton, O.M.).
- Gregorovius, F., *History of the City of Rome in the Middle Ages* (Hamilton's trans., London, 1909).
- Grousset, R., *L'Empire de Steppes*, Paris, 1939.
- Grumcl, V., *Le Patriarcat Byzantin*, Paris, 1947.
- Hefele, K.J. von., *Conciliengeschichte*. 9 vols., Freiburg, 1873-95. In English: *A History of the Councils of the Church*. 5 vols. Edinburgh, 1876-96. In French : *Histoire des Conciles*. Ed. Leclercq, C. Paris, 1907-ff.

- Heyd, W., *Histoire du Commerce du Levant au moyen âge*. Leipzig, 1885.
Reprint, 1936.
- Hodgkin, T., *Italy and her Invaders*, vol. I. 2nd ed., 1892.
- Hughes, P., *A History of the Church*, London, 1935.
- Hussey, J., *Church and Learning in the Byzantine Empire 867-1185*. London, 1937. *The Byzantine World*, London, 1957.
- Isidori, Hispalensis Episcopi. *Chronica Majora*. Ed. Migne, J.P., P.L., vol. 83.
- Jordanès, *De origine actibusque Getarum* (Th. Mommsen's ed. in M.G.H., V. I., 1882. (Getica).
- Julian the Apostate, *Juliani Opera II. Epistolae*. Ed. with Eng. trans. Wright, W.C., 3 vols. London, 1913-23.
- Ker, W.P., *The Dark Ages*, N.Y., 1958.
- Lactantius, *De mortibus persecutorum*, in P.L., vol. VII.
- Lecrivain, *Le Senat Romain depuis Diocletien*, Paris, 1884.
- Leff, G., *Medieval Thought from St. Augustine to Ockham*, London, 1958.
- Mansi, *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols., reprint, Paris and Leipzig, 1901-12.
- Marrou, H.I., *Saint Augustin et la fin de la culture antique*, Paris, 1938.
- Martin, E., J.A., *A History of the Iconoclastic Controversy*, London, 1932.
- Martianus Capella, *De Nuptiis Philologiae et Mercurii* (A. Dick's ed., 1925).
- Mierow, C.C., *The Gothic History of Jordanes* : (Eng. vers. 1915).
- *Monumenta Germaniae Historica. Epistolarum. III-IV. Epistolae Merovingici et Karolini aevi*. Ed. Dümmler, E., Berlin, 1892-95.
- *Monumenta Germaniae Historica Scriptores*, ed. G. Pertz & Others, Hanover, 1826.
- Noldin, H., *De praeceptis Dei et Ecclesiae*, Rome, 1908.
- Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State* (trans. by J.M. Hussey, Oxford, 1956).
- *Patrologia Latina*, ed. J.P. Migne, 221 vols., Paris, 1844-55.
- *Patrologia Graeco-Latina*, ed. J.P. Migne, 161 vols. (in 166), Paris, 1857-66.
- Paulus Diaconus, *Historia Longobardorum*, in P.L., vol. 95.

- Plotinus, *The Six Enneads*, (trans. by S. Mackenna and B.S. Page), *Series of Great Books of the Western World* (Publ. William Bentom).
- Procopius, *De bello Vandalico* (Loeb's ed., 1914). *Opera Omnia* (ed. Haury, J., B.S.G.R.T., Munich, 1913). Eng. trans. Dewing, 7 vols. London and N.Y. 1914-40.
- Southern, R.W., *The Making of the Middle Ages*, London, 1953.
- Tacitus, *On Britain and Germany* (trans. by H. Mattingly. Peng. Classics).
- Thompson, E.A., *A History of Attila and the Huns*, Oxford, 1948.
- Toynbee, A., *A Study of History* (6 vols.), London, 1939.
- Trevelyan, G.M., *History of England*, London, 1926.
- Vasiliev, A.A., *History of the Byzantine Empire* (2 vols.), Hadison & Hilwauke, 1964.
- Ware, T., *The Orthodox Church*, London, 1963.

Symbolum Nicaeno-Constantinopolitanum

Credo in unum Deum, Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilium et invisibilium. Et in unum Dominum Jesum Christum, Filium Dei unigenitum, ex Patre natum ante omnia saecula, Deum de Deo, lumen de lumine, Deum verum de Deo vero, genitum non factum, consubstantialem Patri, per quem omnia facta sunt; qui propter nos homines et propter nostram salutem descendit de coelis, et incarnatus est de Spiritu Sancto ex Maria Virgine et homo factus est, crucifixus etiam pro nobis sub Pontio Pilato, passus et sepultus est, et resurrexit tertia die secundum scripturas et ascendit in coelum, sedet ad dexteram Patris, et iterum venturus est cum gloria, judicare vivos et mortuos, cujus regni non erit finis. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, qui ex Patre (Filioque) procedit, qui cum Patre et Filio simul adoratur et conglorificatur, qui locutus est per prophetas. Et unam sanctam Catholicam et apostolicam ecclesiam. Confiteor unum baptisma in remissionem peccatorum, et exspecto resurrectionem mortuorum et vitam venturi saeculi. Amen.

Symbolum Quicumque quod vocatur Athanasianum

Quicumque vult salvus esse : ante omnia opus est ut teneat Catholicam fidem; quam nisi quis integram inviolatamque servaverit : absque dubio in aeternum peribit. Fides autem Catholica haec est: ut unum Deum in trinitate et Trinitatem in unitate veneremur, neque confudentes personas : neque substantiam separantes; alia est enim persona Patris, alia Filii : alia Spiritus Sancti; sed Patris et Filii et Spiritus Sancti una est divinitas : aequalis gloria, coaeterna majestas. Qualis Pater, talis Filius, et talis Spiritus Sanctus; increatus Pater, increatus Filius : increatus Spiritus Sanctus; immensus Pater, immensus Filius : immensus Spiritus Sanctus; aeternus Pater, aeternus Filius : aeternus Spiritus Sanctus; et tamen non tres aeterni : sed unus aeternus; sicut non tres increati, nec tres immensi : sed unus immensus et unus increatus.

Similiter omnipotens Pater, omnipotens Filius : omnipotens Spiritus Sanctus; et tamen non tres omnipotentes : sed unus omnipotens. Ita Deus Pater, Deus Filius : Deus Spiritus Sanctus; et tamen non tres dii : sed unus Deus. Ita Dominus Pater, Dominus Filius : Dominus Spiritus Sanctus; et tamen non tres domini; sed unus Dominus. Quia sicut singillatim unamquamque Personam et Deum et Dominum confiteri : Christiana veritate compellimur, ita tres deos aut tres dominos dicere : Catholica religione prohibemur.

Pater a nullo est factus : nec creatus nec genitus; Filius a Patre solo est : non factus nec creatus, sed genitus; Spiritus Sanctus a Patre et Filio : non factus nec creatus nec genitus, sed procedens. Unus ergo Pater, non tres patres; unus Filius, non tres filii : unus Spiritus Sanctus non tres spiritus sancti. In hac Trinitate nihil prius aut posterius : nihil majus aut minus, sed totae tres Personae coaeternae sibi sunt : et coaequales. Ita ut per omnia, sicut jam supra dictum est : et Trinitas in Unitate et Unitas in Trinitate veneranda sit. Qui vult ergo salvus esse : ita de Trinitate sentiat.

Sed necessarium est ad aeternam salutem : ut incarnationem quoque Domini .

nostri Jesu Christi fideliter credat. Est ergo fides recta ut credamus et confiteamur : quia Dominus noster Jesus Christus, Dei Filius, et Deus pariter et homo est.

Deus est, ex substantia Patris ante saecula genitus : et homo ex substantia matris in saeculo natus; perfectus Deus: perfectus homoe x anima rationabili et humana carne subsistens; aequalis Patri secundum deitatem : minor Patre secundum humanitatem; Qui licet Deus sit et homo: non duo tamen sed unus est Christus; unus autem non conversione divinitatis in carne: sed adsumptione humanitatis in Deo unns omnino, non confusione substantiae : sed unitate personae; nam sicut anima rotionabili et caro unus st homo : ita Deus et homo unus est Christus;

Qui passus est pro salute nostra: descendit ad inferos, resurrexit a mortuis, ascendit ad caelos, sedit ad dexteram Patris : inde venturus judicare vivos et mortuos. Ad cujus adventum omnes homines resurgere habent cum corporibus suis : et reddituri sunt de factis propriis rationem; et qui bona egerunt ibunt in vitam aeternam : qui mala in ignem aeternum.

Haec est fides catholica : quam nisi quis fideliter firmiterque crediderit, salvus esse non poterit.*

(1) This so-called Athanasian Creed was originally written in Latin, and cannot therefore be Athanasian, and it is not a Creed. (See F.J. Badcock, *The History of the Creeds*, London, 1930, p. 197).

Dom Morin, in *Revue Bened.* 1901, p. 339 says, "A mon avis le Quicumque est tout simplement une sorte de catéchisme élémentaire, destiné à mettre à la portée des esprits même les moins cultivés les formules dogmatiques .. touchant la Trinité et l'Incarnation : le tout avec un certain sens pratique, qui ne s'accure pas au même degré dans la plupart des anciennes professions de foi."

"The Quicumque Vult cannot, then, be earlier than the latter helf of the fourth century, and there is some probability that it is not later than the end of the fifth; we can say almost with certainty that it is not later than the sixth." (Badcock, *op. cit.*, p. 198).

Edictum Constantini ad Silvestrum Papam*

In nomine sanctae et individuae Trinitatis, Patris, scilicet, et Filii, et Spiritus sancti, imperator Caesar Flavius Constantinus, in Christo Jesu, uno ex eadem Trinitate sancta, salvatore Domino Deo nostro, fidelis, mansuetus, beneficus, Alemanicus, Gothicus, Sarmaticus, Germanicus, Britannicus, Hunnicus, pius, felix, victor ac triumphator, semper Augustus, sanctissimo ac beatissimo patri patrum Silvestro urbis Romanae episcopo et papae, atque omnibus ejus successoribus, qui in sede beati Petri usque in finem saeculi sessuri sunt, pontificibus, necnon et omnibus reverendissimis et Deo amabilibus catholicis episcopis, eidem sacrosanctae Romanae Ecclesiae per hanc nostram imperialem constitutionem subjectis in universo orbe terrarum, nunc et in posterum cunctis retro temporibus constitutis, gratia, pax, charitas, gaudium, longanimitas, misericordia a Deo patre omnipotente, et Jesu Christo Filio ejus, et Spiritu sancto cum omnibus vobis.

Ea quae salvator et redemptor noster Dominus Jesus Christus, altissimi Patris Filius, per suos sanctos apostolos Petrum et Paulum, interveniente patre nostro Silvestro summo pontifice et universali papa, mirabiliter dignatus est operari, liquida enarratione per hujus nostrae imperialis institutionis paginam, ad cognitionem omnium populorum in universo orbe terrarum studuit propalare nostra mansuetissima serenitas. Primum quidem nostram fidem, quam a praelibato beatissimo patre et oratore nostro Silvestro universali pontifice docti sumus, intima cordis confessione ad instruendas omnium vestrum mentes proferentes, et ita demum Dei misericordiam super nos diffusam annuntianes, nosse vos volumus, scient per anteriorem nostram sacram pragmaticam jussionem significavimus, nos a culturis idolorum, simulacris mutis et surdis, manufactis, diabolicis compositionibus, atque ab omnibus Satanae pompis recessisse, et ad integram

(1) P.L., Vol. 8, Cols. 567-78.

Christianorum fidem, quae est vera lux et vita perpetua, pervenisse; credentes, juxta id quod nos idem almificus et summus pater et doctor noster Silvester pontifex instruxit, in Deum Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilium omnium et invisibilium: et in Jesum Christum Filium ejus unigenitum, Dominum nostrum, per quem creata sunt omnia: et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificatorem universae creaturae. Hos, Patrem, et Filium, et Spiritum Sanctum, confitemur ita ut in Trinitate perfecta et plenitudo sit divinitatis, et unitas potestatis. Pater Deus, Filius Deus, et Spiritus Sanctus Deus, et tres unum sunt in Jesu Christo. Tres itaque formae, sed una potestas. Nam sapiens retro semper Deus edidit ex se, per quod semper erant gignenda saecula, verbum. Et quando eodem solo suae sapientiae verbo universam ex nihilo formavit creaturam, cum eo erat, cuncta suo arcano compenens mysterio... Haec est enim fides nostra catholica orthodoxa, a beatissimo patre nostro Silvestro summo pontifice nobis prolata ... Ipse enim Dominus noster, misertus mihi peccatori, misit sanctos suos apostolos ad visitandum nos, et lumen sui splendoris infulsit nobis, ut abstractum a tenebris, ad veram lucem et agnitionem veritatis me venisse gratularemur. Nam dum valida squaloris lepra totam mei corporis invasisset carnem, et multorum medicorum convenientium cura adhiberetur, nec ullius quidem cura promeruissemus salutem, ad hoc venerunt sacerdotes Capitolii, dicentes mihi debere fieri fontem in Capitolio, et compleri hunc innocentium sanguine et eo calente loto me, posse mundari. Et secundum eorum dicta, aggregatis plurimis innocentibus infantibus, dum vellent sacrilegi paganorum sacerdotes eos mactare, et ex eorum sanguine fontem repleri, cernens serenitas nostra lacrymas matrum eorum, illico exhorruí facinus: miseratusque eas, proprios illis restitui praecipimus filios suos, datisque vehiculis et donis concessis, gaudentes ad propria relaxavimus. Eadem igitur transacta die, nocturno nobis facto silentio, dum somni tempus advenisset, adsunt apostoli SS. Petrus et Paulus, dicentes mihi: quoniam flagitiis posuisti terminum, et effusionem sanguinis innocentis horruisti, missi sumus a Christo domino Deo nostro, dare tibi sanitatis recuperandae consilium. Audi ergo monita nostra, et fac quodcumque indicamus tibi: Silvester episcopus hujus civitatis ad montem Soracte persecutiones tuas fugiens, in cavernis petrarum cum suis clericis lateb-

ram fovet. Hunc ad te cum adduxeris, ipse tibi piscinam pietatis ostendet, in qua dum tertio te merserit, omnis te valetudo ista deseret leprae. Quod dum factum fuerit, hanc vicissitudinem tuo salvatori compensa, ut omnes jussu tuo per totum orbem restaurentur ecclesiae. Te autem ipsum in hac parte purifica ut relictis omni superstitione idolorum, Deum vivum et verum, qui solus est et verus, adores et excolas, ut ad ejus voluntatem attingas. Exurgens igitur a somno, protinus juxta id quod a sanctis apostolis admonitus sum, peregi : advocatoque eodem praecipuo et magnifico patre et illuminatore nostro Silvestro universali papa omnia a sanctis apostolis mihi praecepta dixi verba ... Lateranense; in uno cilicio, ut de omnibus quae a nobis impie peracta, atque injuste disposita fuerant, vigiliis jejuniis atque lacrymis et orationibus, apud Dominum Deum nostrum Jesum Christum salvatorem veniam impetraremus. Deinde per manus impositionem clericorum, usque ad ipsum praesulem veni. Ibique renuntians Satanae, pompis et operibus ejus, vel universis idolis manufactis, credere me in Deum Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilium omnium et invisibilium, et in Jesum Christum Filium ejus unicum Dominum nostrum, qui conceptus est de Spiritu Sancto, natus ex Maria virgine, spontanea voluntate coram omni populo professus sum. Benedictoque fonte, illic me trina mersione unda salutis purificavit. Positoque me in fontis gremio manu de coelo me contingentem propriis oculis vidi. De qua mundus exurgens, ab omni me leprae squalore mundatum agnoscite : levatoque me de venerabili fonte, induto vestibus candidis, septiformis gratiae Sancti Spiritus consignationem adhibuit beati chrismatis unctione, et vexillum sanctae crucis in mea fronte linivit, dicens : "Signet te Deus sigillo fidei suae, in nomine Patris, et Filii, et Spiritus Sancti, in consignatione fidei."

Cunctoque elrus respondit : "Amen." Et adjecit praesul : "Pax tibi." ...

Utile judicavimus una cum omnibus nostris satrapis, et universo senatu, optimatibusque meis, etiam et cuncto populo Romanae gloriae imperio subjacenti, ut sicut in terris sanctus Petrus vicarius filii Dei esse videtur constitutus, etiam et pontifices, qui successores sunt ipsius principis apostolorum, principatus potestanter, amplius quam terrena imperialis nostrae serenitatis mansuetudo

habere videtur, concessam a nobis nostroque imperio obtineant, eligentes nobis ipsum principem apostolorum, et ejus successores, firmos apud Deum esse patronos. Et sicut nostram, terrenam imperialem potentiam, sic ejus sacrosanctam Romanam ecclesiam decrevimus veneranter honorari et amplius quam nostrum imperium et terrenum thronum, sedem sacratissimam beati Petri gloriose exaltari, tribuentes ei potestatem et gloriae dignitatem atque vigorem et honorificentiam imperialem: atque decernentes sancimus, ut principatum teneat tam super quatuor praecipuas sedes, Antiochenam, Alexandrinam, Hierosolymitanam, et Constantinopolitanam, quamque etiam super omnes in universo orbe terrarum Dei ecclesias... Unde congruum prospeximus, nostrum imperium et regni potestatem in orientalibus transferri ac transmutari regionibus, et in Byzantiae provinciae optimo loco, nomini nostro civitatem aedificari, et nostrum illic constitui imperium...

Hujus vero imperialis decreti nostri paginam propriis manibus roborantes, super venerandum corpus beati Petri principis apostolorum posuimus, ibi eidem Dei apostolo spondentes, nos cuncta inviolabiliter conservare, et nostris successoribus imperatoribus conservanda in mendatis relinquere, ac beato patri nostro Silvestro summo pontifici et universali papae, ejusque cunctis successoribus pontificibus, Domino Deo et Salvatore nostro Jesu Christo annuente, tradimus perenniter atque feliciter possidenda.

Et subscriptio imperialis : Divinitas vos conservet per multos annos sanctissimi ac beatissimi patres. Datum Romae, sub tertio die Kalendarum Aprilium, domino nostro Flavio Constantino Augusto quater et Gallicano viris clarissimis consulibus."

**Epistola B. Caroli Magni
ad Michaellem Imperatorem
De pace inter utrumque imperium Firmanda
(Anno 811.)
(Ex Froben. Opp. beati Alcuini)***

In nomine Patris, et Filii, et Spiritus Sancti, Carolus, divina largiente gratia, imperator et Augustus, idemque rex Francorum et Langobardorum, dilecto et honorabili fratri Michaeli glorioso imperatori et Augusto, aeternam in Domino nostro Jesu Christo salutem.

Benedicimus Dominum Jesum Christum verum Deum nostrum, et gratias illi, juxta virium possibilitatem et intelligentiae nostrae quantitatem, ex toto corde referimus, qui nos ineffabili dono benignitatis suae in tantum divites efficere dignatus est, ut in diebus nostris diu quaestiam, et semper desideratam pacem inter Orientale atque Occidentale imperium stabilire, et Ecclesiam suam catholicam sanctam et immaculatam, quae toto orbe diffusa est, juxta quotidianas ipsius postulationes sicut semper regere ac protegere, ita etiam nunc idem in nostro tempore adunare atque pacificare dignatus est. Quod adeo tanquam peractum dicimus, quia quidquid de hoc ex nostra parte faciendum fuit, fecimus; vosque similiter de vestra parte facere velle non dubitamus, fiduciam habentes in illo qui hoc opus, quod in manibus habemus, id est, pacem fieri praecepit, quia fidelis et verax est, et omni bene operanti cooperator existit; qui etiam a nobis bene inchoata ad perfectionem, ut confidimus, deducturus est.

Hujus perfectionis desiderio accensi praesentes legatos nostros Amalharium venerabilem Treverorum episcopum, et Petrum religiosum abbatem venerabilis monasterii sanctorum apostolorum ad tuae dilectae fraternitatis gloriosam praesentiam direximus, ut juxta quod fideles legati dilectae fraternitatis tuae

(*) P.L., Vol. 98, Cols. 931-32.

Michahel venerabilis metropolita, et Arsasius ac Theognastus gloriosi protospatharii nobiscum fecerunt, suscipiendo a nobis pacti conscriptionem, tam nostra propria, quam et sacerdotum et procerum nostrorum subscriptione firmatam ita et memorati legati nostri foederis conscriptionem tuam et sacerdotum, patrumque ac procerum tuorum subscriptionibus roboratam, a sacrosancto altari tuae manus porrectione suscipiant, et, Deo iter illorum prosperante, ad nos deferant, quia et ratio postulabat, et talis fuit nostra et legatorum tuorum convenientia, ut post profectionem illorum, cum primum opportunum navigandi tempus adveniret, legatos nostros ad tuae dilectae fraternitatis gloriosam praesentiam mitteremus, qui supradictam pacti sui foederis conscriptionem, te dante, susciperent, et nobis afferent.

Quapropter rogamus, dilectam et gloriosam fraternitatem tuam, ut si tibi illa, quam nos fecimus et tibi misimus, pacti descriptio placuerit, similem illi Graecis litteris conscriptam, et eo modo quo superius diximus roboratam, missis nostris memoratis dare digneris, eosque, postquam ad te venerint, et a te, sicut in tua charitate est, fidimus benigne suscepti fuerint, absque non necessaria dilatione absolvere jubeas, ut de illorum reditu, et de tuae dilectae fraternitatis rescripto, Domino opitulante, gaudeamus, et tibi largitor omnium bonorum Deus digna recompensatione restituat, quod pacis, quam ille suos inter se habere praecepit, amator et confirmator esse certasti. Bene vale !

Extract from Edward Gibbon
on Christianity*

As the happiness of a future life is the great object of religion, we may hear without surprise or scandal that the introduction, or at least the abuse of Christianity, had some influence on the decline and fall of the Roman Empire. The clergy successfully preached the doctrines of patience and pusillanimity; the active virtues of society were discouraged; and the last remains of military spirit were buried in the cloister : a large portion of public and private wealth was consecrated to the specious demands of charity and devotion; and the soldiers' pay was lavished on the useless multitudes of both sexes who could only plead the merits of abstinence and chastity. Faith, zeal, curiosity, and the more earthly passions of malice and ambition, kindled the flame of theological discord; the church, and even the state, were distracted by religious factions, whose conflicts were sometimes bloody and always implacable; the attention of the emperors was diverted from camps to synods; the Roman world was oppressed by a new species of tyranny; and the persecuted sects became the secret enemies of their country. Yet party-spirit, however pernicious or absurd, is a principle of union as well as of dissension. The bishops, from eighteen hundred pulpits, inculcated the duty of passive obedience to a lawful and orthodox sovereign; their frequent assemblies and perpetual correspondence maintained the communion of distant churches; and the benevolent temper of the Gospel was strengthened, though confined, by the spiritual alliance of the catholics. The sacred indolence of the monks was devoutly embraced by a servile and effeminate age; but if superstition had not afforded a decent retreat, the same vices would have tempted the unworthy Romans to desert, from baser motives, the standard of the republic. Religious precepts are easily obeyed which indulge and sanctify the natural inclinations of their votaries; but the pure and genuine influence of Christianity may be traced in its beneficial though imperfect, efforts on the barbarian proselytes of the North. If the decline of the Roman empire was hastened by the conversion of Constantine, his victorious religion broke the violence of the fall, and mollified the ferocious temper of the conquerors ...

(*) Gibbon, E., *Decline and Fall*, Ch. XXXVIII.

**Extract from Arnold Toynbee .
on
Barbarism and Religion***

The degree of Gibbon's hallucination is betrayed by the very title of his great work. "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire"! The author of a history that bears this name is surely beginning his narrative at a point which is very near the end of the actual story; for the Roman Empire itself was a monumental symptom of the far-advanced decline of a Hellenic Society of which this empire was the universal state. When the whole story is taken into account, the rapid downfall of the Empire after the Antonine Age is seen to be not at all surprising. On the contrary, it would have been surprising if the Empire had endured; for this empire was already doomed before it was established. It was doomed because its establishment was nothing but a rally which could delay, but not permanently arrest, the already irretrievable ruin of a Hellenic Society which the Roman Empire temporarily embodied.

The breakdown and disintegration of the Hellenic Society itself is the story in which Gibbon would have found a subject altogether worthy of his genius; and if he had set himself to tell this longer tale from the beginning, he would have found that "the triumph of Barbarism and Religion" was not the plot of the play, but only an epilogue — not a cause of the breakdown, but only an inevitable accompaniment of the dissolution in which the long process of disintegration was bound to end. More than that, he would have found that the triumphant Church and Barbarians were not, after all, external powers, but were really children of the Hellenic household who had been morally alienated from the dominant minority of the Hellenic Society in the course of a "Time of

(*) A.J. Toynbee, A Study of History, The Cause of the Breakdown of Civilizations : "Sacra necessitas ? Loss of Command over the Environment ? Failure of Self-determination ?", Vol. IV, pp. 61. seq.

'Troubles' which had intervened between a Periclean breakdown and an Augustan rally. In fact, if Gibbon had carried his inquest back to the true beginning of the tragedy, he would have had to return a different verdict. He would have had to report that the Hellenic Society was a suicide who had attempted to undo the fatal results of his own self-immolation when his life was already past saving, and who eventually received a "coup de grace" from his own mishandled and alienated children at a time when the Augustan rally had already given way to a third-century relapse and the patient was manifestly dying from the after-effects of his self-inflicted wounds ...

The application to politics of Volney's* intuition that "*la source de ses calamités réside dans l'homme même*" is anticipated in a passage of Saint Cyprian, in which the African Father applies the same truth to the entire field of social life.**

"You complain of the aggression of foreign enemies; yet, if the foreign enemy were to cease from troubling, would Roman really be able to live at peace with Roman (*esse pax inter ipsas togas possit*)? If the external danger of invasion by armed barbarians were to be stamped out, should we not be exposed to a fiercer and a heavier civil bombardment, on the home front, in the shape of calumnies and injuries inflicted by the powerful upon their weaker fellow citizens? You complain of crop-failures and famine; yet the greatest famines are made not by drought but by rapacity, and the most flagrant distress springs from profiteering and price-raising in the corn-trade. You complain that the clouds do not disgorge their rain in the sky, and you ignore the barns that fail to disgorge their grain on terra firma. You complain of the fall [in production, and ignore the failure to distribute what is actually produced to those who are in need of it. You denounce plague and pestilence, while really the effect of these scourges is to bring to light, or bring to a head, the crimes of human beings: the callousness that shows no pity for the sick, and the covetousness and rapine that are in full cry after the property of the dead."

(*) Volney, C.F.: "Les Ruines, Paris, 1876 (in *Oeuvres Complètes*).

(**) Toynbee, op. cit., pp. 121-22.

(***) Thascius Caecilius Cyprianus: *Ad Demetrianum*, Chap. 10. (Toynbee, n. 1., p. 122).

الجدول الزمنية

بابوات

٣٩٨ — ٣٨٤	سريكيوس	٩٩ — ٩٠	كلمنس الأول
٤٠١ — ٣٩٨	أناستاسيوس الأول	١٠٧ — ٩٩	أفارستوس
٤١٧ — ٤٠١	أنوسنت الأول	١١٦ — ١٠٧	إسكندر
٤١٨ — ٤١٧	زوزيموس	١٢٥ — ١١٦	سكستوس
٤٢٢ — ٤١٨	بونيفاس الأول	١٣٦ — ١٢٥	تلسفوروس
٤٣٢ — ٤٢٢	كولسستينوس الأول	١٤٠ — ١٣٦	هجينوس
٤٤٠ — ٤٣٢	سيكستوس الثالث	١٥٤ — ١٤٠	بيوس الأول
٤٦١ — ٤٤٠	ليو الأول العظيم	١٦٥ — ١٥٤	انكيتوس
٤٦٨ — ٤٦١	هيلاريوس	١٧٤ — ١٦٥	سوتير
٤٨٣ — ٤٦٨	سمبليكيوس	١٨٩ — ١٧٤	اليوثيروس
٤٩٢ — ٤٨٣	فيلكس الثاني	١٩٨ — ١٨٩	فكتور
٤٩٦ — ٤٩٢	جيزاريوس الأول	٢١٧ — ١٩٨	زفريوس
٤٩٨ — ٤٩٦	أناستاسيوس الثاني	٢٢٢ — ٢١٧	كالكستوس
٥١٤ — ٤٩٨	سپاخوس	٢٣٠ — ٢٢٢	أوربانوس
٥٢٣ — ٥١٤	هورمزداس	٢٣٥ — ٢٣٠	بونتيانوس
٥٢٦ — ٥٢٣	يوحنا الأول	٢٣٦ — ٢٣٥	انثيروس
٥٣٠ — ٥٢٦	فيلكس الثالث	٢٥٠ — ٢٣٦	فابيانوس
٥٣٢ — ٥٣٠	بونيفاس الثاني	٢٥٣ — ٢٥١	كورنيليوس الأول
٥٣٥ — ٥٣٣	يوحنا الثاني	٢٥٤ — ٢٥٣	لوسيوس الأول
٥٣٦ — ٥٣٥	أغابيتوس الأول	٢٥٧ — ٢٥٤	ستيفانوس الأول
٥٤٠ — ٥٣٦	سلفريوس	٢٥٨	سكستوس الثاني
٥٥٥ — ٥٤٠	فيجيليوس	٢٦٨ — ٢٥٩	ديونيسيوس
٥٦١ — ٥٥٦	بيلاجيوس الأول	٢٧٤ — ٢٦٩	فيلكس الأول
٥٧٤ — ٥٦١	يوحنا الثالث	٢٨٣ — ٢٧٥	يوطرخيانوس
٥٧٩ — ٥٧٥	بندكت الأول	٢٩٦ — ٢٨٣	قايروس
٥٩٠ — ٥٧٩	بيلاجيوس الثاني	٣٠٤ — ٢٩٦	مارسيلينوس
٦٠٤ — ٥٩٠	جريجوري الأول العظيم	٣٠٩ — ٣٠٨	مارسلوس
٦٠٦ — ٦٠٤	سابينيانوس	٣٠٩	يوسبيوس
٦٠٧	بونيفاس الثالث	٣١٤ — ٣١١	مليتادييس
٦١٥ — ٦٠٨	بونيفاس الرابع	٣٣٥ — ٣١٤	سلفستر الأول
٦١٨ — ٦١٥	ديوس ديدت	٣٣٦	ماركوس
٦٢٥ — ٦١٩	بونيفاس الخامس	٣٥٢ — ٣٣٧	يوليوس الأول
٦٣٨ — ٦٢٥	هونوريوس الأول	٣٦٦ — ٣٥٢	ليبريوس
٦٤٠	سفرنيوس	٣٨٤ — ٣٦٦	دماسوس الأول

٧١٥ — ٧٠٨	قنسطنطين الأول	٦٤٢ — ٦٤٠	يوحنا الرابع
٧٣١ — ٧١٥	جريجورى الثانى	٦٤٩ — ٦٤٢	ثيودوروس الأول
٧٤١ — ٧٣١	جريجورى الثالث	٦٥٣ — ٦٤٩	مارتينوس الأول
٧٥٢ — ٧٤١	زكريا	٦٥٧ — ٦٥٤	يوجين الأول
٧٥٢	ستيفن الثانى		
٧٥٧ — ٧٥٢	ستيفن الثالث	٦٧٢ — ٦٥٧	فيتاليانوس
٧٦٧ — ٧٥٧	بولس الأول	٦٧٦ — ٦٧٢	أديوداتوس
٧٧٢ — ٧٦٨	ستيفن الرابع	٦٧٨ — ٦٧٦	دونوس
٧٩٥ — ٧٧٢	هادريان الأول	٦٨١ — ٦٧٨	أغاثيو
٨١٦ — ٧٩٥	ليو الثالث	٦٨٣ — ٦٨٢	ليو الثانى
٨١٧ — ٨١٦	ستيفن الخامس	٦٨٥ — ٦٨٤	بندكت الثانى
٨٢٤ — ٨١٧	باسكال الأول	٦٨٦ — ٦٨٥	يوحنا الخامس
٨٢٧ — ٨٢٤	يوجين الثانى	٦٨٧ — ٦٨٦	قونون
٨٢٧	فالنتينوس	٧٠١ — ٦٨٧	سرجيوس الأول
٨٤٤ — ٨٢٨	جريجورى الرابع	٧٠٥ — ٧٠١	يوحنا السادس
٨٤٧ — ٨٤٤	سرجيوس الثانى	٧٠٧ — ٧٠٥	يوحنا السابع
٨٥٥ — ٨٤٧	ليو الرابع	٧٠٨	زيزينوس

أباطرة

١١٧ — ٩٨	تراجان	٢٧ ق. م. — ١٤ م.	أغسطس
١٣٨ — ١١٧	هادريان	٣٧ — ١٤	طير يوس
١٦١ — ١٣٨	أنتونينوس بيوس	٤١ — ٣٧	جايوس
١٨٠ — ١٦١	ماركوس أوريليوس	٥٤ — ٤١	كلوديوس
١٩٢ — ١٨٠	كومودوس	٦٨ — ٥٤	نيرون
١٩٣	برقيناكس	٦٩ — ٦٨	جالبا
٢١١ — ١٩٣	سبتيموس سيفيروس	٦٩	أوتو
٢١٧ — ٢١١	أنتونينوس	٦٩	فتليوس
٢١٨ — ٢١٧	ماكرينوس	٧٩ — ٦٩	فسباسيان
٢٢٢ — ٢١٨	أنتونينوس (الجالبالوس)	٨١ — ٧٩	تيتوس
٢٣٥ — ٢٢٢	سفيروس الكسندر	٩٦ — ٨١	دوميتيان
٢٣٨ — ٢٣٥	ماكسيمينوس تراكس	٩٨ — ٩٦	نيرفا

٣٦١ — ٣٥٠	قنسطنطيوس الثاني	٢٣٨	جورديان الأول
٣٦٣ — ٣٦١	جوليان	٢٣٨	جورديان الثاني
٣٦٤ — ٣٦٣	جوفيان	٢٤٤ — ٢٣٨	جورديان الثالث
	قالتينيان الأول	٢٤٩ — ٢٤٤	فيليب العربي
٣٧٥ — ٣٦٤	قالنس .	٢٥١ — ٢٤٩	دكيوس
	جراتيان	٢٥٣ — ٢٥١	تريونيانوس جالوس
	قالنس	٢٦٠ — ٢٥٣	فالريان
٣٧٨ — ٣٧٥	جراتيان	٢٦٨ — ٢٦٠	جالينوس
	قالتينيان الثاني	٢٧٠ — ٢٦٨	كلوديوس الثاني
٣٩٥ — ٣٧٨	ثيودوسيوس الأول	٢٧٥ — ٢٧٠	أورليان
٣٩٥	عام	٢٧٦ — ٢٧٥	تاكيتوس
	تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين	٢٨٢ — ٢٧٦	بروبوس
	غربي وشرقي .	٢٨٣ — ٢٨٢	كاروس
	أباطرة الغرب بعد عام ٣٩٥	٢٨٤ — ٢٨٣	كارينوس
٤٢٣ — ٣٩٥	هونوريوس	٣٠٥ — ٢٨٤	دقلديانوس
٤٥٥ — ٤٢٥	قالتينيان الثالث	٣٠٥ — ٢٨٦	ماكسيميان
٤٥٥	بترونيوس ماكسيموس	٣١١ — ٣٠٥	جاليريوس
٤٥٦ — ٤٥٥	أفثيوس		(بالاشتراك مع قنسطنطيوس كلوروس ،
٤٦١ — ٤٥٧	ماجوريان		سفيروس الثاني ، ليسينيوس ، قنسطنطين
٤٦٥ — ٤٦١	لييوس سفيروس		الأول ، ماكسيمينوس دازا) »
٤٧٢ — ٤٦٧	أنثيميوس	٣٢٤ — ٣١١	قنسطنطين الأول
٤٧٢	أولبريوس		(بالاشتراك مع ليسينيوس)
٤٧٤ — ٤٧٣	جليكريوس	٣٣٧ — ٣٢٤	قنسطنطين الأول
٤٧٥ — ٤٧٤	يوليوس نيبوس		قنسطنطين الثاني
٤٧٦ — ٤٧٥	روميلوس أغسطس	٣٤٠ — ٣٣٧	قنسطنطيوس الثاني
	نهاية الإمبراطورية في الغرب		تسطنز
	على يد أودواكر المتبربر		قنسطنطيوس الثاني
		٣٥٠ — ٣٤٠	فتسطنز

أباطرة القسطنطينية

أسرة هرقل		أسرة ثيودوسيوس	
٦٤١ — ٦١٠	هرقل	٤٠٨ — ٣٩٥	أركاديوس
٦٦٨ — ٦٤١	قنسطانز الثاني	٤٥٠ — ٤٠٨	ثيودوسيوس الثاني
٦٨٥ — ٦٦٨	قنسططين الرابع	٤٥٧ — ٤٥٠	مرقيان -
٦٩٥ — ٦٨٥	جستينيان الثاني		..
٦٩٨ — ٦٩٥	ليونتيوس		أسرة ليو
٧٠٥ — ٦٩٨	طبيير يوس الثالث	٤٧٤ — ٤٥٧	ليو الأول
	جستينيان الثاني	٤٧٤	ليو الثاني
٧١١ — ٧٠٥	(عودة للحكم)	٤٩١ — ٤٧٤	زينو
٧١٣ — ٧١١	باردانيس	٥١٨ — ٤٩١	أناستاسيوس
٧١٦ — ٧١٣	أناستاسيوس الثاني		
٧١٧ — ٧١٦	ثيودوسيوس الثالث		أسرة جستينيان
الأسرة السورية			
٧٤١ — ٧١٧	ليو الثالث	٥٢٧ — ٥١٨	جستن الأول
٧٧٥ — ٧٤١	قنسططين الخامس	٥٦٥ — ٥٢٧	جستينيان الأول
٧٩٧ — ٧٨٠	قنسططين السادس	٥٧٨ — ٥٦٥	جستن الثاني
٨١١ — ٨٠٢	نقفور الأول	٥٨٢ — ٥٧٨	طبيير يوس الثاني
٨١١	ستراوراكوس	٦٠٢ — ٥٨٢	موريس
٨١٣ — ٨١١	ميخائيل الأول	٦١٠ — ٦٠٢	فوقاس -
٨٢٠ — ٨١٣	ليو الخامس		

الإمبراطورية الرومانية المتجددة في الغرب

٨٨٧ — ٨٨١	شارل الثالث السمين	٨١٤ — ٨٠٠	مشرلمان
٨٩٤ — ٨٩١	جاي من سبولتو	٨٤٠ — ٨١٤	لويس الثاني
٨٩٨ — ٨٩٤	لامبرت من سبولتو	٨٥٥ — ٨٤٠	لوثير الأول
٨٩٩ — ٨٩٦	ارنولف من كارنشيا	٨٧٥ — ٨٥٥	لويس الثاني
		٨٧٧ — ٨٧٥	شارل الثاني الأصلع

الملوك القوط الشرقيون

٤٧٧ — ٤٣٩	جيزريك	٥٢٦ — ٤٩٣	ثيودوريك
٤٨٤ — ٤٧٧	هونريك	٥٣٤ — ٥٢٦	آثالاريك
٤٩٦ — ٤٨٤	جونتاموند	٥٣٦ — ٥٣٤	ثيودوهاد
٥٢٣ — ٤٩٦	ترازاموند	٥٤٠ — ٥٣٦	فيتجيز
٥٣١ — ٥٢٣	هلمريك	٥٤١ — ٥٤٠	هلمبياد
٥٣٤ — ٥٣١	جلمير	٥٤١	أراريك
		٥٥٣ — ٥٤١	توتيل
		٥٥٣	تبا

الملوك القوط الغربيون

٦١٢ — ٦١٠	جوندمار	٤٨٤ — ٤٦٦	يوريك
٦٢١ — ٦١٢	سيزبوت	٥٠٧ — ٤٨٤	آلاريك الثاني
٦٢١	ريكارد الثاني		ثيودوريك
٦٣١ — ٦٢١	سونزيلا	٥٢٦ — ٥٠٦	وآمالارك
٦٣٦ — ٦٣١	سيزفاند	٥٣١ — ٥٢٦	آمالارك (بمفرده)
٦٤٠ — ٦٣٦	شتيلا	٥٤٨ — ٥٣١	ثيودس
٦٤٢ — ٦٤٠	تولجا	٥٤٩ — ٥٤٨	ثيودجيزل
٦٥٢ — ٦٤٢	شندازونث	٥٥٤ — ٥٤٩	آجيلا
٦٧٢ — ٦٥٣	ريكزونث	٥٦٧ — ٥٥٤	آثاناجلد
٦٨٠ — ٦٧٢	قامبا	٥٧٢ — ٥٦٨	ليوفا الأول
٦٨٧ — ٦٨٠	أرفيج	٥٨٦ — ٥٦٨	ليوفجلد
٧٠١ — ٦٨٧	أجيكا	٦٠١ — ٥٨٦	ريكارد الأول
٧٠٩ — ٧٠١	فيتيزا	٦٠٣ — ٦٠١	ليوفا الثاني
٧١١ — ٧٠٩	رودريك (لزيق)	٦١٠ — ٦٠٣	وينرخ

الملوك اللومبارد

٦٦٢ — ٦٧١	جرموالد	٥٦٨ — ٥٧٢	البوين
٦٧١ — ٦٨٨	بركتارت (ثانية)	٥٧٢ — ٥٧٤	كليف
٦٨٨ — ٧٠٠	كونبرت	٥٨٤ — ٥٩٠	أوتارى
٧٠٠	لوتبرت	٥٩٠ — ٦١٦	أجيلولف
٧٠٠ — ٧١٢	أربرت الثانى	٦١٦ — ٦٢٦	أدالوالد
٧١٢	أنسبراند	٦٢٦ — ٦٣٦	أريوالد
٧١٣ — ٧٤٤	ليتوبراند	٦٣٦ — ٦٥٢	روتارى
٧٤٤	هلدبراند	٦٥٢	رودوالد
٧٤٤ — ٧٤٩	راتكيز	٦٥٢ — ٦٦١	أربرت الأول
٧٤٩ — ٧٥٦	استولف		جودبرت
٧٥٦ — ٧٧٤	دزديوس	٦٦١ — ٦٦٢	بركتارت

Bibliotheca Alexandrina



0666795

١٠١٢٩٣/٠١

٢٩٠٠